A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

مجلد مطابع الدقر
تلفون ٢٨٩٧٧

A.U.B. LIBRARY

U. Lib

CA
915.69
V92sA
V.1-2
C.1

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب البرقي

الجزء الاول

الحقوق محفوظة

المطبعة اللبنانية
بعبدا ـ لبنان ١٩٤٩

تقديم

الاستاذ حبيب السيوفي قلم سيال في خوض المواضيع التاريخية القديمة . وقد طالع قرّاء مجلتنا « الرسالة المخلصية » الشيء الكثير من ذلك . وها هو اليوم يتقدم لنا في هذا الجزء الاول موضوعاً شائقاً عن بلادنا واحوالها وسكانها في القرن الثامن عشر ، ويطرفنا في جزء ثانٍ ببحث جليل من تقسيم هذه البلاد الى ايالات وولايات وعن افادات اخرى كما رواها احد مشاهير الغربيين الرحالة النقادة فولني .

فقد اقتضب السيد السيوفي هذه النبذة المختصرة من كتاب المؤلف المذكور بجزئيه ، بلغة عربية متينة سائغة ، تشهد له بطول الباع في الترجمة والتلخيص والايضاح ... وقد تكرم علينا اعزّه الله بهذه النبذة لنقدمها للرأي العام مطبوعة فتكون ذخيرة لخزانة الادب والمتأدبين . وقد جعلنا هذا الجزء منها هدية « الرسالة » لهذه السنة فعسى ان يروق القرّاء الافاضل . ويسدلون ستار العذر على ما وقع فيه من الاغلاط المطبعية فيصلحونها قبل القراءة . والكريم من عذر .

فهرس الكتاب

صفحة

تقديم

١ توطئة

١ المؤلف

٩ سكان سوريا

١٣ التركمان

١٥ عرب البادية

٣٢ الأكراد

٣٣ النصيرية

٣٦ الموارنة

٤٤ الدروز

٥٤ حكومة الدروز

٦٣ المتاولة

٦٥ الشيخ ظاهر العمر

٩١ علي بك المصري

١٠٦ وصف ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

توطئة

تتضمن الصفحات التالية ما كتبه عن سوريا ولبنان وفلسطين ، رحالة بل عالم فرنسي شهير ، جاء هذه البلدان منذ مئة وخمسين سنة ، واقام فيها ثلاث سنين ، فدرس احوالها ، والمّ بشؤونها ، وكي لا يفوته شيء مما رام الوقوف عليه ، خالط سكانها ، وتعلم لغتهم وألف عاداتهم . فالمعلومات التي توصل الى احرازها ، سجلها في كتاب ننقله معرّبين بعضه بتصرف ، وملخصين البعض الآخر بدقة . بيد اننا اهملنا الكثير من آراء المؤلف ، وهو امثال متقدم ، لم يكن لنا منه مندوحة . وقد ضربنا ايضاً صفحاً عن جانب الكتاب الخاص بجغرافية هذه البلاد ، وشرح طبيعتها . واما الحوادث التي جرت في عصر المؤلف ، والتي شهدها بأم عينه ، ووصفه الرائع لما وقع بصره عليه ، فذلك كله يجده القارئ ، كما قلنا ، اما معرّباً بتصرف ، او ملخصاً بامانة .

المؤلف

هو قسطنطين فرنسوا « فولني » (1) ولد في « كرَوان » احدى مدن فرنسة ، في ٣ شباط سنة ١٧٥٧ واسم اسرته « شاسبوف » (2) . فلجأ الاب الى ان يدعى ابنه بهذا الاسم فسماه « بواجيره » (3) .

---

(1) François de Volney, comte et pair de France membre de l'Académie Française, membre honoraire de la Société Asiatique séant à Calcutta.

(2) Chasseboeuf

(3) Boisgirats

وكان الاب محامياً لدى المحاكم ، فرغب ان يكون ابنه محامياً مثله ؛ لكن الابن لم يرَ في مهنة المحاماة ما كانت تصبو اليه نفسه . ولما اتم دروسه ، وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، رحل الى باريز ، وبدلاً من ان ينصرف الى اللعب واللهو ، قضى في دار الكتب الكبرى جانباً من وقته ، منكباً على الدرس ، عاكفاً على قراءة المؤلفات التاريخية والفلسفية . ثم اختار الطب مهنة له ، فدرسه ثلاث سنين ، مثابراً في آن واحد على التردد الى دور الكتب ومطالعة المؤلفات المفيدة . ووضع في تلك الغضون كتاباً في علم التاريخ وعرضه على الاكاديمية الفرنسية التي خطأت روايته فيه لبعض الحوادث ، فبادر الى اصلاح خطأه ، بكتاب آخر دعاه « ابحاث تاريخية جديدة »

وكان التفكير الطويل يلذ له ، ويتوق نفسه الى بلوغ اقصى درجة الرقي في العصر ما يستطاع من الوقت . ولقد جاءته فرصة سانحة لادراك امانيه ، وهي انه ورث ستة آلاف فرنك ذهب . فعقد من ساعته النية على انفاقها في سبيل سياحة طويلة في انحاء مصر وسوريا . وكان الاوربيون اذ ذاك لا يعرفون من ذينك القطرين الا النزر اليسير . ولم يثنه ما كان سيصادف فيها من الاخطار ، ويتجشمه من المتاعب والمشقات ، فقضى سنة بتمامها في التأهب للسفر ، متمرناً على تحمل التعب والجوع والعطش ، وعلى السير الساعات الطوال ، وتسلق الاكم والجبال ، والانحدار في الاودية والوهاد ، وامتطاء صهوة جواد بلا سرج ولا لجام .

واما اسم اجداده فانه لم يقع لديه موقع الاستحسان فعزم على ابداله بغيره ، وفاتح في امره عمه ، فاتفق كلاهما على الاسم « فولني » وهو الاسم الذي اشتهر به بعدئذ .

وفي السنة ١٧٨٤ ركب البحر من مرسيليا ، غير حامل معه سوى بعض

الملابس النفيسة ... [illegible] ... الى ... [illegible]

فلما وصل الى مصر ... [illegible] ... شهور ... [illegible]

عادات ... [illegible] ... كل شيء ... [illegible] ... كل

[illegible] ... لكن ... [illegible]

سافر الى ... [illegible]

بعض ... [illegible]

[illegible] ... الى ... [illegible]

بارشاد ... [illegible]

فعندما ... [illegible]

[illegible] ... الرسالة وقرأ ما فيها ، قال له ... [illegible]

[illegible]

[illegible]

واعجب ... بالمعاملة الطيبة التي ... [illegible]

[illegible]

وقد ... [illegible]

واشتغلهم ... [illegible]

له ... [illegible]

[illegible]

على جانب كبير من الحال ... [illegible]

فيها ... [illegible]

والصدراء ... [illegible]

[illegible] ... ان يطلب ... في ... [illegible] ... الله ... [illegible]

[illegible] في اليوم الواحد

[illegible]

الاهرام العظيمة وخرائب تدمر العجيبة

[illegible]

ثم بعثهم

[illegible]

وصدق وطنية .

وكان قد [illegible] يوم

الى [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

واحدث الفوضى [illegible] في فرنسا [illegible]

[illegible] مبادئ العدل والاد[illegible]

[illegible]

يخرج منه الا عندما قضي على [illegible]
سنة ١٧٩٤

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سنة ١٧٩٨ [illegible]

[illegible]

وكانت [illegible]

[illegible] الاحزاب وناديا قد عزما القائد

[illegible] الآن فلا اهل ، فلا يطيب لي ان

[illegible] على البحث

من محل آخر لنشاطي . فانت تعرف [illegible]

[illegible] وسألتك ان تكتب لي [illegible]

[illegible]

في [illegible] ذات شأن [illegible]

لذلك لا اشير عليك بالعودة [illegible]

[illegible] لكن ذلك لا يمنعك [illegible]

[illegible] واضطهادهم .

[illegible]

[illegible] من رضاها عنك ؟ وانت

[illegible]

[illegible] الى منصبي .

[illegible]

هو مواطني وزميلي ؟ واذا [illegible] الى تناول الطعام على سفرتي غداً [illegible]

وفي غضون الأزمة اصبح [illegible] اليوم [illegible]

ولما رجع وتبدت من مصر [illegible] ١٧٩٩ [illegible] على الادارة (Directoire) [illegible] [illegible] بهدية لقيمة ، ولكنه [illegible]

[illegible] الداخلية ، فرفضها ايضاً .

ومع ما كان عليه من طمع مستقل ومحس [illegible]

[illegible]

دو بال ، ولم تنقصم علاقته الا [illegible] لبونابرت في سعيه لقلب الحكومة في [illegible] ١٧٩٩ [illegible] كان الباعث عليه [illegible] السلام في [illegible]

[illegible] بونابرت [illegible] وقسم يمين الطاعة والولاء بين يديه [illegible] سماك هذا [illegible] به ؟ لاجل ذلك [illegible] والازدراء [illegible]

[illegible]

[illegible] من ايامه صاحبا مالكا لجميع [illegible]

[illegible]

[illegible] لاني اكره ان اقضي [illegible] قبل [illegible] من معالجة بعض [illegible]

[illegible]

[illegible] ٢٥ نيسان لسنة ١٨٢٠ وله من العمر [illegible]

[illegible]

[illegible]

حبيب [illegible]

دمشق [illegible]

سكان سوريا

[illegible] على [illegible] في [illegible] كان [illegible] [illegible] شعوب [illegible] [illegible] في [illegible] واستولوا [illegible] على [illegible] فكلدان بابل ، الذين كانوا خاضعين لهم [illegible] عليها ، جاء فيها سوريا [illegible] ثم [illegible] فالمكدونيون ، فالر[illegible] .

ولما تقادم [illegible] سوريا [illegible] على [illegible] [illegible] نشبت فيها بعدئذ حروب اهلية [illegible] ثم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ثم فتحها الا[illegible] .

فالحروب والغزوات [illegible] في سوريا [illegible] ولذلك [illegible] الا ننظر الى السوريين نظرتنا الى امة واحدة ؛ بل الى [illegible] ، وهم ذراري الذين اخضعهم العرب بفتح بلادهم ، وذراري العرب الفاتحين ، والاتراك المسيطرين الآن على سوريا .

وان [illegible] سوريا من [illegible] تحت اصناف ثلاثة شعوب [illegible]

[illegible]

[illegible]

هزة الى الاسكندرون

[illegible] في سورية عشلا تاه [illegible]

فان طباع سكانها قد تكيفت بطباع [illegible] الذين بعدما اقاموا فيها منذ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

من اهل الجبال

قد اوافق [illegible]

ما رقال لنا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] غير مستحبة في الشرق

حيث [illegible] بة ليكسبن بدالة .

[illegible] البلاد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في الكلام [illegible]

[illegible]

واطى الناحية من اكل [illegible]

[illegible] عام لاتراطهم في اشكل [illegible]

[illegible]

ان العربية لغة السوريين ؛ ولقد روى [illegible]

الحلبية ما زال سكانها يتكلمون بالسر[illegible]

حقيقة الامر الا من احد اكد له ذلك ، وهي [illegible]

وصيدنايا يتكلمون بلغة فاسدة [illegible]

سوريا كما في سائر البلاد [illegible]

[illegible]

[illegible]

وكاثوليك الذين يفهمونها .

[illegible]

الله كان[1] . والبعض من سكان سوريا [illegible]

اليها في [illegible]

---

(١) [illegible]

[illegible]

[illegible] فخم الكلام [illegible]
الا فيما [illegible]
نطقهم [illegible]
[illegible]
اهل اليمن والساحل الحوراني اكثر [illegible]
[illegible] بذلك [illegible] .

[illegible]

[illegible] لغته ، فيكون رأيه [illegible]

وشعوب سوريا بقي بعضهم [illegible] ويسكن الاتراك في البلد [illegible] واما العرب والروم [illegible]
فيها قرى الروم فهي ولاية دمشق

[illegible]

[illegible] وهي [illegible] شرقي [illegible] البحر الابيض غرباً .

[illegible] طولاً من [illegible] على درب صور ، وعرضاً من البحر الى وادي القاع

[illegible] بلاد [illegible] حتى صور [illegible] هذا الشعب كاد يمسي من الشعوب البائدة من [illegible]

[illegible] النصيرية في الجبال ما بين نهر عكار وانطاكية ، مؤلفين عدة [illegible]

[illegible] يسكن [illegible] ينقلون دوماً خيامهم وقطعانهم [illegible] في [illegible] سهول فلسطين والقاع [illegible]

التركمان

[illegible] بلادهم على [illegible] وانتشروا في [illegible] وآسيا الصغرى

[illegible] التركية ، وهم رحل كالبدو [illegible] الشاسعة لرعي قطعانهم [illegible] يعرفوا الى [illegible]

الصحراء

[illegible] العادات كالوفة [illegible] الى بغداد [illegible] من اهل [illegible] في الماء [illegible]

[illegible] فليس لهم التعرق الذي يؤهلهم له [illegible]

[illegible] وهما الولايتان اللتان [illegible] في فصل الصيف [illegible] ويعودون في الشتاء الى اماكنهم [illegible]

[illegible] واما اخلاقهم فلا [illegible] ويقال عنهم انهم كرماء كالعرب [illegible] في [illegible] العرق

عرب البادية

[illegible] في مصر [illegible] حدث [illegible] في كتابه عن مصر ، لانه كان عندئذ [illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible] [illegible] وطباعهم وعاداتهم ، وهم [illegible] [illegible] يقيمون في أماكن [illegible]

واما البدو الرحل الذين لا [illegible] بأرض [illegible] [illegible] ولا [illegible] [illegible] وجدة [illegible] واما [illegible] على [illegible] حتى مصر [illegible] في [illegible] من موضوع حديثه [illegible] يصدق هذا الاسم « عرب » [illegible] الاكرم اصلا

والاقدم عهداً ، وقد يضيفون الى هذه الاسماء اللفظة « بدو » التي هي سكان البادية

[illegible] اهل البادية [illegible] العرب [illegible] على كتاب [illegible] في [illegible] اليمن [illegible] في [illegible] من [illegible] حتى ان [illegible] اليوم في [illegible] هم اقدم الروايات .

[illegible] التي تحمل [illegible] من [illegible] حتى ان [illegible] الوقت الذي [illegible] في [illegible] الفكر في [illegible] على [illegible] من [illegible] المقام الاول [illegible] الى [illegible] كانت [illegible] واحد ما بقيت منها في بقعة [illegible]

والعامل الآخر [illegible] الحكم [illegible] التي [illegible] على [illegible] وفي جهات ديار بكر

وبوادي الاناضول ، تصلح للفلاحة والزراعة ، بل هي خصبة ايضاً . لكن الدولة التي لا تكترث لمصير رعاياها ، تنكد عيشهم معسرة عليهم سبل الارتزاق ، بارهاقهم ظلماً ، وتركها اياهم يتخبطون في لجج الفوضى والاضطراب فهي اذاً المسؤولة في الاصل عن عدم استقرار تلك القبائل في صقع واحد . ومما لا ريب فيه ان هؤلاء الرحل يؤثرون الاقامة في مكان واحد ان تسنى لهم ان يعيشوا فيه بامان وطمأنينة ، فيصبحون مع مرور الايام ؛ وبالعكس اذا دفع الاستبداد سكان قرية الى اليأس ، يهجرون حقولهم وبيدرهم ، ويتزحزحون من ديارهم ، لا يلتفتون الى الحال ، وطائفين في البوادي ، فيتنقل سكانهم من مكان الى آخر ، ويسهل عليهم احتراف ما يكدر صفو عيشهم وكثيراً ما يصبح بعضهم لصوصاً وقطاع طرق .

وطبيعة الصحراء هي التي تحمل البدو على ان يكونوا رحلاً ، ويمكن تعرف ما هي تلك الصحارى ، فلنا ان نتمثل سهولاً فسيحة الاتساع ، لا منازل فيها ولا ماء ولا جبال ، تظلها دوماً سماء حارة الهواء صافية الاديم . يضيع البصر في افقها المتساوي كالبحر الذي لا نهاية له ؛ او علينا ان نتمثل اماكن تعلو ارضها وتهبط على التوالي كالامواج ، او تحمل على سطحها الحصى والصخور ، وهي عارية على الدوام ، ليس عليها سوى نباتات متفرقة ، او شجيرات شوكية متشعثة ، لا يطرق حرمتها الا بعض الجرذ والجرذان او الارانب والغزلان .

تلك هي على وجه التقريب البلاد الواقعة بين حلب وبحر العرب ، وبين مصر وخليج العجم في بقعة طولها نحو ستمئة فرسخ ، وعرضها نحو ثلاثة . فهي هذه الشقة الفسيحة ليست الترية وحدها ، بل هي حصة على الحدود السورية وشاطئ الفرات ، وجزيرة بيضاء في الداخل من الجانب الجنوبي ، وصحراوية

في برية التيه والحجاز ، ورملية في الجانب الشرقي من اليمن .

ففي الاماكن الماحلة القليلة النبت ، تتضاءل القبائل وتتباعد مضاربها ؛ وحيثما تكون الارض جيدة التربة ، تزداد فيها القبائل وتتدانى مضاربها .

ومحل الصحراء ناجم على الاخص من قلة الينابيع فيها ؛ فمطر الشتاء لا يوجد العيون فيها ، ولا يحدث جداول دائمة . لذلك سكان تلك الانحاء يفتقرون الى الماء في شهر الصيف . فجفاف واحد يذهب بغلة سنة كاملة ، فيقتل الاهل الجوع والعطش . وربما حفر الاهلون الآبار في الامر العسير ؛ اذ ان الماء ينبجس على عمق بعيد ، غير انه [illegible] بعد جفاف الماء ، وانتشار الجوع والعطش ، هجر السكان اراضيهم وارغموا انفسهم وفصلوهم عن ديارهم .

فبلاد هذا هو شأنها ، حالتها غير مستقرة ، وحكومتها غير حسنة ، يفضل اهلها معيشة الرحل على معيشة الفلاحين الثابتي المسكن .

وفي الارض الصخرية والرملية ينبت الحشيش على اثر سقوط المطر ، ويحيا العوسج والشيح والخرنوب ، ويحدث في الاماكن المنخفضة مستنقعات ينمو فيها العشب والقصب ؛ وتكتسي حينئذ السهول بحلة خضراء ، فيكون الفصل فصل خير وخصب للقطعان واصحاب القطعان . غير ان ذلك كله يزول ويضمحل بمجيء القيظ ؛ فلا يبقى حينئذ على تلك الارض البائرة القفراء سوى سوق قاسية كالحطب لا تقوى الماشية على رعيها ؛ فتصبح البادية غير صالحة للسكن ، ويضطر اهلها الى الرحيل عنها .

على ان الطبيعة تداركت الامر ، فاوجدت في البادية حيواناً خشن الطباع ، قنوعاً ، زاهداً في الاكل والشرب . وذلك الحيوان هو الجمل ، وهو الوحيد الذي يناسب هواء تلك الاصقاع ومراعيها . فالخالق عزّ وجل قد جعل بحكمته الازلية طباع هذا الحيوان ملائمة لصفات البادية واحوالها فوضعه في اراضٍ جدبة ،

وكونه يشكل بساعده على تحمّل التعب، وتحمل عذاب الجوع والعطش. فلم يعطه شكل البقر، ولا طبيعة الخيل، ولا هيئة الفيلة، بل جعل له رأساً صغيراً في آخر عنق طويلة، وفكاً قوياً يمكنه من سحق أصلب العلف. ولئلا يأكل كثيراً ضيّق له معدته، وصيّره مجتراً وجرّد سيقانه وأعضاءه من العضلات التي لا تفيده في حراكه، وكما قدمه بكتلة من اللحم، فقدمه تأتي على الوحل ولا تقوى على تسلق المرتفعات، فلا يستطيع السير إلا على أرض جافة مستوية. وقد خلقه سبحانه وتعالى ليكون عبداً صبوراً خدوماً. فلذلك فهو بلا أسلحة يأتي للدفاع بها عن نفسه، ولا جعل له قرن الثور، ولا حافر الفرس، ولا ناب الفيل، ولا خفة الأيل. فلا يستطيع الجمل صداً إذا هجم عليه الأسد أو النمر أو الذئب. ولئلا تفنى سلالته وأولاده في الصحاري الفسيحة الأرجاء حيث لا نبات، ولا شجر، ولا خضرة تجلب إليها الطرائد فلا تدنو منها الوحوش الضارية المفترسة.

ولما دجن الجمل صار الواسطة التي جعلت الجدب أرضاً صالحة للسكن، فهو وأثناء يرحل صاحبها يحمل ما يحتاج إليه، وبحليبه يغذي البدوي وعياله، وكثيراً ما يأكلون لحمها أيضاً، ويصنعون النعال والسروج من جلدها، والملابس والأخبية من وبرها. وإذا جدبت الأرض يعطف على العشب الذي يعرفه البدوي، بادرت الناقة إلى تغذيتها بحليبها، ولم يحملا صاحبها بدل ذلك كله سوى الذي اليبس من العوسج والشيح وبعض برى محترقة.

فتلك هي أهمية الجمل في البوادي والصحاري، فلو افتقدوه منها لغادرها جميع سكانها، وهم الذين يعتمدون عليه وحده دون سواه، وتلك إحدى هي حالة البدو التي خصهم الله بها ليجعل منهم شعباً فريداً بحريته وعاداته. فهذه الصفات المميزة جعلت حتى جيرانهم السوريين ينظرون إليهم بعجب وهزواً. ابدوهم على الأخص قبائل عنزة وشمّر وطي. ولما جاء بعضهم

عكا في ايام الشيخ ظاهر العمر ، كان لمنظرهم تأثير غريب مما كانوا عليه من نحافة خصر ، ونحول جسم ، واسمرار بشرة ؛ فسيقانهم الدرية الدقيقة لم يكن فيها سوى عضلات . وسواعدهم كانت تبدو كأنها لاصقة بصدورهم . وأما شعرهم فجعد كشعر الزنوج . وهم ايضاً قد دهشوا مما رأوا فكانوا يسألون بذهول كيف تستطيع البيوت والقباب العالية منتصبة في الهواء ؟ وكيف يجرؤ الناس على الدنو منها والإقامة تحتها ، وهم يرضون بالسكن في مكان واحد ، ولا ينتقلون الى غيره . والأمر الذي نال منهم منتهى الدهشة والعجب ، فهو ان مظاهره فاق كل ما امكنهم تصوره . وقد حدثوهم عن الجوامع والمساجد والوضوء والصلاة ؛ فكانوا يسألون عن منابع كل ذلك ، ومن هم موسى وعيسى ومحمد ، ولماذا الشعب الذي لا يؤلف عدده قد لا يجمع لعدة وعاء .

واما العرب المقيمون بالاودية الواقعة على الحدود فانهم اكثر خبرة من بدو الصحراء ، وبعض قبائلهم المقيمة تقيم في سهل البقاع ووادي الاردن وبلاد فلسطين ، لا يكاد فرق بينهم وبين الفلاحين ؛ غير ان بدو الصحراء ينظرون اليهم بازدراء ويعدونهم عرباً غير اقحاح وعبيداً للاتراك .

والبدو على العموم قصار القامة ، نحاف الجسم ، سمر البشرة وهذه الصفات اكثر ظهوراً في بدو الصحراء منها في العرب المقيمين بالاودية الواقعة على الحدود ، وأقوى في هؤلاء منها في جيرانهم الفلاحين . وقد نجد مثل هذا الفرق حتى في حي واحد ، فالمشايخ او الأغنياء ، وخدمهم هم في الغالب اكثر بدانة واطول قامة من غيرهم . ويمكن عزو ذلك الى غذائهم ، فغذاء البدوي للرجل الواحد من عامة الشعب لا يتجاوز وزنه على مئة وثلاثة وثمانين غراماً ، وهو امر يصعب تصديقه . وهذا الحد في الاكل يبلغ اقصاه في عرب نجد والحجاز : ست أو سبع تمرات منقوعة في السمن ، ومقدار ضئيل من الحليب

او اللبن يقوم بغذاء المرء في اليوم الواحد . واذا تيسر لاحد ان يضيف الى ذلك شيئاً من الطحين الخشن والارز ، حسب نفسه سعيداً . واللحم لا يأكلونه الا في المواسم ، ولا ينحرون الذبائح إلا في الاعراس والمآتم . وزهد كهذا من شأنه ان يحمل البدوي العادي يقدم على أكل احقر الطعام ، حتى انه لا يستنكف من أكل الجراد والجرذان والحرادين والأفاعي المشوية ولعل هذا الزهد هو الذي يسوق البدوي الى التعدي على الزرع وسلب السابلة . وزهدهم في الأكل ، بل فقرهم ، يجعلهم نحاف الجسم صغار القامة ، ضعاف البنية . واما دمهم فلا يخلو من الصلابة ، ويفتقر الى الحر الشديد لكي يصل سائلاً . ولكنه طاهر نقي . لذلك الامراض عندهم اقل وقوعاً منها في البلاد العامرة .

وظني ليس زهد البدو في الاكل والشرب مصيبة ، وليس هواء بلادهم هو وحده الذي يضطرهم اليه . ولا ريب ان طريقة تغذيتهم تحول دون عدد عديدهم فتمكنهم من تحمل هذا الزهد والتقتير الذي سببه الاول والأكبر عندهم كما عند غيرهم ، هو الضرورة التي تفرضها عليهم طبيعة أرضهم ، وربما حالتهم الاجتماعية كما سيأتي شرحه .

قد مرّ بنا ان البدو يؤلفون عدة قبائل ، تتخذ كل واحدة منها أرضاً فسيحة تعدها ملكاً لها ، لكي تستطيع ان تجد لمواشيها المراعي التي لا غنى عنها على مدار السنة . وكل قبيلة تنصب خيماً او عدة خيمات متفرقة في تلك الارض ؛ واذا ما رأت انعامها ترعى على بقعة من العشب ، ساقتها الى بقعة اخرى . وقد يكون هنالك بعض البقع التي ترى تارة مأهولة وتارة مهجورة . غير انه لا غنى للقبيلة عن تلك الارض يسكنونها كل ايام السنة . واذا قبيلة اخرى او بعض الأفراد دخلوا ارضاً ليست ارضهم عوملوا

معاملة اللصوص والاعداء ، فتنشب حينئذ الحرب فيما بينهم ؛ وما لم تكن قيود قرابة او عقود محالفة تربط بين قبيلة واخرى ، وبذلك تصبح الحرب شاملة ؛ اما ما يحدث عندئذ : فعندما يعلم رجال القبيلة بوقوع التعدي على ارضهم يتركون خيامهم ، ويجدون في اثر المعتدي ، فيتلاقى الفريقان ، ويتطاردان ؛ وقد يتصادمان ؛ والفرسان يتهاجمون ، ويتدافعون ، وهم يحاربون [illegible] المعركة ورماحهم مسكوحة ؛ وقد يتواثبون بها مع [illegible] من طول ؛ [illegible] عندئذ احدهم ، والصدمة الاولى هي الفاصلة ، و[illegible] هزيمة من وجه الغالب ، فيولي [illegible] عامة [illegible] القبيلة المغلوبة تبادر الى قلع خيامها ، وتعمد [illegible] ليلا [illegible] الى [illegible] والظافر الذي يكون قد [illegible] مراده ، يحتوي على قطعان خصمه ، ويستاقها الى جهته ، ويرجع عندئذ المهزومون الى ارضهم . واذا وقع قتل في المعركة من احد [illegible] من الفريقين .

ان [illegible] الامر في تلك القبائل [illegible] عند [illegible] العصور شريعة عامة توجب سفك دم القاتل ثأرا لدم القتيل [illegible] الاخذ بالثار يعود الى اقرب الناس من القتيل . فان تهاون في ذلك لحق به العار والشنار . لاجل ذلك يعمل بتعجيل [illegible] للانتقام [illegible] من جراء عوامل غريبة [illegible] فذلك لا يشفي غليله ؛ فيأخذ عندئذ ثاره من اقرب الناس الى الخصم . وتمتد الاحقاد يتوارثها البدو خلفا عن سلف ، ولا تخمد الا بانقراض احد الفريقين ، او بانتصاره على قاتل [illegible] ، او دفع الدية من المال والمواشي . وفي ما خلا ذلك لا يبرم صلح ولا تعقد هدنة ، ولا تتم مصاهرة بينها او وبين القبيلتين المنتميين اليها ، فيقول بعضهم لبعض [illegible] كل [illegible] « [illegible] دم » وهذه العبارة هي بمثابة حاجز لا يمكن خرقه . [illegible] ان الحوادث التي من هذا القبيل تزداد مع الايام ، لذلك يظل النزاع قائما بين معظم القبائل

التي تمسي في الحالة حرب دائمة ، وهو امر يجعل ابناءها رجال حرب متأهبين لخوض المعامع في كل ساعة .

وطريقة نصب خيامهم تجعل لمخيمهم شكل حلقة غير منتظمة الاستدارة مؤلفة من جملة خيام بأبعاد متفاوتة ، فينصبونها على ثلاثة او خمسة أعمدة علوها خمس او ست اقدام . والمخيم كهذا يرى من بعيد كأنه بقع سوداء ، غير ان عين البدوي الحادة النظر لا يفوتها شيء .

وكل خيمة تقسم بشطرها حجاب شطرين ، يخصص احدهما بالنساء . والساحة التي في وسط الحلقة المذكورة يحظرون فيها مواشيهم ليلاً ، وليس هنالك متاريس حولها تحميها . وكلابهم هم العسس والحراس ويبقون خيلهم مسرجة معدة للركوب لدى اول اشارة تشعر بدنو خطر . وعادتهم لا ترتاب عندهم ولا تنام ، فيبدو من العدو ساعة مهاجمتهم التي لا تقوى على وقاية الذين فيها . لاجل ذلك يحدث كل يوم نهب وخطف وقتل . فالسلب والنهب هما شغل العرب الشاغل .

والقبائل التي تقيم في جوار المدن والقرى حالتها احسن ، عموماً من غيرها ؟ فالحكام الذين يعدون انفسهم سادة البلاد ، يعتقدون ان العرب رعاة متمردون او اعداء مقلقون ، فيضايقونهم ويضطهدونهم ، او يخاصمونهم بحجة ارض احتكروها بيد ، او يكرهونهم على دفع اموال لا يحق لهم مطالبتهم بها . وان نشب نزاع ما بين شيخ وآخر ، ايدوا تارة هذا وتارة ذاك ، وهكذا يتوصلون الى القضاء على الاثنين معاً . وكثيراً ما يسممون او يغتالون الزعماء ذوي الشجاعة والدراية .

والعرب يعدون الاتراك غزاة ومغتصبين ، ويسعون جهدهم في إلحاق الاذى بهم . فاذا دارت رحى القتال بينهم ، وقعت التبعة على الابرياء ، واصابت

الفلاحين الاضرار التي يحدثها القتال ، فيتلف الزرع ، وتجتاف المواشي ، وتقطع الطرق ، ويقف دولاب التجارة .

تلك هي حالة العرب خارج البادية ، فهي معرضة لشتى الصروف .

وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة تسمو وتقوى ، بينما قبيلة اخرى قوية تخمد في الانحطاط او التلاشي ، لا بموت افرادها بل باندماجهم في قبيلة اخرى .

والقبيلة قد تتألف من اسرة واحدة او من اسر عديدة لبعض افرادها لقب « شيخ » او « امير » ، فهم يعدون من هذا القبيل اعيان وربما القبيلة ، او اشراف اوربا احدثه . وواحد من هؤلاء الشيوخ او الامراء مقامه الاول ، هو المتولي عليهم . وكلما ازداد عدد افراده واسرته وحلفائه ، قويت شوكته ، وعلا شأنه . وله طائفة من الخدم يلازمونه ويمشون في معيته . وقد يلتحق بحوزه اسر ضعيفة لا قبل لها ان تعيش مستقلة بنفسها ، نظراً الى ضعفها ، فهي تفتقر الى حماة وحلفاء . وهؤلاء هو والذي على شاكلته يعرفون باسم رؤساء ، او يلقبون باسم الاسرة السائدة المنتمين اليها . فيقال فيهم فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية ، وهم انهم ليسوا من ارومة واحدة ، الى هذا الفصل ينتمي اولاد طي .

ان الحكم عند اهل البادية هو في يد واحد حربي وشعبي ومطلق ، من غير ان يكون في الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، فهو شعبي لان للشعب الرأي الاول في كل امر من الامور ، ولا يجري شيء الا برضى وموافقة الجماعة . وهو حربي نسبة الى الاعيان ، كما ان امر المشايخ تحكم بمقررات لا يستطيع احرازها الا من كان صاحب جاه ومال . ثم هو استبدادي لان الشيخ المتقدم على الجميع له سلطة واسعة ، بل مطلقة ، ففي وسعه ان يمعن في السلطة ، ويتمادى في الحكم مستبداً في رعيته . بيد ان هناك ما يردعه عن الاسترسال

في العسف والاستبداد . فان ارتكب عملا مائزاً ثقيلاً ، كقتل احد ، صعب عليه التملص من العقاب ؛ فتسمة حرية لا يحقها علو مقامه ، بل لا بد ان يثار منه . واذا توانى في تأدية الدية فتل لا محالة . وقد ليس بالامر العسير نظراً الى نوع المعيشة التي يعيشها المشايخ في وسط اقوامهم . وان اغاظ رعاياه واساء معاملتهم هجروه وانضموا الى قبيلة اخرى . واقاربه انفسهم يتحينون عند تنزّ الفرصة لاسقاطه واستبداله بغيره . وليس في وسعه مقاومتهم ، اذ ما من احد من خارج القبيلة يأتيه لشد ازره . وهو ايضاً يعجز عن التفريق بينهم او عن انشائه فيهم حزباً موالياً له ، بشراء فريق منهم بالهدايا والعطايا ، وهو لا يملك من حطام الدنيا الا شيئاً يسيراً مثقلاً بالنفقات .

وعلى شيخ كل قبيلة ان يقوم بواجب الضيافة نحو زوار القبيلة وقاصديها ؛ فهو الذي يستقبلهم جميعاً . والى جانب خيمته فسطاط واسع ينزل فيه كل غريب او كل عابر طريق . وفيه يعقد المشايخ والاعيان جلساتهم واجتماعاتهم لحل الامور والنهوض في مختلف الشؤون ، كفض منازعاتهم ، وابرام صلح ، واعلان حرب ، والفصل بين قضايا الافراد ، ومعالجة ما يحدث بين قبيلة واخرى من المنازعات ، وما الى ذلك من الامور . فعلى شيخ القبيلة ان يقدم لهؤلاء الوفود القهوة والماء والارز واحياناً الجدي والحمل المشوي ، اي انه يضطر في اغلب اوقاته دوماً ولاجل المحافظة على سلطته ونفوذه ، يتحتم عليه ان يكون كريماً ، وفي نظر البدوي الخانع فضيلة الكرم رأس الفضائل . وقد اثبت الاختبار ان الشيخ الخسيس قصير العطر . وللقيام بتلك النفقات لا يعتمد الشيخ الا على قطعانه ، واحياناً على بعض الحقول المزروعة ، او على ما يصيبه في الغزوات ، او على الاتاوى التي يتقاضاها من عابري الطريق . ولعمري ان دخلاً كهذا لضئيل جداً .

ان الشيخ الذي قصد اليه فوبي ، ونزل ضيفاً عليه ، كان يعد من حيث الثروة والغنى في طليعة مشايخ تلك الانحاء. مع ان نفقاته لا تتجاوز في مجموعها ما ينفقه عادة فلاح ميسور الحال، فما يملكه مقصور على بعض الاخبية، والسجاد، والسلاح ، وخيل ، والابل ، وقيمة كل ذلك لا تزيد على الخمسين الف قرش . فلا محل لذلك كلمتا «مولى» و«امير» ايضاً من معنى مدلول لدى ما يفهمه الاوربيون . وقد نكون على صواب فيما اذا شبهنا الشيخ والامير باصحاب المزارع الواقعة في الانحاء الجبلية في فرنسا . والفريقان متماثلان من حيث الاخلاق وبساطة الذوق والحياة المنزلية . فالشيخ الذي تحت يده خمسة افراس لا يستنكف من اسراج فرسه والجامها بيده ، ووضع الشعير او التبن في مزودها ومخلاتها . وفي خيمته نرى امرأته التي تخض اللبن ، وتصفيه ، وتغلي القهوة ، وتطحن ، وتطبخ ، وبناته هن اللائي يغسلن الثياب ، ويردن الماء والجرة على قمة رؤوسهن كما كانت بنات عظماء الناس في عهد موسى وايام هوميروس .

وزهد البدو في امورهم يلائم البساطة التي يعيشونها. فان ما تملكه اسرة بعض الابل ، وغنم ، او القمح ، وفرس ومهرها ، وخيمة ، ورمح ، وسيف ، وبندقية ، وغليون ، ومطحنة يدوية ، وقدر ، ودلو من جلد ، ومحمصة ، وحصير ، وبعض الثياب ، وعباءة صوف سوداء ، ومن الحلي : اساور ، وخلاخل من فضة او زجاج . فالاسرة التي لا يعوزها شيء مما جئنا على ذكره ، تعد غنية . ومما يشوق البدوي الى اقتنائه ، ويرغب فيه كثيراً ، الفرس . وحقيقة ان هذا الحيوان هو عندهم خير واسطة للارتزاق ، فعليه يذهب البدوي الى الغزو ، ومقاتلة القبائل المعادية . والعرب يفضلونها على الحصان ، لانها لا تصهل ابداً ، وهي سلسة الانقياد ، وتدر الحليب الذي يغذي الجوعان ، ويروي العطشان .

ويسيرة هي حوائج البدو ، لانهم لا يكترثون الا بما لا غنى لهم عنه . فلذلك

نرى ان صناعتهم مقصورة على صنع الخيام والحصر ، واستخراج الزبدة من
الحليب . وتقوم تجارتهم بتبادل الابل والجداء ، والذكور من الخيل ، والالبان ،
والاسلحة ، والثياب ، والارز ، والحنطة ، والنقود التي يطمرونها . واما العلوم
والكتب فلا اثر لها عندهم ؛ ويندر ان تجد بينهم من له المام بالقراءة والكتابة :
فلا يعرفون سوى رواية الحكايات التي تشبه « الف ليلة وليلة » وهم مولعون
بسماعها ، وهي تشغل اكثر قسم من اوقات فراغهم . فعند المساء يقعدون على
الارض خارج الخيام او داخلها ، بحسب ما يكون الجو حاراً او بارداً . ففي
فصل الشتاء ، يلتفون حول نار من روث مجفف ، يصطلون بها . ويستحثون
اصحابهم بالتكبير من غير ان يبرحوا مكانهم ؛ ثم يبدأ احدهم حديثه ويقول :
في ذلك الزمن وفي سالف العصر والاوان كان . . . ويتابع كلامه راوياً ما
حدث لاعرابي شاب واعرابية صبية ويقص كيف وقع نظر الشاب بادئ ذي
بدء على الفتاة فشغف بها . ويعدد من ثم واحدة واحدة جميع صفاتها الحسنة ؛
فيطري عينيها السوداوين النجلاوين اللتين تشبهان عيون الغزلان ، ولحظها الذي
يذهب سهمه الى حبة القلوب ؛ وحاجبيها المقوسين كقوسين من الابنوس الاسود ؛
وقامتها الطويلة الممشوقة كالرمح ، ومشيتها الخفيفة التي تمثل سير القطاة ؛
ووجنتيها الكالوردتين ؛ وشفتيها الرقيقتين وضفائرها المرصعة بالحلى الذهبية اللون ،
وثدييها المشدودين كأنهما رمانتان ؛ وكلامها الاحلى من العسل . ثم يصف ما
يكابده الشاب من الالم في سبيلها ، وكيف يدنو من شدة هيامه بها الى ان
يصبح جسمه كالخيال . وبعد ما يذكر الراوي محاولات الشاب لنيل حبيبته ، وما
يعترضه دونها من العوائق في سبيله ، ثم اتفاق الاعداء على اختطافهم له وما ؛
يختم حكايته بانتهائهما متحدين سعيدين الى حياة الوادي . فيسر الحاضرون
بهذا الختام المفرح ، مثنين جميعاً على بلاغة الراوي .

وللبدو ايضاً الاغاني الغرامية التي تعبر عن الشعور بشكل اصح واصدق من اغاني سكان المدن ؛ وذلك لان اخلاق البدو طاهرة فيعرفون الحب الصحيح واما سكان المدن فانهم منغمسون في الدعارة فلا يعرفون الا في الاستمتاع والتلذذ .

ان البدو ولا سيما الذين يقيمون منهم في قلب الصحراء، لهم حالة تشبه من عدة نواحٍ ما هم عليه هنود اميركا ؛ غير انهم ليسوا متوحشين مثلهم ، ولا هم يأكلون اللحم البشري ، بل نجدهم اكثر لطفاً ، واحسن عشرة واسلس اخلاقاً. فلمَ اذن هذا الفرق بين الشعبين .

ان البحيرات والغابات وكثرة المراعي ووفرة الكلأ في البلاد الاميركية تجعل المعيشة التي توافق الرعاة سهلة ميسورة فيها . غير اننا نجد ان نفس هذه الغابات قد ضمت الحيوانات اللاجئة اليها هرباً من سيطرة ابن آدم عليها الذي اضطر لاجل ذلك ان يصبح صياداً. والعادات التي الفها قست طباعه ، ومشقات الصيد خشنت جسمه ، والجوع الشديد الذي يعقبه تخمة اللحم المصطاد الوافر ، صيّره شرهاً بعد ان كان عفيفاً ، ونشاطاته العديدة اقتضت مزاولته القتل وزهق الارواح ؛ ولما عضه الجوع سنة في اكل اللحم ، وربما لم يجد امامه سوى لحم قريبه فانه اقدم على اكله ؛ فتغلب الاقدام عليه ، فامسى ذلك عادة عنده ؛ فصار سفاكاً فتاكاً غليظ الكبد .

واما البدوي فلبثت تلك حالته . اذ وجدته القدرة العضاء في سهول واسعة لا صيد فيها ، ولا شجر ، ولا قانص ، لم يعد في وسعه ان يكون صياداً ؛ فاوجد الحظ الميلَ فيه الى اقتناء الانعام ورعيها . وبما انه لم يجد امامه سوى الشيء اليسير من القوت ، لذلك اعتاد الزهد في الاكل قانعاً على مواشيه وبعض الشيء من التمر . فهو اذن لم يشتهِ اللحم ، ولم يعرق

الدم ، ويداه لم تألفا القتل ، واذناه لم تعتادا سماع انين المتوجع المتألم ، فظل يخفق في حشاشته قلب رقيق شفيق . وهذا الراعي الفقير المتحضر ما ان عرف كيف يستخدم الفرس ، حتى غير اسلوب حياته ؛ لقدرته على قطع المسافات الشاسعة بسهولة وسرعة رحلته . كان حريصاً يعامل القحط ، فصار محارباً بدافع الفقر والجشع فهو اذن يحب الغزو . وان لقي مقاومة ، اعتقد ان ما يصيبه لا يبرر المخاطرة بحياته . ولا يمكن استثارة غيظه الا بسفك دمه ؛ فيصبح عندئذ شديد البأس ، ميالاً الى اخذ الثأر على قدر ما كان حريصاً على اجتناب الخطر .

وقد عزوا اليه ميله الى الغزو ؛ فنحن نجيب ، ليس رغبة في تبريره ، بل حباً بالحقيقة ، انه لا يغزو الا الغريب الذي يعده عدوا ، ويمس والحالة هذه ، ما يرتكز على السلب المألوفة المتبعة عند معظم الامم .

واما حياته الاجتماعية فيسودها الثقة والمروءة والكرم الذي يشرف اعرق الشعوب مدنية . وهل من شيء اشرف وافضل من حقوق الضيافة التي يتمتع بها عندهم كل غريب وعابر سبيل . والعدو نفسه اذا ما مس بوابة او طنب خيمة الاعرابي صارت حياته في امن ، فلا يجرؤ احد على مسها بأذى . ومن العيب ومنتهى الدناءة ، ومن العار الذي ليس بعده عار ، ان يثأر الاعرابي من خصم نزل ضيفاً عليه . واذا رضي بأكل الخبز والملح مع دخيل ، فلا شيء في الدنيا يستطيع حمله على خيانته . والسلطان نفسه مع كل ما له من القدرة والسطوة ، لا يستطيع ان يخرج من القبيلة ضيفاً لجأ اليها واستجار بها ما لم تعن تلك القبيلة عن سكرة بيها [1] .

(١) — يحمل عرب بعض العربية سيوفهم : انهم المستجير ، اي طالب حمايتهم والملتجئ ، الذي يحمل اطناب خيمته او عمود اطناب خيامهم . فدلت على انه انضوى الى قبيلتهم فصار واحداً منهم .

فهذا الاعرابي ذو البحث والطمع خارج قبيلته ، ما ان يضع قدمه في خيمته ، حتى يبدو كريماً جواداً ؛ ومهما يكن ما يملكه يسيراً فهو مستعد لاقتسامه مع غيره . واذا جلس للاكل ، دعا جيرانه عند مدخل خيمته ليدعو عابري الطريق الى الاشتراك معه . وهو صادق مخلص في كرمه ، لانه لا يعده فضيلة بل فرضاً واجباً ، لاجل ذلك يعتقد ان له على غيره ما لغيره عليه .

ولما كانت عقلياتهم هذه قد اوجدتها مقتضيات الزمان والاحوال ، فلم يروا من اجل ذلك غير حديث بالاعجاب والثناء ؛ فهم اذن سعداء من جراء حالة ادت اليها تلك المقتضيات ، وهي التي عدها اعقل المشرعين طريقة الحكم المثلى ، واعني بها المساواة في قسمة المال ، والعدل في توزيع الرتب . ومع انهم حرموا الكثير من الخيرات التي جادت بها الطبيعة على البلاد الاخرى ، لاجل ذلك قلت عندهم العوامل التي تلقي المرء في هوة الفساد .

وقد يتعذر على بعضهم تأليف حزب يداخل في اتفاقاتهم واقرار امورهم ؛ فكل واحد في وسعه ان يكفي نفسه بنفسها ؛ لذلك تراهم يستطيعون اكثر من غيرهم الاحتفاظ بطابعهم الخاص وصون استقلالهم من كل تعد . وهكذا يصبح فقر الفرد عندهم مصدر ثروة العامة وكفايتها .

وحريتهم هذه تشمل حتى الامور الدينية . اجل ، ان العرب المقيمين على مقربة من البلاد المتحضرة يحتفظون ، من باب السياسة ، بمظاهر يدل على تمسكهم بالدين . غير ان هذه المظاهر غير متينة ، وتصدهم متراخ ، مما يجعلهم في نظر غيرهم ، كأنهم لا دين لهم ، ولا شريعة عندهم ؛ حتى انهم هم انفسهم يقولون : ان الدين لم يجعل لنا . ويضيفون : وكيف نتوضأ للوضوء ، ولا ماء عندنا ، وكيف نقوم بتأدية الزكاة ، ولا مال لدينا ؛ ولماذا نصوم

رمضان، ونحن نصوم السنة كلها، ونحج بيت الله الحرام، ما دام الله موجوداً في كل مكان.

وكل منهم يفكر كما يشاء، ويعمل كما يشاء. ويسود عندهم روح التسامح التام، وهو الروح الذي يبدو جلياً من حديث وقع لفوزي ذات يوم مع الشيخ احمد بن بجر زعيم القبيلة الوحيد الذي قال له: لماذا تريد العودة الى فرنسا ما دمت تستحسن عوائدنا، وتعرف كيف تحمل الرمح، وتركب الخيل؟ فامكث عندنا، نعطك ماء وكلأ، ونزوجك بدوية صبية حسناء، ونهبك فرساً، وندعك في ديارنا على الرحب والسعة. فقال فوزي: ألا تعرف اني ولدت ونشأت في قوم دينهم ليس كدينكم؟ فماذا يكون رأي البدو في كافر او جاحد. فقال الشيخ: ألا ترى انت نفسك ان البدو يعيشون بمعزل من الدين وكل منهم يتبع ما يمليه عليه ضميره ووجدانه. ان الاعمال للناس والدين لله.

وقد قال لفوزي شيخ آخر ذات يوم عن غير قصد، عبارة اعتاد قولها وهي: «صل على النبي» وبدلاً من ان يجيبه فوزي الجواب المعتاد قال: ها انا ذا صاح ابث. فلحظ الشيخ خطأه، وتبسم. وكان حاضراً ساعتئذ احد سكان القدس، فتدخل وقال للشيخ: كيف توجه الى كافر كلاماً لا يجوز قوله الا لمؤمن. قال الشيخ: هي زلة لسان، ولكن النية سليمة. والله انت الذي تعرف عادات العرب واخلاقهم كيف تجيز لنفسك اهانة غريب كلنا معه خبزاً وملحاً. ثم التفت الى فوزي وقال: هل الشعوب في بلاد الفرنج المتمدنون هم دينا غير دينا اكثر من نحن المسلمين. اجابه: هم اضعاف اضعاف المسلمين فيهم البدو. فقال الشيخ: الله غفور رحيم، فهو يدين كل انسان بحسب اعماله.

ان تلك المبادئ التي يحملها العرب، ويعملون بها، قلما تتبعها الشعوب المتحضرة. وقد نجدها عند التركمان والاكراد؛ فهي اذاً من خصائص البيئة التي يعيشها الرعاة.

الاكراد

ان قبائل الاكراد منتشرة متكاثرة في آسيا الصغرى واما موطنهم في الاصل فهو الجبال التي تنحدر منها فروع دجلة العديدة. فتلك الجبال تحدق بالشطر الاعلى لنهر الزاب الكبير، ثم تمتد جنوباً حتى تخوم العراق الفارسي. وفي التقاويم الحديثة تدعى هذه البلاد كردستان؛ وهي تعطي بوفرة الحبوب والكتان والسمسم والارز والعدس والجوز؛ ويجنى منها ضرب من البلوط اللذيذ الطعم الذي يصنعون منه خبزاً. وقد جاء ذكرها في اقدم التواريخ، ويروون منها شتى الاساطير. وقد تحدث عنها اكزنفون والمؤرخ الارمني موسى الخوريني.

والاكراد عصرنا قد حافظوا على الكثير من عادات وطباع اجدادهم. ونيبور الذي جال في بلادهم في السنة ١٧٦٦ روى انهم يتبعون في حالهم ضرباً من الحكم الاقطاعي. وعلاوة على ان الفتن والمنازعات التي نشبت بينهم اخرج كثيرون من اسرهم وعشائرهم وتفرقوا في نواحي ديار بكر وارضروم واريفان وسيواس وحلب ودمشق. ويقدرون عدد خيامهم بمئة واربعين الفاً، فيها مئة واربعون الف محترف سيف. وهم كالتركمان رعاة رحل؛ ولكنهم يختلفون عن التركمان ببعض عاداتهم وطباعهم. انهم يميلون الى الغزو؛ يدين بجاههم سكان حلب وانطاكية حيث يسيطرون

الى الحدث الواقعة شرقي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible] عربية [illegible] في [illegible]

وضعه موريس عرزولي

النصيرية

[illegible]

[illegible] اوردها السمعاني نقلاً عن المصادر [illegible]

في السنة ١٢٠٢ للروم (٨٩١ م) [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فاخذت بزوجة [illegible] السجن من [illegible]

[illegible] السجن ، اعادتها الى حيث كانت

[illegible] في الغد عندما جاء السجان [illegible]

[illegible]

ولئلا يلام بادر في الحال الى اقامة [illegible]

[illegible]

[illegible]

وبسط علي وهو ايضاً حزين ، وقد قال له : انت الذي تقرأ ، انت الرجل الذي ينطق بحق ، انت الجمل الذي يهرب المؤمنين من الغضب ، انت الدابة التي تحمل اوزارهم ، انت نور [illegible] الشمس) ويوجبون ذكره امس . وعظ الناس ان اركعوا في اذان صلاتكم ربع ركعات ، اي ركعتين قبل شروق الشمس ، وركعتين قبل غروبها [illegible] شطر بيت المقدس ، وصوموا ثلاثة : ان تغتسلوا من الطعام ، ولا تغتسلوا بعد الأكل لا الأيام الثاني والثالث ، ولا [illegible] في السبت ، ولا [illegible] قلوبكم ، ولا تشربوا من [illegible] ولا تأكلوا لحم الحيوانات الضاربة . [illegible] ونشر تعاليمه ، [illegible] [illegible] وبعد [illegible] من الاسرار ولا يعرف احد [illegible] ؟

والصليبيون في حروبهم [illegible] من [illegible] العادي طلقوا المعرية ، [illegible] كبير وغيبوم الصوري الذي ذكر حدث خلط بينهم وبين الحشاشين ولعل هذا بعض الشبه بين الفريقين . ويقال ان لفظة حشاشين كانت شائعة عند الفرنج والعرب ، من غير ان يعرف ما هو اصلها ، فالصليبيون الذين حاربوا في سوريا [illegible] كانت تلك الشيعة موضوع احاديث الناس ، حملوا يرددونها هم ايضاً بدورهم Assassins (1) . وقد ترجموا كلمتي « شيخ الجبل » حرفياً « [illegible] اختيار الجبل » بدلاً من « شيخ الجبل » (2) .

والسعيدية شيع وقبائل ، منها الشمسية والقمرية والكلبية والنصيرية [illegible] لا تزيد [illegible] الى الاصقاع القريبة من انطاكية ، والذين دانوا

(1) من حشه حشاً اي قتله واستأصله .

(2) Le vieux de la montagne.

[illegible] عددهم [illegible] حتى بعد [illegible] حتى [illegible] العربي ، ولم تقوَ الديانة المسيحية على [illegible] ، [illegible] العسكرية ، [illegible] بسهولة في الارياف كما في المدن حيث تتوفر [illegible] في [illegible] الافكار بسرعة جاعلة [illegible] الذي احرزته النصرانية [illegible] القديمة والحديثة [illegible] كان [illegible] على [illegible]

وقد ظهرت [illegible]

ولكن [illegible] لم [illegible]

[illegible]

[illegible] وينكر بعضهم [illegible]

[illegible] الاخلاق .

[illegible] من ثلاث [illegible] يدعون [illegible] الاقل [illegible] واوفر [illegible]

[illegible]

الموارنة

يقيم في الاماكن الواقعة بين بلاد النصيرية شمالاً وبلاد الدروز جنوباً ، شعب عرف منذ زمن بعيد باسم موارنة ؛ فأصل [illegible] [illegible] ملخص ما فيه من الاخبار المفيدة على [illegible] التالي ، وهو انه في اواخر القرن السادس اذ كانت الحياة [illegible] عاش على [illegible] [illegible] [illegible] وبدلاً من ان يثبط موقفه عزائم تلاميذه [illegible] تلك النار اضراماً على اثر [illegible] التي كانت تجري [illegible] [illegible] ذاع صيته في جميع الانحاء .

[illegible] الى دمشق [illegible] من الامراء ورجال الدين . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والتقدم للوعظ والارشاد في [illegible] .

ان [illegible] [illegible] في لبنان .

مؤلفاً منهم [illegible] وقد كتب عنهم [illegible] المؤرخين البيزنطيين ما يلي [1] : « في السنة الثامنة لحكم قسطنطين [illegible] (سنة ٦٧٩) احتشم المردة [illegible] حتى [illegible] الخليفة معاوية ان يعقد مع [illegible] ثلاثين سنة ، وبدل غرامة تكافل له [illegible] من الذهب » .

[illegible] دل على [illegible] وان الشقاق الذي [illegible] كان دينياً ومدنياً في آن واحد .

[illegible] يوسف وكسرى [illegible] عنيا [illegible]

[illegible] كان المتمردون المتأزون من استبداد القياصرة وجور عمالهم يلجأون الى لبنان . ولا [illegible] يكون ذلك هو السبب [illegible] ونظراً الى ما كان لهذا [illegible] من النفوذ [illegible] ولعمري اسم اشرف والطف من [illegible] .

ومهما يكن الامر ، فان [illegible] الخليقين نظاماً ، ووزّع

(1) Cedrenus

[illegible] في [illegible]

[illegible] في وقت [illegible] البلاد [illegible]

[illegible] في الاسلام ، سهل لهم الفوز والنجاح ،

[illegible] الخدمة [illegible] الذي كان يقيم في الكوفة ، فاضطر

[illegible] معاهدة [illegible]

[illegible] الوزارة [illegible]

[illegible] اليه في [illegible]

[illegible] في دار [illegible] وتوصل من [illegible]

[illegible] وهكذا [illegible]

[illegible]

وقد [illegible] بالمناء ، اذ ان يوستيانس

[illegible] ويونس ، فدفع جنوده

ديرماة [illegible] مواصلة القتال [illegible]

[illegible] في تلك الحضون [illegible] الساعة لليوم الذي صرف

موعداً لاحداث مفجعة عامة في القسطنطينية [illegible] للوزارة في [illegible]

[illegible] هجموا عليه واردوه حتفه ، واخذوا [illegible]

[illegible] الوزارة

[illegible] تارة [illegible] في تلك [illegible] دامت [illegible]

[illegible] لسان [illegible]

ولا شك في [illegible] كانوا يرجون حرية للحكام [illegible] او الاتراك [illegible] ما

كان في استقالة هؤلاء [illegible] كانت [illegible] في [illegible]

وهي السنة التي [illegible] فيها [illegible]

وقد اضطروا بعد مدة قصيرة ان يحشدوا [illegible] الاسطول الايطالي على اثر انتصاره على الفرنج واستعادتهم من البلاد .

وفي سنة ١٩٢٥ [illegible] وهو الاتحاد الذي [illegible] [illegible] حتى [illegible] الذي [illegible] ذلك [illegible] كانوا [illegible] . وظل الامان باسطا جناحيه [illegible] عليهم [illegible] في سنة ١٥٨٨ فقهرهم وفرض عليهم الضرائب .

[illegible] عددهم [illegible] استطاعوا من [illegible] الاقامة فيه [illegible] كان مقصوراً على دفع الضرائب الى صاحب طرابلس

[illegible] من [illegible] ولولا بعض العوامل الطبيعية التي [illegible] كان يحول دون اقدام ذوي الطمع [illegible] شكل اراضيهم حيث [illegible] التي كانت [illegible] على كل قرية [illegible] كل [illegible] ان [illegible] واما العامل الثالث فهو [illegible] لم [illegible] الى [illegible] الا [illegible] في الاتحاد [illegible] جميع [illegible] وهو الاتحاد الذي [illegible] مستمراً ما لم [illegible] كل منهم [illegible] على [illegible] .
وهكذا [illegible] الطبيعي ، ومنع من البلاد الاستبداد [illegible] البلية الناجمة من الفوضى والشقاق الوخيم [illegible] قامت [illegible] التشريع .

والامة طبقتان : السوقة [illegible] الاعيان [illegible]

اسرهم ، [illegible] في [illegible]

[illegible]

يملكه او يستكريه ، والشائع [illegible] على هذا النمط ، ولا يتجاوزون

الا [illegible] بها ، ويرى يملكونها ، وحياة [illegible]

[illegible] على [illegible]

واذا كان [illegible] هم مشغولون ، فهؤلاء [illegible] ن الحل من المدن [illegible] .

ان حقوق الامتلاك [illegible] على ما هي في اوربا . واما الاعتداءات والتعديات فانها تحدث [illegible] التي تسيطر عليها الاتراك . واما في [illegible] والعربي يجد [illegible]

الدين المسيحي يتزوجون امرأة واحدة ، [illegible] ازواجهم بها لا يشعرون بها الا [illegible] ، ولا يباشرونها مطلقاً ، وخلافاً لمبادئ دينهم قد حافظوا على عادة الثأر ، وعملا بعادة [illegible]

الرجال من [illegible] وفلاحين لا يخرجون من بيوتهم الا [illegible] تزول

الى [illegible] الى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وقد [illegible] على [illegible]

عددهم الخمسة والثلاثين الفاً . واما عدد جميع السكان [illegible]

[illegible]

انهم [illegible] الثغور [illegible] مئة وخمسة عشر [illegible]
و[illegible] في [illegible] الواحد [illegible] مساحة [illegible]
[illegible] ولعمري انها [illegible] كبيرة [illegible] من لسان مصري ، وما يمكن فلاحته من الاراضي قليل الخصب .

ومع [illegible]
وكلهم متزوجون ولا يتخذون نساء الا من [illegible] واذا [illegible] فلا
[illegible] الازواج ثابتة وتقيمون [illegible]
[illegible] الاخرى [illegible]
بالشكاكين ، وخبز الذبيحة [illegible] مدور بحجم [illegible]
[illegible] ، وهو [illegible]
في الكأس مع النبيذ ، ويتناول [illegible]

[illegible] ولا [illegible]
[illegible] او تدعات المؤمنين ، او مما يحرقه من [illegible]
[illegible] ، ولعل [illegible] اراضي [illegible]
[illegible] معاشهم [illegible]
[illegible] وشفق عليهم .

[illegible]
في [illegible] وكل قرية [illegible] وهو أمر
غير جائز في الاعضاء الاخر الخاصة للاناث وللموارنة يفتخرون بذلك ،
ولئلا يفقدوا شيئاً من [illegible]
[illegible]
على هذا العمل في بلد آخر يقتل في الحال

ان البطالة تقسها ليس فيها مطلقا [illegible] في عدد ليقة [illegible] ولكنهم حافظوا على تواضعهم ؟ [illegible] واحد [illegible] على [illegible] بفمه قنداقت واحد . وبقم معظمهم [illegible] الرهبان واما دخل الواحد [illegible] مئة غرش في السنة ؟ وهو لعمري [illegible] موجهم في بلاد كل شيء ، ثمنه بخس . ويقتصر [illegible] علمهم لهذا المنصب درجة ثقافتهم التي يسهل عليهم طوعها ؟ اذ [illegible] او الكاهن العادي هنالك لايعرف سوى التعليم المسيحي [illegible] ويجب القول ان الرهبان والكهنة في لبنان [illegible] .

[illegible] قانون [illegible] الكبير ؟ محافظين عليه تلك الدقة التي تعيد الى الاذهان ذكرى [illegible] لا [illegible] وهم [illegible] لا ياكلون اللحم [illegible] في [illegible] وصلواتهم [illegible] في [illegible] على مقربة من دير الرهبان [illegible] بحدوث [illegible] ولاشك في ان نشاطهن [illegible] احسن وسيلة لصونهن من عواقب البطالة الوخيمة .

لاجل [illegible] على [illegible]

وقد اشتهر دير قزحيا على سير ست ساعات من طرابلس شرقاً ، ففيه يطردون الارواح النجسة كما كان [illegible] العصور الاولى يفعلون ، وقد يبدو لنا انه ما زال باقياً في هذه [illegible] ان فيهم روحاً نجساً ، وقد رأى التجار [illegible] هذا النوع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الحي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على طرد الارواح الخبيثة .

[illegible] خصهم البابا بعهد [illegible] [illegible]

وفي لبنان ثلاثة او اربعة [illegible] منتشرين على [illegible] وطرابلس وبيروت يقوم بنفقات معيشتهم الرهبان الكبوشيون الفرنسيون . واما عملهم فهو الوعظ وتعليم الصبيان [illegible] [illegible] [illegible] وكتب الاعتقاد [illegible] [illegible] مطبوعة [illegible] [illegible] [illegible] التي نتجت عن هذه الاعمال الرسولية ، ان [illegible] [illegible] الكتابة [illegible] [illegible] في هذه [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] لا سيما الدروز جعلوا يعهدون اليهم في الاشغال التي تستدعي القيام بها معرفة الكتابة .(1)

[illegible] كما كان يجري في تلك الايام التي [illegible] [illegible] [illegible] امورا قد تبدلت من اوجه [illegible] كثيرة

الدروز

وقد لجأ الدروز [illegible] هرباً من الاضطهاد الذي أثاره عليهم [illegible] مثل الزنادقة الذين اعتصموا [illegible] ليأمنوا شرّ أعدائهم ، واضطهاد خصومهم .

ومكث الدروز والموارنة يوحدون كلمتهم عند كل خطر [illegible] الصليبيين ، وسلاطين مصر ، والمماليك ، [illegible] وفي ايام السلاطين [illegible] الذين كانوا [illegible] من ظلمهم [illegible] على [illegible] وكانا [illegible] في [illegible] بروس ، وفارس ، [illegible] وغيرهم

وقد [illegible] حكام الاتراك اتصال [illegible] كانوا دوماً ينتصرون عليهم وقد ظلت [illegible] الى ان ارسل عليهم السلطان مراد الثالث [illegible] لتأديبهم ، في السنة ١٥٨٨ القائد ابراهيم باشا الذي كان في القاهرة فحمل عليهم [illegible] وقهرهم ، واخذ منهم غرامة [illegible] وفرض عليهم ضريبة سنوية

وتلك الحوادث [illegible] في حالتهم العامة التي كانت مضطربة متقلقلة ، اذ كانوا [illegible] منقسمين فريقين ، اي فريق قيسي ، وآخر يمني . وقد رأى [illegible] بمنصب عليهم زعماء [illegible] دولة ، واستمر على الامر [illegible] الذي [illegible] اليه ذلك المنصب الخطير ، ما لبث ان غدا صاحب نفوذ عظيم ، بل احدث سلطنة تنمو وتزيد ، حتى ضارعت

سلطة ملوك [illegible] فجاءت النتيجة خلاف ما كان الاتراك يتوخونه ، فهذا الحاكم مطلق السلطة مسيطر على جميع قرى منه حتى صار في وسعه ان يقاوم الدولة نفسها .

ثم ان حركة الدروز بلغت اشدها في اوائل القرن السابع عشر ، بفضل [illegible] فخر الدين الثاني الذي ما ان تقلد زمام حكمهم ، حتى [illegible] الى جهود للقضاء على سيطرة حكام الاتراك ، واحتل [illegible] . وقد [illegible] طريقة دلت على عقل ثاقب ، ورأي صائب ، [illegible] في [illegible] على دلائل الخضوع والولاء للحكومة التركية ، وكان [illegible] في [illegible] الحقيقة دائبا في شن الغارة على عمال طرابلس ، وبلاد صور وعكا ، فظل الامير فخر الدين يتعقبهم ويحاربهم حتى ابادهم ، وأنقذ من شرهم البلاد والعباد [illegible] وتمكن من التمسك من الزعامة في ان يكون هو الحاكم عليهم .

وكانت بيروت المدينة التي قدمها على غيرها [illegible] بها العربي الاوربي في اوربا ، ونقل الاخص الى مدينة البندقية التي كانت حكومتها من الد اعداء الاتراك ، ولكي يتمكن من الاستيلاء عليها ، اصبح الاحتلال في [illegible] الآغا التوري منها ، فطردوه منها ، واخذوها ، وبدر الى اعطائه [illegible] الدليل على صدقه واخلاصه في [illegible] الى دولة [illegible] وقد عمل على هذا الذي ادى الى استيلائه على صيدا وصور و [illegible] سنة ١٦١٣ حتى كان قد بسط سلطانه على البلاد كلها حتى عجلون وصفد .

[illegible] دمشق و [illegible] قلقا من نشاطه ، وأوجسا شراً من امتداد [illegible] فكانا تارة يتصديان له ، و [illegible] عليه

عند اوربا الامر في الاستانة ، وقصدهم [illegible] [illegible] كان يظهر منها
بمساعدة جواسيسه وصدقاته مقيمين في [illegible]

غير ان [illegible] قد [illegible] عدم [illegible] استمر [illegible]
على [illegible] عليهم [illegible] [illegible] في ايدي [illegible]
[illegible] عليهم ، [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible]
وهو التأييد الذي كانوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الصداقة [illegible] [illegible] ، [illegible] على [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] بيروت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] يتساءلون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
عليهم ، [illegible] [illegible] عن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الامير [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .
[illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من
[illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] كل [illegible] [illegible] [illegible]
التي [illegible] [illegible] [illegible] ، حتى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
من [illegible] « [illegible] » و « [illegible] » ، [illegible] [illegible] [illegible] . [illegible]
[illegible] ، [illegible] على ذلك [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] . [illegible] ان [illegible] [illegible]

[illegible] ذكر اسم الدروز قبل ان يكون هنالك صليبيون [illegible] [illegible] ذلك الاذى [illegible] [illegible] [illegible] وهي [illegible] [illegible] من الصليبيين حافظوا على [illegible] الدروز هي العربية التي [illegible]

[illegible]

[illegible] تشعا من [illegible]

[illegible] كانوا [illegible] [illegible] ثم ان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مصراً به

فراد الرابع [illegible] [illegible] الاكه ، آمراً نائبه على [illegible] بجميع جيوشه الى بيروت [illegible] [illegible]

ومنع المدد من الوصول اليها

ولما كان [illegible] لا يثق بمعاهدة، ويعتمد على عون [illegible]، لم يبال بالامر [illegible] على الهجوم [illegible] لدى كل حادثة [illegible] الطريق على جيش الترك [illegible] من [illegible] جنوده وجنود الاتراك [illegible] فيها، الى حتفه في موقعه [illegible]

وانقلبت الامور حينئذ ظهرا لبطن، وساءت حالة [illegible] جنوده، وهو يدري انه موت [illegible] في [illegible] الى [illegible]

[illegible] الذي [illegible] فخر الدين [illegible] الى [illegible] في [illegible] مع ان رفقاءه في [illegible] من [illegible] الرش والعذاب، فطلبوه ان [illegible] الى الاتراك

[illegible] حتى [illegible] في الاسر [illegible] في الاستانة [illegible] على [illegible] في [illegible] الامر [illegible] الذين كانوا [illegible] على قتله [illegible] من حيث الى حين امر بخنقه (١٦٣١).

[illegible] الامير فخر الدين الى ان [illegible]

[illegible] في القرن الثامن عشر [illegible] الى [illegible] على [illegible] قوي على [illegible]

و[illegible] الذي [illegible] من سنة ١٧٤[illegible] [illegible]

في [illegible]

التي [illegible] بنو قومه ، واستطاع [illegible]

[illegible] بالامير فخر الدين من المعالي و[illegible]

وكان الامير ملحم [illegible] الحكم في [illegible] في سنة ١٧٥٤ ، ليقضي [illegible]

[illegible] الحكم [illegible]

[illegible]

[illegible] لاجل ذلك آل الحكم الى عمه الامير منصور ، [illegible] في [illegible] الحكم [illegible] سن الرشد.

فالامير الصغير يوسف لم يكن في [illegible] الامير [illegible] كان [illegible] وكان [illegible] صاحب [illegible] وسلطان [illegible] الى [illegible] الانسحاب الى جبيل حيث كان الامير [illegible] في [illegible] وصاته [illegible] على [illegible] كسروان كان في عهدة [illegible]

فاوض صاحب طرابلس في الامر ، وتوصل الى اخذ « الالتزام » برمته .

وكان متاولة وادي بعلبك تعدّوا حدود [illegible] ، فصرع الموارنة من جوار هؤلاء الناس ، فتاب [illegible] والي دمشق [illegible] ، وغار عليهم في سنة ١٧٦٣ ، وتمكن من [illegible] الاراضي التي كانوا يحتلونها .

وكان الدروز منقسمين فريقين ، [illegible] الطرق المخالف [illegible] المؤامرة التي افضت الى سقوط الامير [illegible] الاخ

وكان الشيخ ظاهر العمر [illegible] صاحب بلاد الجليل المقيم في عكا ، قد [illegible] الباب العالي [illegible] ، قلد الباب العالي عثمان باشا [illegible] ولايات دمشق وصيدا وطرابلس [illegible] عليه [illegible] . ومنصور الذي [illegible] الاتراك [illegible] الى الاساليب المألوفة ، فتظاهر [illegible] كان في الخفاء [illegible] عدوهم [illegible] معتمداً على الاتراك في مناهضة منصور [illegible] فتوصل الى [illegible] الامير يوسف محله (١٧٧٠) .

وفي [illegible] الثانية [illegible] جيش [illegible] بك المصري الى دمشق [illegible] فيوسف الذي دعا الاتراك الى [illegible] لم [illegible] الدروز على [illegible] ، والانضواء في الجيش التركي ، لانهم [illegible] حرب [illegible] خارج بلادهم [illegible] من انهم كانوا [illegible] على ان [illegible] عن موازرة الاتراك لم يضرّ بهم ، اذ القتال جرى [illegible] في دمشق ، فكانت عاقبته انكسار الاتراك . وصاحب طرابلس الذي [illegible] الى الرجوع الى [illegible] ، [illegible] الالتجاء الى الامير يوسف ، فقتل ضيفاً عليه .

غير ان الامور ما لبثت ان تبدلت على اثر انسحاب محمد بك قائد الجيش المصري ، كما سيراه القارئ . فالامير يوسف الذي [illegible] علي بك صاحب مصر

[illegible]ت ، وان الشيخ ظاهر العمر لا قوى [illegible] مواجهة المشكل وحده ، [illegible] عدوانه له

وكان خصمه [illegible] خمسة [illegible] وخمسمئة رجل من عربه للدفاع عنه [illegible] على الاعتراف [illegible] الى [illegible] الصلح على دفع خمسة وعشرين [illegible] ، وعاد القتل والنهب في بلاد [illegible] التي كان [illegible] ظاهر ، وسار [illegible] مصر [illegible]

ولكن [illegible] حتى [illegible] خمسمئة رجل [illegible] الى [illegible] ، والغيظ والغضب [illegible] ، [illegible] الذي [illegible] ، [illegible] الوحشي [illegible] في [illegible] وجعلوا [illegible] في الطريق [illegible] ، [illegible] ، وفي [illegible] [illegible] في [illegible] الشرق [illegible] الذي [illegible] الا بعد المناولة بعددهم ضئيل .

[illegible] يوسف الذي [illegible] من [illegible] الاسكندر [illegible] الى [illegible] وقد [illegible] على [illegible] مصر [illegible] [illegible] واقعة [illegible] في [illegible]

وعلى اثر [illegible] مصر [illegible] من [illegible] ، [illegible] على [illegible] حدثت في [illegible] ١٧٧٣ [illegible] يستطيع الاحتفاظ [illegible] الا [illegible] ولكي [illegible] السيطرة على بيروت [illegible] من [illegible] دمشق ان [illegible] رجلا [illegible] للدفاع [illegible] وفي [illegible] رجلا [illegible] الى [illegible]

[illegible] والدور الخطير الذي قام يومئذ بتمثيله .

[illegible]

[illegible] (١) الذي كان يحب محادثتهم - ويروون انه [illegible] هرباً من العقاب الذي استحقه [illegible] الى ضيق ذات يده تابع [illegible] على بث وضنه الى مماليكه .

[illegible] وحصارة وسكان مولاه [illegible] «الكشفة» الذي كان [illegible] الاطوار . وكان [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] كاد يصل الى بيروت عمة الدفاع عنها [illegible]

(١) من Raguse وهي مرفأ على البحر الادرياتيكي

[illegible] الاتراك ، وعدّ الامير يوسف ذلك تحدياً له [illegible] والي دمشق ، ولكن الوالي لم يلتفت اليه [illegible] فاسرها كلاهما [illegible] القتال [illegible]

وبعد ما قاوم الجزار مقاومة عنيدة [illegible] شجاعته ، واضطره الى [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible] في تلك الاثناء ، فعله [illegible] صيدا . [illegible]

[illegible] وفي سنة ١٧٨١ حاربه الجزار [illegible] ونصب بدلاً منه امير حاصبيا [illegible]

[illegible]

[illegible]

حكومة الدروز

الدروز [illegible] والاعيان، ولو انهم جميعاً فلاحون، [illegible] في [illegible] [illegible] يتمكنوا [illegible] [illegible] تقوم عليه [illegible] ثم [illegible] [illegible] الامر [illegible] الاهالة التي [illegible] في [illegible]

والشاب [illegible] جعلوا لهم انتصارا واتباعا [illegible] عليهم في [illegible] الحاكم او الامير. [illegible] [illegible] الذكور، واذا مات الحاكم [illegible] ورضى الاتراك، او الحاكم [illegible] من قبل هؤلاء [illegible] ان يولى عليهم حاكم رغم انفهم، [illegible] لكن الحاكم الذي لا يرضى به الشعب لا يستطيع البقاء في [illegible] الحكم [illegible] التي [illegible]

ان [illegible] والشاب من [illegible] [illegible] الوسائل شديدة [illegible] طاقته [illegible] [illegible] العمر، [illegible] ويدفع في الوي [illegible] المفروض على [illegible] مقدرة الامة على المقاومة [illegible] لا [illegible] فقد كان في الاونة الاخيرة مية

ومئتين كيساً فالامير ملحم جعل الاموال من خمس مئتين كيساً فقط . وفي السنة ١٧٨١ اي في ايام الامير يوسف صار [illegible] .

فهذه الضريبة التي يدعونها «المال» ، وضعت على التوت والقمح والغلال والكرمة [illegible] على كل شجرة من الاشجارات ، وعن كل [illegible] حصة ارضية [illegible] . وقد زاد الاحصاء من جيل الى آخر [illegible] . وما من احد [illegible] كان او شيخاً [illegible] معفى من هذه الضرائب ومن مصلحة الامراء ان يجعلوا الاثقال [illegible] بالفلاح ؛ لانه يحفظ بالورق [illegible] بلا موافقة الاعيان الذين يحق لهم معارضته ان اقدم على زيادتها من نفسه .

ومن العادات [illegible] ان اراد اعلان حرب او عقد صلح ؟ فعليه عندئذ ان يجمعهم لاستشارتهم في الامر . وكل شيخ بل كل فرد ذي مكانة ، له الحق ان يبدي رأيه . وحكم عندهم هو شخصي ومطلق [illegible] ان الامور [illegible] على حسب تعاقب الحوادث ، وتكامل الاحوال . [illegible] كان [illegible] صاحب عقل ودراية ، فعل ما شاء ، فهو حينئذ مطلق السلطة [illegible] وجوده على كرسي الحكم [illegible] سبب ، لان الشرائع الثابتة معدومة [illegible] ، والحاجة ادت الى نظام مستقر هو متقلقل اصل كل الاضطرابات التي تحدث في جميع البلاد الشرقية .

لا الحاكم ولا الامراء الاخرون لديهم جنود ؛ فليس عندهم سوى خدمهم وبعض العبيد الزنوج . وكل رجل ، ان شيخاً او ولداً يعد نفسه جندياً في اوان الحرب ؛ فيمضي الى المكان الذي يعينه الحاكم ، آخذاً معه كيس طحين وبندقية ورصاصاً وبارودا . واذا كانت الحرب اهلية تسلح الخدم والمزارعون والاقرباء والاصدقاء ، وتجمعوا حول سيدهم او عبيدهم ؛ فيبدو عندئذ ان تلك

[illegible]

[illegible] والقسوة [illegible]

[illegible]

فعندما اعلن الامير يوسف الحرب [illegible]

[illegible]

يا غيرة الله ! يا غيرة الدين !

[illegible]

[illegible] رجال جيشهم [illegible]

[illegible]

للخصم ، ويلدون منه ، ويفتكون به [illegible] ... ربما [illegible]
[illegible]
وهو على الأخص [illegible] وهي [illegible]
[illegible] ١٧٨ [illegible] ، لا [illegible] ولا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وكان عدد حملة السلاح بحسب [illegible]
[illegible] وعشرون الفاً ولا يمكن [illegible]
[illegible] في المدن الساحلية

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] فلسطين ، والى [illegible]
من بيروت

[illegible]

يتمتعون بها ؛ فان كل واحد منهم يعيش ناعم البال، مطمئناً الى ماله وعياله، بخلاف ما هي الحالة عليه في سائر البلاد الشرقية .

وأما [illegible] من حيث سعة العيش او شظفه ، فانها تشبه حياة امثالهم في البلاد الشامية ؛ الا انهم [illegible] ناعمو الفكر ، لا [illegible] خوف من [illegible] ، [illegible] بيوتهم وخطف افراد اسرهم ، و الإمعان في حريمهم . فهذه المظالم لا اثر لها في الجبل . فالامن والعدل [illegible] هو الباعث الاكبر على [illegible] الشعب [illegible] ؛ [illegible] داع آخر الى [illegible] ، هو [illegible] عددهم .

ثم ان [illegible] صحة [illegible] تجعل [illegible] على [illegible] ، [illegible] الاقامة فيه ، [illegible] يحبون [illegible] ، [illegible] ويحبون [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] والمعاطف ؛ [illegible] [illegible] [illegible] .

والدروز [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] ، [illegible] [illegible] احسن حظاً من [illegible] ، وبما ان يد المستبدين لا تصل اليهم، [illegible] في [illegible] بالتفوق على جيرانهم ، [illegible] [illegible] والاصل [illegible] [illegible] الميل الى الاستقلال والانفراد [illegible] ، والشرف [illegible] [illegible] [illegible] من سعة واقدام وشجاعة وحماسة ومروءة .

ثم ما من [illegible] على [illegible] منهم [illegible] او اهانة ينزل الى سفك الدماء . [illegible] قد اوجدت فيهم حرصاً شديداً على افعالهم واقوالهم ، ومجاملة في التعامل مما لا تجده عند غيرهم من الشعوب . وقد يتغالون في المجاملة حتى انها في غالب الاحيان لا تعرب عن حقيقة افكارهم وشعورهم . واما زعماؤهم فانهم يتقربون [illegible] نظراً الى اضطرارهم الى

[illegible] وعمرو . ثم ان [illegible] على [illegible] خوفاً من عاقبة [illegible]
الوسطة . [illegible] عادة [illegible] عادة وحشية ، [illegible] في بلاد [illegible]
[illegible] ، تقوم [illegible] في [illegible] بلا كيد ولا [illegible]

والدروز فضيلة اخرى [illegible] وهي [illegible] ، فهم [illegible]
ويزورون بلا تصنع ولا [illegible] [illegible] طاس [illegible]
رأى ثوالي [illegible] من عاداتهم [illegible] [illegible]
وعندما كان يقول لهم : [illegible] ، كانوا [illegible]
جميعنا اخوة ، لذلك لا يقدم احد في بلادهم [illegible]

[illegible] وقد [illegible]
يوم احد امرات الانكشارية في دمشق ، [illegible] ، [illegible]
ولما علم الباشا [illegible] ، [illegible] من الامير [illegible]
[illegible] الى او ثوالي في تسليمه . [illegible] من شيخ [illegible] ، [illegible]
[illegible] في داره . [illegible] قال [illegible]
[illegible] كان الدروز [illegible] ؟ قال الامير :
لا [illegible] واحدة من [illegible] دمشق في [illegible] الامير
[illegible] ثم [illegible] ، [illegible]
[illegible] الامير من [illegible] في [illegible] ، [illegible]
ذلك [illegible] قطعة من [illegible] شعرة [illegible] كل [illegible]
[illegible] الامير . فقطعوا له [illegible] شعرة [illegible]
المشايخ [illegible] ، [illegible] ، [illegible]
[illegible] على [illegible] ، ومن [illegible] ان [illegible] .
لان [illegible] على كونه هو [illegible] دون [illegible] ما جرى

[illegible] الاسر واصلها وفصلها شأنا كبيرا [illegible]
[illegible] فان كرم المحتد والنسب
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] زراعة الارض [illegible]
[illegible]
وكان [illegible]
[illegible]

[illegible] يعدلون القريب
[illegible] وقد حدث ان قرويين لا [illegible] ولا
[illegible]

[illegible]
[illegible] وفي ما خلا ذلك ، تراهم لا
[illegible] العيشة والمراسم والعادات : فالحضارة

والطلاق جائزان عندهم [illegible]

انهم كوم في حراثة اراضيهم وزراعتها [illegible]

مصطنعة . فهم [illegible]

المدن ، فاطار الذي [illegible]

فكل واحد منهم لا يعرف الا [illegible]

[illegible]

[illegible]

او البعيد الآجل

وكثيراً ما [illegible]

عشر [illegible]

ثمانية عشرة من عمرهم يتحدثون [illegible]

[illegible] والرماقة

[illegible]

[illegible]

يشعون قراءة التوراة كما يفعل النصارى ، ولا قراءة القرآن كما يفعل المسلمون ، انهم يجهلون العلوم الحديثة والقديمة ، لكن عقولهم محصورة في الافكار الفاسدة المضرة . ولا ريب ان جهلاً كهذا خير من اصرار على ناقص . ومثلا الخرافة التي حدثت من هذا الجهل فهي السائدة في عقولهم ، مما جعلهم لا يشعرون كثيراً بالفرق الذي بين [illegible] ، او بالتفاوت الذي بين كبارهم وصعاليكهم .

اخوانا لا نرى عندهم ذلك البون الشاسع الذي نجده بين طبقة واخرى عند غيرهم من الشعوب [illegible] البون الذي بين الاحرار ، ولا يمنع شأن الكبراء فالشيوخ [illegible] التي لا تمت الى الاباحة ، ولا هي [illegible] لا يأنف من ان يقري احقر فلاح ، والجلوس معه الى خوان واحد .

والنصارى [illegible] هذه هي [illegible] شعوب العصور الغابرة في [illegible] التي اضطرت الامم [illegible] من بعد ما حببتها قوية [illegible] لا تزال في اول مرحلة من التحول الاجتماعي .

المتاولة

تقيم المتاولة في الوادي العميق الذي يفصل لبنان عن جبال ولاية دمشق ، وهم شعب صغير مستقل بنفسه ، يختلف عن شعوب سورية الأخرى باعتقاداته وعاداته . ولم يكن لهم في الماضي سوى مدينة بعلبك وبعض القرى والأراضي الواقعة في الوادي منذ زمن ، واستحكم عددهم يقوم به بعض المشايخ ، ومن بينهم بعض من بني حرفوش ، وقد تكاثروا حتى وصلوا في القرن الثامن عشر الى أعالي القاع ؛ ثم نفذوا في لبنان ، واستولوا على أراضٍ تابعة للدروز ، ووصلوا حتى الشوف ، فاستصعب الأمير يوسف أن يحمل عليهم ويبددهم من معاقلهم ، الى أن بعض غاراتهم تمادت الى أن يصلوا الى جوار صور ، فاستاء صاحبا دمشق وصيدا من هذه الغارات التي يطيقونها بالاتاوة ، ومن تقاعسهم عن أداء أموال الدولة المستحقة عليهم ، وعند ذلك يحاول اشد الضغط عليهم ، ولو ان ذلك لم يكن بالأمر الهين . فانتهز الشيخ ظاهر العمر الفرصة ، وتوسط بينهم وبين الواليين ، متكفلاً بدفع الأموال المستحقة عليهم ، وواعداً بجمع عددهم وثرواتهم . وبذلك تمكن من استمالتهم اليه ، فكان هو الرابح ، اذ كان في وسع هذا الشعب الصغير أن يعدّ بعشرة آلاف فارس كاملي السلاح .

وبعد ذلك بوقت وجيز استولوا على صور ، وجعلوها ميناءهم . وفي السنة ١٧٧١ آزروا الشيخ ظاهر وعلي بك المصري اذ كانا يحاربان الأتراك . بيد أن الأمير يوسف اجتاح بلادهم ، وكان الأمير على مقربة من قلعة جزين حيث اعداؤه وهم ينقدون من دمشق ، فالحق بهم من الأذى ، فهب خمسمئة رجل منهم وهجموا كالليوث على رجاله عازمين عزماً أكيداً على الموت في سبيل اخذ ثأرهم .

[illegible]
مع أن الهجوم شر هزيمة .

[illegible]
المتحصنين به . على أن تفرق كلمة زعماء الدروز أحبط الجهود ، ومكن الباشا في نهاية الأمر من السيطرة على الوادي كله وعلى مدينة [illegible] ذاتها .

الشيخ ظاهر العمر

[illegible]

[illegible]

وكان حكمه مقصوراً على [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] على [illegible] الأرق [illegible] في موضعة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ثم طريق له [illegible]

[illegible] بالاتلاف مرفأ يستطيع ان يوجد مقدراً يتوالد [illegible]

[illegible] طبية ؛ فهكذا الوالفة على مقربة منه [illegible]

[illegible] مع التجار العرب .

[illegible] اقتحامها والاستيلاء عليه

[illegible]

[illegible] وتنشر الوباء .

وكان [illegible]

فقد [illegible] على الا [illegible] في حاجة [illegible]

[illegible]

[illegible] تلك المدينة [illegible]

[illegible] تهديد ؛ ثم زحف [illegible]

[illegible]

[illegible] ان يدخلها ويستولي على [illegible]

[illegible]

[illegible] شديد الخطر ؛ لكنه اتخذ الحيطة [illegible]

الى ابلاغ صاحب صيدا الامر برسالة قال [illegible]

[illegible]

[illegible] الامر ما عرض، [illegible] لكن [illegible]

[illegible] الخداع لم تقرّه الدوائر الشيعية ؛ [illegible]

[illegible] ان محاربة [illegible]

[illegible]

في عينهم ، والاصرار [illegible]

باصرار وطول الاناة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ارباب الدولة عليه ؟ فمكنا التي [illegible] فلما عزم على تحصينها ، شيدا في سنة [illegible] على مصر ، فجعلها [illegible] له ، ثم ركب [illegible]

[illegible] المدافع العادية [illegible] المدافع لارسة الثالية المصرية على علو [illegible]

[illegible]

[illegible] والهدايا الى ان توصل [illegible]

[illegible] على الاد شيخ [illegible] كانوا في موطنهم يعانون الظلم ويسامون [illegible] فلا ، [illegible] في [illegible] والعدل

[illegible]

وعدت البلاد [illegible]

ثم وطد [illegible]

[illegible] ثم انه بعد هذا توصل الى [illegible]

البلاد الكبيرة التي كان [illegible]

[illegible]

وقد حدث [illegible]

الرجال [illegible]

[illegible]

وكان [illegible]

لاموال المقروضة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ذلك المولى الواقف له [illegible]

ولقد نهج هو ايضا خطة [illegible]
ابائهم على بلاد تعلمهم ما كانوا [illegible]
الاسراف وافرطوا في المدح ، وعاشوا [illegible]

[illegible]

[illegible] الشقاق [illegible]

[illegible]

والمكوس ، [illegible] الاشد [illegible]
الحسية للاذ [illegible]

[illegible]

[illegible] البلاد [illegible] وتقدمهم ووارثه من بعده حكم البلاد [illegible]

[illegible] الامراء وحكا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

خانهم . ومع ذلك ظلت نار [illegible]

[illegible] عاد الطامعة الاعتداء [illegible]

بين دول الحماية [illegible]

الى عمق الصحراء ملاقين حتفهم [illegible]

[illegible]

هذا الاعتداء كان اهانة لعدد من كبرائه [illegible]

المقاومة الا ما زالوا يشعرون به

فالمعتدون كانوا العدو حلفاء الشيخ [illegible]

[illegible]

[illegible]

اليه العلم النبوي المعروف براية [illegible]

[illegible] هذا القسم [illegible] حدث [illegible]

الشواطئ السورية . فكان [illegible]

ناشرين راية عبد رايتهم [illegible]

في مستودعاتها الى حين الحاجة [illegible]

[illegible] بغضاً شديدة . واما هو فانه ادمى

[illegible] انه لا رغبة له في تأبيد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فكانوا يعودون اليه [illegible]

[illegible] ون الى رحالهم في [illegible]

[illegible]

الصحيح ان الحرب ستنشب بينهما لا محالة .

[illegible] اما كيداً على القضاء على الثيشة [illegible]

الى الشيخ رسالة [illegible]

الى ابنيه يطلب منها اعداد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وعند انشقاق المعز [illegible]

[illegible] الى معسكر العدو

[illegible]

[illegible] في معسكرهم بلا طعام ولا

[illegible] وتعدوا عليهم ، واخذوا [illegible]

[illegible] وتركن من ساعته الى الفرار حتى

[illegible] حتى [illegible]

[illegible]

[illegible] ثلاث [illegible]

[illegible] تتوالى ، فكان [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] دولة [illegible]

[illegible] الحياة الا بعد ما [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] الاول سنة ١٧٧١ تلك الملحمة التي [illegible] في [illegible]

[illegible] الى التي ارعب في صيدا التي [illegible]

[illegible] عن الدفاع عنها [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] تمكنوا من ردهم والاستيلاء

[illegible] المشهور [illegible]

[illegible] الذي اعتراه الخوف الشديد من [illegible]

[illegible] شروط حسنة [illegible] على قبول ما عرضه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لمواصلة القتال بنشاط جديد

تلك كانت الحالة في سورية عندما [illegible] في مصر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ووصلوا الى مكان واقع شرقي

[illegible]

[illegible] وقد اتبع فيها اسلوب حرب لم

[illegible] اصطفوا صفاً واحداً [illegible]

[illegible]

[illegible] الصمار والخنادق التي كانوا

[illegible]

الأتراك في السهل عدة [illegible]

[illegible]

[illegible] المسطحة في تلك الأنحاء .

[illegible]

[illegible]

الميدان مقفرة [illegible]

[illegible] في الوسط [illegible]

الصنديد الذي كان يتحف بحديثه [illegible]

[illegible]

[illegible] ثم تركوا مواقعهم ولاذوا بالفرار

[illegible]

[illegible]

[illegible] تزداد على التوالي صعوبة [illegible]

على ان [illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible]

[illegible] الى [illegible] واضرموا النار في [illegible]

[illegible] ظاهر ما ان هذا الى [illegible]

[illegible] صف المدافع لم يكن لدى [illegible]

[illegible] لان المدافع منها [illegible]

في [illegible] في [illegible] [illegible] الاوتاد [illegible]

[illegible] الى الحكم على تلك المدينة حتى جعل [illegible] رتب . واول عمل اتاه كان استيلاءه على [illegible] فلا مولى له الا السلطان .

[illegible] الى صاحب دمشق ، ولكن [illegible] الى صاحب دمشق [illegible]

[illegible] وحاصر [illegible]

[illegible]

[illegible] الى كل [illegible] من المدينة ، وينتقل الى الشيخ [illegible]

[illegible] لم يجدد خط الباب العالي الذي كان [illegible]

[illegible]

[illegible] الدفاع عنهم [illegible] حتى علموا ان عليا ابن الشيخ [illegible] وعبثا كان يدافع [illegible] وتم [illegible] فلا تهاونوا .

[illegible] على ، [illegible] حتى [illegible] الجيش الكبير يرتعش خوفاً ، لاجل ذلك ما لبثت اوصاله ان تقطعت ، و[illegible] اوصاله ان تفتت ، تاركين وراءهم [illegible] بارده لسكان زحلة .

وكان [illegible] العصر الذهبي ، [illegible] لا [illegible] تزداد يوماً فيوماً [illegible] [illegible] حتى [illegible] من حياته [illegible] مديد كانت القلاقل والاضطرابات [illegible] ولا انقطاع [illegible] ايضا كانوا قد طمعوا في [illegible] للارث الذي [illegible] يؤملون الحصول عليه ، [illegible] الدائم الى التمرد ، جرت امور [illegible] [illegible] على حق في ان [illegible]

[illegible] كانوا [illegible] من جراء كبر سنه ، لم يعالج الامر بعطفة ، بل [illegible] [illegible] فبدأت تظهر عواقب خطئه في السنة [illegible] .

[illegible] رأى ابرهيم ان الخاوف [illegible] بعد يتوقع ان [illegible] [illegible]

[illegible] ان [illegible] اثناء [illegible] وامر ان يحضروا ذلك الخصوم [illegible] احد منهم قبل ابيهم [illegible] من الخليل [illegible] وهكذا انقضت تلك السنة [illegible]

[illegible] ١٢٧٥ [illegible]

[illegible] تسلمت وكانت [illegible]

[illegible] وابرهيم يوجه الدآء [illegible] لانه ضرّ المال على الجميع [illegible]

[illegible] على الاستسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] وصلت اليه الحالة [illegible] وانقلبت الحالة [illegible]

[illegible] لكن العاصفة [illegible]

[illegible] لحالتهما مع انه كان [illegible] ذلك

[illegible] الاسطول التركي [illegible] المحرم على الشيخ [illegible] لدى الاتراك [illegible] المدينة [illegible] ولا على [illegible]

ايس في [illegible] الدول الى [illegible] والمغاربة ، فلا يبقى امامهم والحالة هذه سوى الرحيل

فعترض دنكرلي [illegible] من شأنها ان تعرض لهلاك الناس [illegible] حطار [illegible] المال . ولنا اعتقد ان [illegible] تحول [illegible] من عدو الى صديق

[illegible] هو الامر [illegible] قول ابرهيم .

[illegible] دنكرلي [illegible] يعرفون ان [illegible] الله ؟

فاطعه ابرهيم قائلا : [illegible]

فاجابه دنكرلي [illegible] من العرب [illegible] الواقعة حول مرة ، وتركت مدينة يافا [illegible] .

[illegible] وجوا كاحته مما نسبه اليه

[illegible] دنكرلي [illegible] مواطنيه [illegible] العرق [illegible]

بأن لا يطلقوا النار على الاتراك

غير ان الشيخ الذي وطّن النفـ [illegible]

للقتال ، وفي الغد عندما [illegible]

بالقنابل ، ردّ الشيخ عليهم باطلاق [illegible]

منه ، واما المدافع الاخرى على القرن [illegible]

ولم يحركوا ساكناً .

ولما رأى انه خين [illegible]

[illegible] جهة الشمال ، وقصده [illegible]

[illegible] اصابته في [illegible] ، ووقع [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ورباطة جأش . واما في [illegible]

[illegible] باسرها [illegible]

[illegible] والخدائع . وقبل [illegible]

والمداهنة اللتين كان ابوهم [illegible]

استتباب الامن في بلاده [illegible]

العبث به .

وكان متساهلاً متسامحاً على [illegible]

ظلّ محافظاً على طباعهم وآرائهم و[illegible]

ميسور الحال ، وملابسه

اما الحلى فانه لم يكترث لها قط

؛ فقد ادى ثمانية آلاف قرش

علي بك المصري

[illegible]

والنساء . لاجل ذلك كما [illegible]

[illegible] في الترتيب [illegible]

[illegible] كانت [illegible]

مصاف السكوت الاربعة والعشرين

[illegible] وقتل [illegible]

وصوت مولاه الذي حدث في سنة [illegible]

في المؤامرات التي كانت تدبر لتو [illegible]

[illegible]

[illegible] لك حينئذ شيخ الملا فاشتهر [illegible]

[illegible]

[illegible] طاهر باذهاب اليها . ثم حول طريقه الى [illegible]

[illegible] الى صحة [illegible] مصرة لي دماء [illegible]

[illegible] وكان يأبى الخضوع لدولة الاتراك [illegible] بها الباشا الذي [illegible]

[illegible] على حقوقه ، واخطأ من قدره

[illegible]

[illegible] كانوا يصعدون الى [illegible]

[illegible]

[illegible]

نزلوا الى ارفع درجة [illegible]

فاتهمه بانه يجاري [illegible]

[illegible]

[illegible] الاسبيلا

عليها بلا قتال ، فاخذ منها السلب الذهب

[illegible] ودها الصداقة الهندية ، فهذا

[illegible] قال ثقته ، كانت الغاية منه استبدال

[illegible] الذي هرم

[illegible]

العاصمة ، اذ المماليك والمصريين هجموا معاً هجمة صادقة على [illegible] ، الذين ما لبثوا ان لاذوا بالفرار ، منهزمين شر انهزام . وكان عثمان باشا اول المدبرين .

فالحليفان بعد فوزهما [illegible] استوليا بسهولة على دمشق التي لم يكن فيها حامية تدافع عنها . واما القلعة [illegible] ولم يكن على اسوارها لا مدافع ولا مدفعيون [illegible] على مقربة [illegible] المياه . وقد وقف على الاسوار بعض حملة البنادق [illegible] ولكن [illegible] انهم كانوا يعتقدون [illegible] على اخلاء القلعة والاستسلام .

غير انه حدث [illegible] محمد بك [illegible] الى [illegible] في الرحيل [illegible] كانوا يتأهبون لدخول القلعة [illegible] الشيخ [illegible] من [illegible] على هذا السؤال . غير انه لم يجبها على سؤالها ، [illegible] هو [illegible] وكان يرى على الطريق المؤدية الى مصر [illegible] واشدة وامتعة مطروحة . وقد عزوا هذا الامر المدهش الى [illegible] ان [illegible] في القاهرة ، [illegible] اثر مفاوضة سرية جرت ليلاً في خيمة محمد بك ابي الذهب .

ونحن [illegible] ان عثمان باشا [illegible] محمد [illegible] لذلك عهد الى احد [illegible] في [illegible] ، وحمله على [illegible] والانسحاب من دمشق . فقد القى الرجل في ذهن محمد بك [illegible] من [illegible] الدور الذي يقوم به في [illegible] على

دمشق ليس مشروعاً ، وانه يخطئ ان ظنّ ان السلطان يترك علي بك يفعل ما شاء ، من غير ان يُنزل به العقاب الذي يستحقه . ثم قال له ان تعدي على مدينة مقدسة كدمشق جريمة لا تغتفر ، وان من العبث ان يُحصل رضى علي بك على رضى السلطان ، وخصوصاً اولى بعرضك دوماً للاخطار . فضحك علي بك من [illegible] وسلامة نيته كاتبه رزق القبطي .

ويظهر ان الحوادث كان لها مفعول بعيد الأثر في محمد بك ورفقائه ، فمن [illegible] شاوروا واقسموا [illegible] واستحلفوا ان يعودوا في الحال الى [illegible] دمشق ، [illegible] واتجهوا مسرعة الى مصر ، حتى [illegible] قدومهم [illegible] في الأقل دخولهم القاهرة بست ساعات فقط .

ويظهر [illegible] في [illegible] ، وود لو كان يعاقب القائد ، [illegible] بالامر [illegible] نظراً الى [illegible] لاجل ذلك اضطرّ علي بك ان يكتم ما كان يجيش في صدره من الحقد والغضب ، وانتظر سنوح الفرص .

بيد ان حوادثه فوائد حرب كثيرة [illegible] لم [illegible] في [illegible] ، [illegible] في [illegible] شيخ ظاهر ، [illegible] حقداً شديداً [illegible] الذي ابداه حتى تلك الساعة ، مما يغضب به ظاهر [illegible] خسارة [illegible] قرصان اوروبي [illegible] دمياط ، على عدة مراكب شحنها ارزاً للشيخ ظاهر .

وهنا [illegible] امر آخر كان شديد [illegible] ، وهو فرار محمد بك . وكان حادث دمشق لا يبرح من باله ؛ لكنه [illegible] التي كان يكنها محمد بك تزداد في [illegible] ، الى ان [illegible] قلبه [illegible] عن [illegible] قصد التاجر [illegible] الذي [illegible] ذكره . فقال [illegible] علي بك ذات يوم [illegible] ملوك [illegible]

هم ايضاً اغنياء كأبي محمد . اجابه الشيخ : كلا فانهم محرومون من ذلك ، لان الاشياء الكبار يتمنون ان يخلفوا ابناءهم قبل الاوان (1) .

فهذا الجواب جعل يتقلب على بك كالسهم ، ومنذ تلك الساعة اخذ ينظر الى محمد بك نظرته الى خصم شديد الخطر ، فعزم على هلاكه . واصبح يتحين له ذلك اوعز الى جميع حراس ابواب المدينة الا يدعوا اي مملوك كان يخرج من المدينة بعد المساء . ثم امر محمد بك ان يسافر الى صعيد مصر وكان يتوقع ان يلقي الحرس القبض عليه ، فيستطيع حينئذ ان يفعل به ما يشاء .

بيد ان الامور جرت بخلاف ما كان يريده ، فكان من حسن حظ محمد بك ان ترك الحراس يرحل مع من كان معه من ... لانهم ... لا يقدم على مغادرة العاصمة الا بأوامر خاصة . ومن ثم اخذت الحالة تتفاقم يوماً عن يوم .

ولما علم علي بك بما جرى ... في نفسه ، ... محمد بك بعد الخيطة نفسه ، لم يجز هؤلاء على الدنو منه ، فانطلق الى الصعيد وهو يشتعل غيظاً ونار الانتقام تستعر في احشائه

وفي الصعيد جرى حادث كاد يودي بمحمد بك نفسه ، وهو ان ايوب بك نائب علي بك تظاهر كأنه ... من علي بك ، واقسم لمحمد بك ان يساعده في كل ما يريد عمله ، ولكن ظهرت ... من ايوب بك ... فيه ... بضرب عنق محمد في القريب العاجل ، فقبض محمد بك على ايوب بك وقطع يديه ولسانه وارسله الى القاهرة .

وكان المماليك يحسدون علي بك على ما اصاب من حسن حظ وثروة .

(1) ان الشيخ البلدي هذا هو الذي ... بعد حدث

المصريين اكثرهم ، وانحازوا الى خصمه ، وكذا فعل ايضاً العرب اتباع ظاهر ، وبغيتهم اخذ ثأرهم منه والحصول على ما يسمى عندهم من المغانم . ففي مدة اربعين يوماً صار لمحمد بك من المال والقوة ما حمله يبادر بالعود راجعاً الى القاهرة . فلما اقترب منها ضرب خيامه على مسافة اربعة فراسخ منها .

فاضطرب علي بك اضطراباً شديداً وبقي حيران لا يدري ما يجب ان يفعل . ثم عمد الى حيلة لم تكن المثلى ، وهي انه سيّر فرقة من عسكره مع محمد بك صهره واسماعيل بك الذي كان يعتمد عليه الاعتماد كله ، وحشد هو انصاره عند ابواب المدينة .

فاسماعيل الذي كان له ضلع في حادثة دمشق ، ما كاد يبدو من العدو حتى انضم اليه . وربما فعل ذلك لما كان من تفشي الاضطراب في صفوفهم . فعادوا الى القاهرة كأنهم منهزمون . ولما كانوا يريدون الالتحاق به في الجيش ، حشد الحرب والمطاردة في اثرهم واكرهوهم على الفرار .

ولما رأى علي بك ذلك ، فقد رباطة جأشه ، ولم يعد يفكر الا في انقاذ حياته وصيانة ثروته ، فرجع على جناح السرعة الى المدينة . واخذ من قصره ما كان يريد حمله ، ثم خرج الى غزة مصطحباً معه نحو مئة مملوك عزموا على الوقوف الى جانبه في السراء كما في الضراء . وكان عزمه التوجه الى الشيخ ظاهر العمر في عكا . غير ان سكان نابلس ويافا قطعوا عليه الطريق ، فاضطر الشيخ ان يأتي ويزيل بنفسه العوائق التي اعترضت سبيله ، فاستقبله الشيخ العربي بمظاهر الاخلاص الذي طبع عليه سائر قومه ، ثم سار به الى عكا . وكانت مدينة صيدا محاصرة آنئذ ، وحيث عثمان باشا ورجال الامير يوسف يضيقون عليها الخناق . ولما استنجد الشيخ ، بادر الى اغاثتها ، وقد رافقه علي بك ومماليكه ، وكان عدد الجيش نحو ستة آلاف فارس

وما ان علم الامراء بفرارهم حتى عسكر حصار ، وذهبوا الى مكان قريب من النهر ، يبعد ... من المدينة وقعت هناك في شهر ... لسنة ١٧٧٢ رحى معركة ، كثر ... ، وبقي ... من ... ثلاث اخرب ، فالجيش التركي الذي كان ... من الجيش ... ، والعسكر ... كسرة ، والدروز الذين كانوا ... ، ... صيدا عاصمة للشيخ ظاهر ، وهي ... الذي ...

ومن ثم بادر الشيخ وعلي بك الى الاقتصاص من ... الذين ... اللاجئ ... التي ... علي بك قبل فراره من القاهرة فالمدينة التي كان ... شيخ نابلس ، فوصدت ابوابها في وجهها ، ... الضرورة ... وقد دام الحصار ثمانية اشهر ، مع ان سورها لم يكن سوى جدار عادي فاضطرت المدينة الى الاستسلام ، وكان ذلك في شهر شباط لسنة ١٧٧٣

واخذ علي بك ... في الرجوع الى القاهرة ، ... لاسترداد سلطته على مصر ، فالشيخ ... كان في ... من اثر مقاومته ... في شأن ... ، ... يكن سهلاً ... ، ... كان ... من ... ، ... شوقه في الرجوع الى مصر

ومما ... تحريض كاتبه ... القبطي ... يعتقد ان ساعة عودته قد ازفت ، ... بقرب هلاك محمد بك ، لانه كان ... الاتراك ... الى الداخلية ، وشق ... وصدق ...

وفي اوائل شهر نيسان جاءته رسائل من ... تقرأ في القاهرة ،

قالوا له [illegible] لقد مشت مطرقة عدلك لعنق؛ فمن ينتظر بفارغ الصبر موتك.

فقال وقد [illegible] وعود [illegible] ان يدفن مفاتيح الشيخ الذي [illegible] على [illegible] والصغر، فبادر [illegible]، مصطحباً معه [illegible] ولم يحضر قط بباله ان رسائل [illegible] محمد بك من [illegible] قسراً لكي يخدمه بها، ويوقعه في الفخ الذي نصبه له.

وقال علي بك في [illegible] بعدما [illegible] من صحبة مصر، أتي حيناً من [illegible] المماليك، فقد [illegible] يعودهم [illegible] بك الشاب الذي ولع بامرأة الى [illegible] وكان محمد بك قد وعد [illegible] برأس رجلها.

و[illegible] كان [illegible] بك يرى عن بعد [illegible] اقتراب الخصم، حتى حل [illegible] في [illegible]، وقد [illegible] له في تلك المعمعة ان يقبض على علي بك [illegible] اسيراً الى محمد بك الذي كان على مسافة [illegible].

[illegible] محمد بك [illegible] عطفه الاحترام التي يشق اصطناعها [illegible] والوجه التي يسهل على الخائن مداواتها، واراه [illegible] واصدر الاوامر [illegible] الاعتناء الزائد، قائلاً له: انا عبدك الذليل الذي يقبل موطئ قدميك.

وفي اليوم الثالث ختم المشهد بموت علي بك موتاً نسبه بعضهم الى تأثير جرح [illegible]، وعزاه البعض الآخر الى مفعول السم الذي دُسّ له. وهكذا انتهت حياة رجل [illegible] شبهة [illegible] اوربة اليه، واوجد في كثيرين أمل حدوث انقلاب عظيم في الشرق.

ولا ريب انه كان رجلاً فذاً ؛ وانما من الخطأ عدّه من الرجال العظام والذين عرفوه حق المعرفة ، يشهدون انه كان متحلياً بصفات سامية حال دون استفادته منها افتقاره الى العلم والثقافة .

ونحن نصرف صفحاً عن بقية ما نعيب الخديوي عليه على الاقدام على امور خطيرة كثيرة المخاطر دون التفكير مليّاً في عواقبها وانصرافه النظر عن حياته ، وحبه التواتر في بيته ، وعنايته حتى الحصر اليه ، [illegible] ، مروءة ؛ فان امة تشغلها الفوضى تتضاءل حرصها على اخلاق افرادها . وانما [illegible] في [illegible] من الاعمال ، [illegible] من الطرق التي تؤدي الى ازدياد المودة وعلو الشأن [illegible] لاهلاك نفسه .

وهذه الامور التي الحق ملامة عليه هي :

اولاً — ميله الى الترف ميلاً جامحاً ، [illegible] افضى الى تبديد [illegible] قواه ، وخراب بلاده .

ثانياً — جنوحه الى [illegible] الاستبداد ، وعقده على [illegible] في الامور دون الحكم ؛ فتجردت من [illegible] هيبته في عيون [illegible] ، ونشط فيهم الميل الى التمرد عليه

ثالثاً — وهذه الاموال [illegible] تعود نفسه ، وحمله على الاعتداد بنفسه [illegible] وكان يجب عليه ان يحذر [illegible] من المتملقين لئلا يفتتن بقولهم خداعة ، وهم الذين في كل بلد يحومون حول ارباب الثروات ، طالبين سعة العيش عن طريق الغش والتملق .

ومع ذلك لا يسعنا الا الاعتراف بما كان يحوزه من الطاقة التي [illegible] المسيطرة على مصر ، واذا كانت عيوب ثقافة ناقصة حالت دون ادراكه

ما هو السعر الحقيقي ، فقد دق دوماً الى الجزاره . وشوق كهذا لا يشعر به [illegible] الوصيه ، ولم يمكن [illegible] الا ان يقرب اليه اصحاب الايدي [illegible] والتجار الاوربيون الذين شهدوا ارتقاءه [illegible] ، يدهشون عدم تذمر الشعب عليه ، ويجورون على الشعب تلون الطباع ، وحدة الخيال ، وقد [illegible] . الشعوب تصدر حكمها في [illegible] ، وتحبهم او تنكرهم ، وتمدحهم او تذمهم ، بحسب ما يحكمون قد صنعوا لها او يضروا وسائل معيشة [illegible] الحكم الذي تصدره عليهم على هذا الاول [illegible] عادل [illegible] تجارة البلاد وصناعتها [illegible] المعيشة يجب ان تقدم على كل شيء [illegible] جمهور الشعب الى الخبز ، فمن حقه على الاقل ان [illegible] . وهل يشعوب الشعب المصري [illegible] عليه [illegible] ان هذه الحالات والغروات كانت [illegible] في مصر [illegible] ، واثقلت كاهل الشعب [illegible] عشرة ملايين وارمهاية الف [illegible] من البلاد لتغذية الجيش المحارب وجشع بعض التجار المحتكرين من ذوي [illegible] الامر ، مجاعة هائلة اضنت البلاد في السنتين ١٧٧١ — ١٧٧٢ .

[illegible] على حق [illegible] في حروب [illegible] ولم [illegible] في ترويج التجارة مع بلاد [illegible] ، وهي تجارة لا ينتفع بها الا [illegible] ؟

وهل انعطأوا تقدمهم في اسرافه اذ رؤه يؤدي ثمانين الف قرش ثمن محفة خنجر ، ولو عد المالقون الحاتقون كرماً مثل هذا التبذير الذي كان الشعب المصري وحده يتحمل وقره .

وما هو فضل علي بك ان عد كان ذ يجود بما حاز من مشقة في الحصول عليه ؟ اليس من العدل ان يتصرف بأموال الامة ليشبع هواه ، او يكافئ من يروم مكافأتهم ، على خدمة خصوصية خدموه بها ، كما فعل مع نديم قصره (١) .

أحق ان ما فعل من الحالة ارجعه اليه [illegible] العدل والانسانية ؟ ل كان الطمع والعطف الباعث على كل ما فعل . فهل سمعت بعد ذلك او رأيت الشعب الذي عامله بتعسف وتجبر ، لا يثني عليه ، بل يذمه ويكرهه ؟

---

(١) عندما رحل علي بك الى الشام ، وقد مر ثلاث [illegible] صرف حياته على [illegible] من الامراء ، وكان قد [illegible] مئة اربع وعشرين [illegible] ، [illegible] الذي كان [illegible] حسن ، [illegible] في [illegible] ان الى [illegible] علي بك [illegible] في قصر [illegible] ، [illegible] ان [illegible] ليخرج من [illegible] ، وقال [illegible] هذا المال [illegible] علي بك [illegible] واسم ان [illegible] لانه عندما رجع [illegible] القاهرة [illegible] ، ومن الرغم من [illegible] الكثيرة فانه لم يرجع [illegible] .

وصف بعض ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

(عن كتاب فولني عن مصر)

[illegible] احوال المصريين بعد موت علي بك [illegible] المصريون [illegible] وكان [illegible] الذي [illegible] في شهر [illegible] سنة ١٧٧٣ [illegible] مصر [illegible] [illegible] اليه ، اذعن انه [illegible] من [illegible] في حقوق السلطان وطاعة [illegible]

وقد بعث الى الاستانة بجميع الاموال [illegible] علي بك [illegible] بعد موت علي بك [illegible] الاذن في محاربة الشيخ [illegible] المطلوب ، والانعام عليه بلقب « باشا القاهرة »

[illegible] الامر [illegible] البلاد كان [illegible] عليها [illegible] علي بك ، كما انه كان [illegible] على [illegible] التي كا[illegible]

[illegible] شيخ [illegible] ، [illegible] والآثار ، [illegible] على تلك [illegible]

كان يوحي اليه به حقده وطمعه بمصر حيث عدائه عديدة ، وجاء بضباط
اجانب ، عهد في قيادتهم الى الانكليزي « روبنسن » . ونقل من السويس
مدفعاً كبيراً طوله ست عشرة قدماً كان ملقى هناك منذ زمن طويل .

وزحف الى فلسطين في شهر شباط من سنة ١٧٧٥ . ولدى اقترابه من
غزة رأى حاميتها مؤلفة من رجال السنجق عمر بك لا تقوى على المقاومة ،
فانسحبت منها . وبعد استيلائه عليها ، تقدم الى يافا . فهذه المدينة
التي كان فيها حامية ، واستعداد لمكافحة القتال ، لم تذعن بالاستسلام ، فضرب
الحصار عليها .

ان مدينة يافا على سطح لا يعلو معظمه عن سطح البحر الا قليلاً . وهي
مشيدة على تلة مخروطة الشكل ، يبلغ علو مخروطها نحو ستين قدماً
والبيوت مبنية على منحدرها ، فتظهر للناظر من بعيد . ومن دونها قلعة صغيرة
تشرف على مرفئها ولا يحيط بها سور الا من جهة البر ، لا يزيد علوه
نحو اثنتا عشرة واربع عشرة قدماً ، وكثافته قدمان او ثلاث قدم ، والشرفات
التي في اعلاه هي كالتي في اسوار الحدائق والبساتين . وهذا السور
الذي لا خندق له ، قائم وسط حدائق حيث شجر الرمان والليمون يسمو
كوّاً مدفعاً .

فتلك هي المدينة التي اغار عليها محمد بك ، وكان يدافع عنها نحو ستمائة
صفدي يؤازرهم بعض السكان ، وكان لديهم مدافع ... قذائفها ...
وعشرين بحرية ... فاصلحوها ... على قواعد من خشب صنعوها لها بسرعة ؛
ووضعوا ... على ... بنادقهم ... الشجاعة والتهديد
والوعيد ، واطلقوا عليه من بنادقهم ... حفظ واحدة يقومون مقام
المقدرة والمهارة .

ولما رأى محمد بك انه يجب احتلالهم مرة ، نصب خيامه دون المدينة مع ان هذا المكان الذي كان يحتله [illegible] اتخذ معسكره نفسه لا تبعد سوى مسافة قليلة عن مدافع القلعة والقنابل التي احدثت تتساقط عليه ، فنقلت [illegible] الى خطابه ، وبعد معسكر قليلاً ، بكل الصبر التي ظلت تهطل عليه ، اجبرته على مبادرة ثانية ، فحصروا حيث بعيداً ، وهي التي [illegible] كل الاسراف في تزويقها وفرشها ، وضربوا حولها خيام [illegible] .

ولما الهاربون [illegible] لا [illegible] اصحاب [illegible] القتال والجرحى ، وعمل باقي [illegible] استطاع لاتخاذ [illegible] ثم قاموا [illegible] في حراسة المعسكر ومن مع ان [illegible] من شأنه ان يصون معسكرهم ، واخذوا من ثم يطلقون على المدينة مدافعهم التي [illegible] على قمة [illegible] قدم ، واصلاهم المدافعون عن المدينة ناراً حامية احدثت الكثير منهم .

ومن المدهش ان يتوصلوا الى فتح ثغرة واسعة في جدار [illegible] نحو ثلاث اقدام ، [illegible] ان [illegible] انهم [illegible] وهم على ظهور جيادهم ، فقيل لهم ان ذلك غير ممكن ، [illegible] الى ان يسيروا [illegible] على الاقدام ، [illegible] مطر غريب [illegible] المضائق ، [illegible] (1) ذي الكعب [illegible] ، [illegible] الاعلى ، وهم يتعثرون [illegible] على الارض من [illegible] والعراقيل .

وقد خيل اليهم انهم [illegible] كله [illegible] ثمرة ، لكن المدافعين من المدينة الذين كانوا [illegible] الامر على حقيقته ، لم يتصدوا لهم حتى وصلوا الى ارض [illegible] التي ما بين المدينة والسور ، فامطروهم حينئذ من سطوح البيوت [illegible] الرصاص [illegible] على الانسحاب

(1) كلمة تركية [illegible]

وقد اعدوا الكرة مراراً بايعاز مراد بك، غير ان محاولاتهم لم تجدهم نفعاً. وكان محمد بك يرى كل ذلك، فيستشيط غيظاً. وقد دامت تلك الحال ستة وستين يوماً.

واما المحاصرون الذين كان عددهم يتناقص على اثر غاراتهم على العدو، فانهم سئموا انتظار المدد الذي كانوا ينتظرون قدومه من عكا، فابوا مواصلة الدفاع عن المدينة وحدهم.

وكان المسلمون يحنقون على المسيحيين لقضائهم الوقت في الصلاة، ويفضلهم البقاء في الكنائس على النزول الى حومة الوغى. لذلك عزم بعضهم على مفاوضة العدو في شأن تسليم المدينة اليه، شرط ان يؤمن على نفوسهم واموالهم واملاكهم.

وكان الاتفاق قد تم بين الفريقين عندما دخل المدينة بعض المماليك، مستغلين فترة الهدوء التي تلت المفاوضة، وقد شرعوا في النهب، فقاومهم السكان. ومن اثر ذلك استؤنف القتال، فهجم عندئذ الجيش باجمعه على المدينة، فشهدت يافا في ذلك اليوم من الاهوال ما تقشعر له الابدان، لان المماليك قتلوا بحد السيف كثيرات من النساء والاولاد والرجال والشيوخ. ومحمد بك الذي كان متوحشاً بقدر ما كان جباناً، امر بأن يؤتى برؤوس هؤلاء الضحايا الذين بلغ عددهم الالوف، وتوضع امامه بشكل هرم.

وبعد المذبحة الهائلة التي حدثت في ١٩ ايار سنة ١٧٧٦ انتشر الذعر في البلاد، حتى ان الشيخ ظاهر نفسه هرب من عكا، واقام مقامه ابنه علي الذي ما زالت سورية تذكر شديد شجاعته، مع كل ما شان صيته من تمرده المتوالي على ابيه. وقد عرف علي ان محمد بك لا يجهل العهد الذي

قطعه به [illegible] على ان المملوك ما ان وصل الى عكا ، حتى طلب منه رأس ابيه برهاناً على صداقته واخلاصه .

وما رأى به خدعه [illegible] غادر المدينة التي عدت عصبة واردة مصريين [illegible] كاد التجار الفرنسيون يسحبون [illegible] حتى دهمهم خطر هائل ، وهو ان محمد باشا الذي مر ان [illegible] الصفاء [illegible] لشيخ ضاهر ودعاهم كل ما يملك من ثروة ، وتوعدهم بالقتل ان لم يأتوه بها في ميعاد ضربه لهم

[illegible] ان [illegible] التقدم [illegible] من الخطر ، لان المملوك اصيب على [illegible] مرض حيث لم يجد [illegible] سوى [illegible] فهلك وهو في ريعان الشباب . ويعتقد [illegible] ان موته كان [illegible] لانه [illegible] حرمة معبد [illegible] الذي على جبل الكرمل ، [illegible] في هيئة [illegible] البصرع [illegible] هذا الشيخ [illegible]

[illegible] حتى قام [illegible] من [illegible] الى مصر . [illegible] من دمشق

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣	١٦	هل بدك بعيدة	هل بلادك بعيدة
٥	١٩	الحرية الحق	الحرية الحقيقية
١٠	٨	يتألفوا فيها تآلفا	يتآلفوا تآلفاً
١٢	١	غير أن لفظ هاتين اللفتين	غير أن هاتين اللفظتين
١٣	٧	والشبية	والشمسية
٣٤	١	اقض وعظ	امض مطر
«	١١	والنصيرة لم تصل	والنصرانية لم تصل
٣٥	٣	تساعد انتشار	تساعد على انتشار
٣٨	٢	البلاد المتحدة	البلاد المتمدنة
«	١٦	واردوه حتفه	واوردوه حتفه
«	١٧	وحينئذ	ومنذئذ
٣٩	١٧	هذه الامم	هذه الأمة
٤٣	١	عل صعيد	على صعيد
«	٧	الشمس ان	الشمس اني
«	١٥	حلّ عاها	حلّ علها
٤٥	١٢	هو الحكم عليهم	هو الحاكم عليهم
٤٨	١٠	يرعب الا الصلح	يرغب الا في الصلح
٤٩	١	فاتفق .. الى نقل	فاتفق ... على نقل
٥٠	١٧	فضلا ، ن	فضلاً عن

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٥١	٨	رحل متوالي	رجل متوال
٥٣	١٧	مالاً وافياً	مالاً وافراً
٥٧	٣	وهي الطاعة والصحة	هما الطاعة والصحة
٥٨	٦	في حريهم	في ضرعهم
«	١٢	الزرّع	الزرّاع
٦١	١٣	فينسايرون	فيتسامرون
٦٤	١٠	تضائل	تضاءل
«	١٢	افتحوا	اقتحموا
«	١٣	المختصين به	المتضمين به
٦٧	٥	نحو ثلاثا	نحو ثلاث
«	١١	التأثير في	التأثير الحسن في
«	١٥	ما فرض	ما عرض
٦٩	٩	ابدي	ابدى
٧١	٢	الاعتراف له بالسعادة	الاعتراف له بالسيادة
٧٢	١٥	واكثر هؤلاء	وكان اكثر هؤلاء
٧٤	١٧	انهم ذو مال	انهم ذوو مال
٧٦	٧	جواب الملوك	جواب الملوك
٧٧	٢	اتلك الملحمة	تلك الملحمة
«	١٠	عثمان ووالده	عثمان باشا ووالده
«	١٢	كاتبة ابرهيم	كاتبه ابرهيم
«	١٣	اثار عليه	اشار عليه

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٧٨	٢٠	موقفاً	موقفا
٧٩	٤	ورقت الدرور	ورقف الدرور
״	١٢	الثاني مئة	الثاني مئة
٨٢	٤	اذهله هذا القدر	اذهله هذا القدر
״	٨	رحلت من	رحلت عن
٨٣	١١	أن يتوسلوا	أن يتوسلوا اليه
״	٢١	يرُدّ	يرُدّ
٨٧	١٤	ساعة القتال	ساحة القتال
٨٩	١٤	امضى بها	امضى بها بعضهم
٩٥	١٦	كما يدعونه	كما يدعونهم
٩٧	١٩	رسائل الاغراء	رسائل الامراء
٩٩	٦	مملوك كان يحرج	مملوك يخرج
١٠١	٤	الجيشين الحلفين	الجيشين الحليفين
١٠٥	الحاشية – سطر ٣ – خيمتة		خيمته
١٠٧	٥	رأى حاميتها	رأت حاميتها
١٠٨	١٠	قلعة	تلعة
״	١٦	مرضين	مريضين
١٠٩	٩	يؤمّن على نفوسهم	يؤمّن لهم نفوسهم

هدية «الرسالة المخلصية»
في سنة ١٩٤٩

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب البوفي

الجزء الثاني

﴿ الحقوق محفوظة ﴾

المطبعة المخلصية
دير المخلص صيدا

تمهيد

وفق الى قرائنا الافاضل الجزء الثاني من كتاب الرحالة فولني عن بلادنا فهو تتمة الهدية التي قدمتها « الرسالة » في العام الغابر . والكلام في هذا الجزء يتناول تقسيم هذه البلاد الى خمس ولايات او ايالات ، هي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وقد وصف المؤلف كلًّا منها كما كانت عليه ايام كان يتنقل فيها . واتى وصفها ، على اقتضابه ، مستوفياً للقارئ بما يطلعه عليه من الاحوال الماضية التي لم يبقَ اليوم لاكثرها من اثر . ثم عقب على ذلك كله بنظرة شاملة لخص فيها اقسام هذه البلاد وما كان يجبى منها من اموال السلطان ، وما يترتب على جبايته من عنت وارهاق وما الى ذلك . ثم تناول الكلام الصناعة والتجارة والفنون والعلوم وبعض العادات والطباع ...

الا ان حضرة استاذنا السيوفي أعفانا من مطالعة بعض آراء عقد لها المؤلف كلاماً طويلاً دون ان يكون فيها للمطالع الا الاستكثار والسآمة . فكان له فضل الاديب الناقد الذي يهمه فائدة المطالعين لا شهوة الابتداع .

وزاد فأفرد ، في ملحق قصير ، نبذة من مظالم الجزار ، اقتضبها من مصادر اخرى غير كتاب فولني ، استكمالاً للفائدة عما يخص هذه البلاد مما يستدعي شكرنا الجم .

ر . س . ه

سوريا ولبنان وفلسطين

الجزء الثاني

تقسيمها الى ولايات او ايالات

بعد ما فتح السلطان سليم الاول سورية بانتزاعها من يد المماليك جعلها خمس ولايات [1] وهي: حلب، وطرابلس، وصيدا او عكا، ودمشق، وفلسطين. وعيّن على كل منها حاكماً مطلق السلطة. وقد طرأ بعدئذٍ بعض التغيير على هذه الولايات من حيث الحدود، وان الوضع العام ظلّ على حاله.

ولاية حلب

ان جانباً من ولاية حلب تتوالى فيه الاودية والجبال، والجانب الآخر تكثر فيه السهول ذات التربة الخصبة؛ فالعشب ينمو فيها بقوة ووفرة على اثر سقوط الامطار. ولكن لا فائدة ترجى من هذا الخصب، اذ معظم

---

(1) كان الاتراك يدعون الـ Pachalik سلطة او كرسيا يجلس عليه حاكم [illegible] «باشا». وقولي في كلامي عن ولايات سورية قد عدلت عن ذلك اللفظة التركية، واما عن فقد استعملنا لفظ «ايالة» و«ولاية» بدلا عن حاكم [illegible] يعود اليه فيها؛ من غير ان ننظر الى ما كان عليه [illegible] من الامور المصطلح عليه في دواوين الدولة العثمانية التي جعلت [illegible] او [illegible] ارقاها درجة «الوزارة» ثم تليها في الرتبة درجة «[illegible]» [illegible] «[illegible]» فالمدير. ثم اننا عنينا [illegible] «الايالة» و«الولاية» [illegible] معنى واحداً فهما مترادفتان.
(راجع «المنجد» للاب لويس معلوف اليسوعي).

الاراضي تظل بوراً ، ولا ترى بقعاً مزروعة الا في جوار القرى والمدن ، وهي تعطي القمح والشعير والقطن . ويغرسون في الاراضي الجبلية الزيتون والتين والكرمة . ويزرعون التبغ في المنحدرات القريبة من الساحل . ويجدون شجر الفستق الاراضي القريبة من مدينة حلب . واما المروج فانهم يتركونها لعشائر التركمان والاكراد الرحل الذين يرعون عليها انعامهم .

والوالي هو نائب السلطان « والملتزم » العام [١] واما في ولاية حلب فانه يعهد في « التزام » الضرائب الى محصل ، ومدة التزامه سنة واحدة ؛ والبدل الذي يؤديه الى الباب العالي مقداره سبعمئة كيس [٢] فضلاً عن مبلغ آخر من المال يناهز خمسة وثلاثين الف قرش يدفع به ارباب الامر واصحاب النفوذ في الاستانة ليشملوه بعطفهم ورعايتهم ، وبعد ان يدفع هذين المبلغين يحق له ان يتقاضى :

اولاً — مكوس البضائع الواردة والصادرة .

ثانياً — رسم على رعي القطعان التي يأتي بها الاكراد والتركمان كل سنة من ارمينية ونواحي ديار بكر لبيعها في سورية .

ثالثاً — خمس ما يستخرج من ملاحة « جبول » . ثم الضريبة المفروضة على الاراضي ، وتقدر حينئذ بستمئة او سبعمئة الف قرش .

ووالي حلب الذي يحرم مصدر ارباح طائلة كهذه ، يتقاضى راتباً قدره ثمانون الف قرش ، وهو مبلغ لا يوازي نفقاته ، اذ عليه ان يصلح الطرق ، ويرمم القلاع ، ويقوم بنفقات الجنود الذين تحت يده ، ويبعث بالهدايا الفاخرة الى

---

(١) الملتزم عندهم هو الشخص الذي [illegible] الاعشار او غيرها [illegible] حيث يدفعه للحاكم على دفعها .

(٢) الكيس عبارة عن ... ذهب ؛ والواحد منه قرش تركي صاغ ؛ والقرش التركي اربعون بارة .

الوزراء ليحظى برضاهم ويحتفظ بمنصبه . غير ان الباب العالي يعرف حق المعرفة ان ما يفرضه الوالي من الضرائب على الاكراد والتركمان ، والقرى والافراد ، يدرّ عليه الاموال الوافرة . ومما يروونه من هذا القبيل ان « عدلي » باشا الذي كان واليا على حلب حوالي سنة ١٧٢٢ توصل في مدة خمسة عشر شهراً الى جمع مبلغ عظيم من المال قدّروه مليون وستمئة الف قرش ، مما كان يأخذه من الاتاوى ، ويفرضه من المغارم ، حتى ضجر السكان منه فطردوه من مدينتهم شرّ طرد .

ومدة حكم الوالي تكون عادة قصيرة الاجل . ومن المحتوم عليه ان يحافظ على السكينة في ولايته ، بمؤازرة العسكر او الجيش ومثلي جندي ما بين راجل وفارس ، ويضم اليهم عند الحاجة الانكشارية [1] المقيمين في البلاد العامل عليها .

ويؤلف الانكشارية فرقة في كل من الولايات ويتحتم عليهم ان يكونوا دوماً متأهبين للحرب . وبما انهم يتمتعون ببعض الامتيازات والانعامات ، فان الناس يقبلون برغبة على الانضمام الى سلكهم . وكانوا يتبعون في ما مضى نظاماً خاصاً . غير ان حالتهم هبطت بعدئذٍ الى اقصى دركات الانحطاط . لذلك لم يبقَ للنظام القديم من اثر . فهم في الحقيقة شبه عسكر ، وليسوا سوى ارباب حرف وفلاحين وعمال كباقي اصناف الجنود ، لكنهم اقلّ طاعة واصعب انقياداً من غيرهم . فان استبدّ الحاكم ، وظلم الرعيّة ، كانوا اول من ثار لرفع العصيان . فهم الذين خلعوا عدلي باشا الذي مرّ بنا ذكره ، وابعدوه

(١) طالع عن فرقة الانكشارية هؤلاء مدة وصف الاستاذ الخوري سنة ١٩٦٠ وهي تطلب منه في دمشق : باب توما (سوريا) — او من المطبعة المخلصية : دير المخلص ، قرب صيدا (لبنان) .

من حلب ، فاضطر الباب العالي ان يعيّن والياً آخر بدلاً منه .

وتقتص الدولة من الانكشارية العصاة ، بقتلها زعماءهم ؛ لكنهم لا يخشون ان يتخذوا زعماء غيرهم. ولكثرة ما عانى الحكام من الشغب من هؤلاء الجنود الوطنيين ، قد اتخذوا جنوداً من الغرباء الذين لا اقرباء لهم هنالك . وهم صنفان ، مشاة وفرسان . ويعدّون الفرسان وحدهم رجال حرب ؛ ويدعونهم « دولة » او « دلاتي » او « دلي باش » او « لوند » ؛ وسلاحهم السيف القصير والمسدسات والبندقية والرمح . ويتعصبون بقلنسوة من اللباد الاسود اسطوانية الشكل ، ليس لها كنار ، طولها نحو خمسة وعشرين سنتمتراً ، ولا تقي العينين اشعة الشمس ، وتُرى مدورة من على رؤوس هؤلاء الناس المحلوقة .

وسروج خيلهم يصنعونها على النمط الانكليزي من قطعة واحدة من الجلد ، يمدونها على مقعد من الخشب ؛ وهي مصطنعة غير مريحة .

واما كسوتهم فهي تشبه كسوة المماليك ، لكنها اقل اناقة . فثيابهم البالية واسلحتهم الصدئة ، وافراسهم المتباينة القد واللون ، تجعلهم يشبهون اللصوص . والحقيقة ان معظمهم كانوا في الاصل لصوصاً ، وظلوا لصوصاً حتى بعدما صاروا جنوداً .

ان اغلب الجنود الفرسان في سورية اكراد وتركمان وقرمان قتلوا ونهبوا وسلبوا في مواطنهم ، ثم جاءوا الى الوالي فوجدوا في كنفه محلاً ومأوى . وفي جميع انحاء المملكة يتألف الجيش من افراد على شاكلتهم . وبما انهم لا يتقيدون بنظام ، فان اخلاقهم تدل على ما هم ؛ فهم آفة المدن والقرى ، لانهم يتعدّون على الجميع ، ويسلبون وينهبون لدى كل سانحة وبارحة . والجنود المشاة هم اسوأ حالاً ؛ وكانوا فيما مضى يُجندون من البلد ذاته الذي يقيمون فيه . وفي العهد الاخير اخذ فلاحو تونس والجزائر ومراكش يتوافدون على

سورية للتجند فيها طلباً لعيشة غير متيسرة لهم في موطنهم ؛ لكن المغاربة الذين تتألف الجنود المشاة ، والبس اخف منهم ، اذ انما يملكون من امتعة مقصور على بندقية صدئة ، وخنجر ، وحقيبة من جلد ، داخلها قميص وسروال « وطاقية » حمراء ، وحذاء . ورواتبهم خمسة قروش في الشهر ؛ واذا تعقبت اكلهم فالو لي يقوم بها ، فحالتهم اذاً لا بأس فيها . ورواتب الفرسان ضعف رواتب المشاة .
ويجري تصنيفهم على حسب الاسلوب التتري القديم ، فيجعلون شراذم ، والشرذمة عشرة رجال ، وقلما تكون كاملة العدد ، اذ الآغا المعهود اليه في صرف رواتبهم ، يبذل جهده ليحتفظ لنفسه بجانب كبير ، بانقاص عددهم الى اقصى حد مستطاع . ومن الرؤساء فانهم يغضون الطرف ، لان جانباً من مال الاختلاس على هذا المنوال يعود اليهم . والوالي نفسه له ضلع في الامر ، لانه الشريك الاكبر . والا يضطروا ان يدفعوا الرواتب بتمامها ، يتغاضون عما يرتكبه جنودهم من الاعتداءات او يقترفونه من الذنوب والعيوب .
وضع كهذه قد جرّ الخراب على معظم الولايات ، بما فيها ولاية حلب حيث لم يبقَ سوى اربعمئة قرية من الالف والمئتين المدونة في سجلات الجزية . والتجار الفرنسيون الذين كانوا في حلب في القرن الثامن عشر رووا ان معظم القرى القريبة من المدينة صارت الى الخراب ، لان اصحابها غادروها وجاؤوا الى حلب حيث تغفل عنهم عين الظالم العاتي .
وقاعدة هذه الولاية مدينة حلب ذاتها التي تقع في وسط سهل متسع ممتد بين نهري العاصي والفرات ، متصلاً من جهة الجنوب بالصحراء . والتربة المشيدة عليها تربة جيدة ، ويجري فيها سلسال لا يجف ، ينبجس من جبال عينتاب ، ثم يصب في بطيحة واقعة على مسافة ستة فراسخ من حلب ، يكثر فيها طير اللقلق والخطاف . وتتوالى من ثم الرياض الرائعة في الارض المنبسطة ،

على ضفتي جدول الماء بقرب المدينة .

وحلب هذه هي الطف مدن سورية ، وانظفها ، واحسنها بناء ، فانى اين تلمحها تعجبك مآذنها العديدة وقبب مساجدها البيضاء المستديرة ، فتريح ناظريك من رؤية السهل الاغبر الممل المحدق بها .

وفي وسط المدينة تل يحف به خندق ، وعلى قمته قلعة خربة ، تشرف على ما حولها ، فمنها يمتد البصر جنوباً وشرقاً الى نهر الفرات ، وشمالاً الى جبال بيلان المجللة بالثلج ، وغرباً الى سلسلة الجبال التي ما بين نهر العاصي والبحر . وقد صمدت للحرب عدة اشهر ، غير انها تعجز في عصرنا عن صد اي هجوم كان ، فجدارها المنخفض القليل الثخانة خرب ، وابراجها الصغيرة ليست احسن حالاً ، ومدافعها الاربعة لا فائدة منها ، كما فيها المدفع الرفيع الطويل الذي غنموه من الفرس في حصار البصرة ، والثلاثة والخمسون انكشارياً الموكولة اليهم حراستها ، لا يقيمون فيها ، بل في حوانيتهم ، اذ الآغا قائدهم لا يجد فيها مكاناً يصلح لايوائهم . وفيها بئر يأتيها الماء بقناة محجوبة من عين تبعد فرسخاً ونصف الفرسخ . وفي اطراف المدينة حجارة كبيرة مبعثرة ، وهذه قبور .

وهنالك تلال تجعل الدنو من القلعة سهلاً ، وعلى احدها دار الدراويش المشرفة على القلعة وجدول الماء . فحلب اذن غير محصنة ، مع انها باب سورية من جهة الشمال . واما كمدينة تجارية فهي ذات شأن كبير ، اذ فيها تلتقي القوافل الرائحة والغادية ما بين ارمينية وديار بكر وبغداد وبلاد فارس . وهي تتصل بالخليج الفارسي وبلاد الهند من طريق البصرة ، وبمصر ومكة من طريق دمشق ، وباوربة من طريق الاسكندرونة واللاذقية . والمتاجرة فيها تقوم بالمقايضة . واهم بضائعها القطن ، والصوف ، والغزل ، وانواع الحرير

المنسوج فيها ، والاقمشة الغليظة المصنوعة في القرى ، والنحاس ، والوبر ، وشعر المعز الوارد من الاناضول ، وبعض بلاد الاكراد ، والفستق ، والشال ، والشاش الهندي .

وما تستورده من الخارج جوخ « لندرق » ، ودودة القرمز ، والنيلة ، والسكر ، وبعض التوابل والابازير ، وبن اميركا الذي يأتون به حلب اذ استيراده ممنوع ، فيمرحونه بالبن اليمني .

وللفرنسيين في حلب قنصل وسبع وكالات ، ولكل من الانكليز والبندقيين وكالتان ، ولكل من النمسويين والهولنديين وكالة . وفي السنة ١٧٨٤ انشأت فيها الحكومة الفرنسية قنصلية ، وعهدت فيها الى تاجر يهودي مي بدر من ساعته الى حلق لحيته ليرتدي بالكسوة الرسمية ، ويشد السيف على وسطه . وكذلك الروس اتخذوا لهم داراً هنالك جعلوها مقراً لقنصل يمثلهم . والمعاملة الطيبة التي يجدها التجار الاوربيون في هذه المدينة ، لا يجدون مثلها في سائر مدائن الشرق .

وتأتي حلب بعد الاستانة والقاهرة من حيث كثرة السكان ، فيظن ان عددهم فيها يناهز مئتي الف نسمة . واما هواؤها فانه جاف وملائم للذين لم تعترهم الامراض الصدرية . على ان وباء غريب الشكل ، يدعونه « حبة حلب » منتشر فيها وفي ما حولها ، وهو بثر يكون في ابتدائه التهابياً ، فيصير من ثم قرحاً يدوم سنة . وهو يخرج عادة في الوجه ، فيترك فيه اثراً مشوهاً . ويزعمون انه يعتري ايضاً كل غريب يقيم في حلب ثلاثة اشهر . وقد دلت الخبرة على ان الخير دواء له عدم استعمال اي ما دواء ، ولا يعرف له من سبب ، وانما يظن انه ينجم من طبيعة الماء الذي يشربونه ، لانه منتشر ايضاً في القرى المجاورة وبعض انحاء ديار بكر .

وحمامها الذي كانوا يرجلونه الى بغداد ، حكايته ليست باسطورة . وقد بطل استخدامه في نقل الرسائل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، لان قطاع الطرق كانوا يقتنصونه . واما طريقة نقله فهي انهم كانوا ينقلونه على الخيل الى المكان المراد عودته منه . وعندما يراد ارسال الاخبار ، تربط بطاقة برجله ، ثم يطلق سبيله ، فيصل من اسكندرونة في ست ساعات ، ومن بغداد في يومين . وهذا النوع من الحمام لا يختلف عن غيره الا بانتفاخ وخشونة منخره الذي يتكون مادة املس في غيره من الحمام .

وتنظر حلب من بعد تجلب اليها طيور البحر التي وجودها هنالك يستثير الدهشة . واذا ما صعد المرء بعد الظهيرة الى سطح بيت ، وحرّك يده كأنه يلقي في الفضاء كسرات من الخبز ، رأى الطيور تنقضّ فجأة ، وتخطف وهي طائرة الكسر الملقاة اليها على سبيل التسلية .

ويلي حلب من حيث الاهمية مدينة انطاكية التي اشتهرت في سالف العصور بزهو سكانها . فهي اليوم بلدة خربة ، منظر بيوتها المبنية بالطين ، وطرقها الضيقة الحزنة تدل على فقرها وبؤس اهلها . والبيوت قائمة على الضفة الجنوبية لنهر العاصي بقرب جسر قديم خرب . ويعلوها جنوباً حصن عليه سور شيّده الصليبيون ، وهي تمتد من الجبل نحو الف ومئتي قدم . وفي هذه المسافة تتوالى الحدائق والخرائب .

وانطاكية اكثر ملاءمة من حلب لسكن التجار الاوربيين ، واقامة مستودعاتهم عليها . فلو ازالوا من مصب نهر العاصي الطمي المتراكم فيه — والمصب بعد ستة فراسخ عن انطاكية — لسهل على المراكب صعوده ، وانما يصعبها ، بما ان مجراه شديد الانحدار ، لذلك يدعوه السكان « العاصي » . وعرضه داخل المدينة يقارب اربعين قدماً . وعلى مسافة سبعة فراسخ من مصبه صعوداً

بحيرة يُحتاز بنمو فيها السمك ولاسيما الجري او ثعبان الماء الذي يقددون منه كل سنة مقادير كبيرة .

ولم يبقَ في انطاكية اثر لعبة « دفنة » او ذكر للمشاهد الدعارية التي كانت تمثل فيها . واما سهلها فتربته جيدة ، الا انه بور ، وقد تركت لقبائل التركمان الرحالة . مع ان الجبال التي الى جانبي النهر تكثر عليها بساتين التين والكروم والتوت التي شجرها مغروس بنسق لطيف لا مثيل له في غيرها من الاماكن . والملك المقدوني « سلوقيوس نقاتور » الذي شيّدها ، اقام ايضاً على ضفة العاصي عند مصب النهر مدينة حصينة دعاها باسمه ، لا يرى اليوم منها الّا انقاض ومغاور في صخر مجاور ، وبقايا رصيف مرفأ .

وعلى مقربة من ساحل البحر نحو الشمال جبال عالية دعاها واضعو تقويم المدن الاقدمون « رسوس » ، وهو ذات الاسم الذي ما زال باقياً حتى الآن في لفظة « رأس الخنزير » التي تسمّى بها زاوية هذا الساحل .

والخليج الذي يزداد وغولاً شرقيّ الساحل ليس فيه ما هو جدير بالذكر سوى مدينة الاسكندرون التي على شاطئ البحر ، مع انها قرية لا سور لها ، قبورها اكثر من بيوتها ، وهي الثغر الوحيد في سورية كلها حيث تستطيع السفن القاء مراسيها من غير ان تقطع حبالها . غير ان محذوراته كثيرة واضراره جسيمة ، فهواؤه مؤذٍ ، وشتاؤه شديد الرياح كثير العواصف . واكثر رجال البحر الذين يقضون الصيف فيه ، يموتون بامراض تعتريهم ، وهي امراض تنشرها المستنقعات التي تكثر في جواره .

والتجار الاوربيون المقيمون في حلب لهم في الاسكندرون وكلاء ومستودعات . ولا شيء فيها يسترعي النظر سوى ستة او سبعة ضرائح من رخام جيء بها من انكلترة ، كتب عليها : « هذا ضريح فلان الذي مات في

ريعان الشباب متأثراً بالهواء الموبوء». والذين يبدأون من مرضهم يقضون فترة النقه في بيلان الواقعة في قلب الجبال على مسافة ثلاثة فراسخ ؛ وهي بلدة هواؤها نقي وماؤها عذب زلال .

ولما ضاق تجار حلب الاوربيون ذرعاً بغبار الاسكندرون، فكّروا في نقل مستودعاتهم الى اللاذقية ؛ فاقترحوا على الباشا صاحب طرابلس اصلاح مرفئها على نفقتهم نظير اعفائهم من المكوس والضرائب لمدة عشر سنين ؛ وابانوا له ما ينجم من ذلك من الفوائد في مستقبل الايام ؛ فاجابهم : «مالي والمستقبل ؟ كنت امس في مرعش ، وقد انتقل غداً الى جدّة ؛ فلمَ احرم نفسي الحاضر الاكيد في سبيل مستقبل غامض لا امل لي فيه» .

وفي وسط الجبال شمالي حلب ، مدينتا كلس وعينتاب اللتان سكانهما ارمن واكراد واتراك . وبما انهم يعيشون جميعهم في سلام ووئام ، فلا يستطيع الحكام الاستبداد بهم .

وعلى مسير يومين من حلب شمالاً شرق بلدة «منبج» التي كانت تعرف قديمًا باسم «بمبيس» (Bambyce) . ولم يبقَ فيها اثر لهيكل للالاهة السكبرى التي وصف عبادتها لكيانوس . والامر الوحيد الجدير بالذكر قناة عجيبة طولها اربعة فراسخ يسيل الماء فيها منحدراً من الجبال ؛ وكانت المجاري المماثلة لها كثيرة في هذه الارجاء ، اذ الاشوريون والماديون والفرس كانوا يعتقدون ان الدين يفرض عليهم جرّ الماء الى الصحرى لانماء وسائل الراحة والرفاهة ؛ لاجل ذلك يرى ما بين بقعة واخرى آثار حالية تدلّ على ان البلاد كانت آهلة في العصور الخوالي ؛ وتلك الآثار هي انقاض قرى قديمة ، وصهاريج خربة ، وبقايا قلاع وهياكل ، واقعة جميعها على الطريق التي بين حلب وحماة .

وفي السهل الواسع الذي في تلك الانحاء مدة تلال بيضوية الشكل وهي

من عمل البشر ، ومنها تل « خان شيخون » الذي طول دائرته الف واربعمئة قدم ؛ وهو شاهد ناطق بالجهود العظيمة التي كانوا يبذلونها في اقامة مثل هذه التلال التي تتوالى بين فرسخ وآخر ، وعلى جميعها انقاض قلاع واطلال هياكل ، لأن الاقدمين كانوا يؤثرون القيام بفرائض العبادة في الاماكن العالية .

واما الآن فبدلاً من تلك الحدائق والبساتين ، لا يرى المرء الا اراضي بائرة مهملة ، مع ان تربتها جزيلة الخصب ، وما يزرعونه في بعضها من القطن والسمسم ينجح نجاحاً تاماً .

وجميع الاراضي الواقعة على حدود الصحراء ، ليس فيها ماء جار ولا ينابيع ؛ وماء الآبار مالح ؛ والامطار التي يعلقون الآمال عليها لا وجود لها الا فيما ندر . لاجل ذلك ما من شيء له منظر كئيب كما لتلك الاراضي الماحلة القاحلة حيث لا شجر ينمو ولا عشب ينبت ؛ او لهذه المساكن المبنية باللبن التي تتألف منها القرى ؛ او لهؤلاء القرويين البؤساء المعرضين دوماً لعسف الحكام ، وجور الظلام ، وتعدي البدو .

والعرب المقيمون هنالك يدعون « الموالي » ؛ فهم اغنى واقوى القبائل العربية طرًّا ، بعضهم فلاحون ، والبعض الآخر يؤازرون عرب نجد في تسيير القوافل ما بين حلب والبصرة ، او دمشق او طرابلس عن طريق ...

ولاية طرابلس

تشمل ولاية طرابلس البلاد الممتدة بموازاة البحر الابيض ما بين اللاذقية ونهر الكلب . فحدودها غرباً مجرى هذا النهر وسلسلة احدى المطلة على نهر العاصي . واكبر جانب منها جبلي ، وليس فيها ارض منبسطة الا تلك التي تقع بين طرابلس واللاذقية . وجداولها العديدة تجعلها كثيرة الخصب ، واخص غلتها القمح والشعير والقطن . غير انهم لا يهتمون كثيراً بفلاحتها ، لانهم يفضلون عليها الاراضي الجبلية .

وحاكم طرابلس مطلق السلطة في الشؤون العسكرية والمالية ، ويقلد الحكم لسنة واحدة ببدل قدره مئة وخمسون كيساً يؤديها الى الباب العالي ، وعليه ايضاً ان يقوم بنفقات الجردة التي تقدر بسمئة وخمسين كيساً ، والجردة هي القمح والشعير والارز التي يذهب بها الى قفل الحجاج في البادية ، فيعتاض من ذلك بالاتاوى والمغارم والضرائب والمكوس وما يتقاضاه من تلزيم بلاد النصيرية ولبنان . والمال الذي يدخل عليه من هذه المصادر وافر جداً . وعليه كذلك ان يقوم بنفقات الخمسمئة فارس والجنود المغاربة الذين تحت يده ، وهؤلاء ليسوا احسن حالاً من زملائهم الذين في حلب .

والحكام الذين تعاقبوا على طرابلس ، حاولوا مراراً ان يديروا هم انفسهم دفة الحكم في بلاد النصيرية والدروز . غير ان هذين الشعبين كانا يقاومان بالسلاح دخول الاتراك الى بلادهما ، لذلك اضطروا ان يعهدوا في جباية الاموال منهما الى « ملتزمين » يرضيان بهم . ومدة الالتزام سنة واحدة ، والحاكم هو الذي يطرحه في المزاد ، فيتزاحم الاعيان لأخذه ، وهكذا يستطيع الحاكم ان

يثير التحاسد والاضطراب في تلك البلاد ، جاعلاً نيرانها مضطرمة على الدوام ، وذلك ما فعله الفرس والاشوريون في البلاد التي كانوا يسيطرون عليها .

ففي اواخر القرن الثامن عشر كان ثلاثة زعماء او متقدمين ملتزمين بلاد الضنية . واما بلاد الموارنة والكورة دون الزاوية كان معهوداً فيه الى الامير يوسف ويدفع قدره ثلاثون كيساً .

واول مدينة جديرة بالذكر في هذه الولاية ، طرابلس ذاتها ؛ فهي قاعدة الحكم ، وتقع على مسافة ربع فرسخ من مصب نهر « قاديشا » ؛ ويفصلها من البحر سهل صغير مثلث الزوايا ، اتساعه نصف فرسخ ، في طرف البلدة التي ترسو المراكب بقربها . وليس هنالك مرفأ ؛ واما الخليج الذي ما بين الشاطئ والصخور المعروفة بجزر الارانب والحمام ، فان المراكب تجد الرسو فيه لكثرة الصخور التي في اسفله وللرياح التي تعصف بشدة على جميع هذا الشاطئ . وفي عهد الصليبيين كانت تحمي الخليج ابراج رأى فولني سبعة باقية منها .

وعلى مقربة من طرابلس بساتين التوت الابيض والرمان والبرتقال والليمون ، وهي اشجار تحمل احسن الاثمار واطيبها . ويكثر هنالك الصبار الذي ينبت بشكل غير منتظم .

وقد يبدو ان السكن في هذه المدينة مستطاب ، الا انها معرضة لانتشار الاوبئة فيها ، وعلى الاخص في فصل الصيف ؛ فهي من هذا القبيل كقبرص والاسكندرون ، اذ بساتين التوت القريبة منها يغمرونها بالماء حتى الاشجار تورق ثانية ، فيحدثون مناقع عديدة . ثم ان المدينة ليست مفتوحة الا من جهة الغرب ؛ لذلك لا يهبّ عليها النسيم ، فالناس تشعر فيها بتعب ونصب دائمين . وفي الميناء الهواء اكثر رطوبة منه في المدينة ، الا انه

تلقى واحد انه طاغ .

وفي الساحل الجنوبي السور السميك القديم ، ثم مساكن ، وعدة عظيمة داخلة في الارض او مشادة بين التلال ، وهي التي استمد العرب الكثير منها في الاسوار التي شيدوها

وتجارة طرابلس تقوم بالحرير الخشن الذي يصنعون منه قماشاً ، الا ان صنعها آخذ بالتضاؤل لزوال اشجار التوت التي لم يبق منها سوى سوق مهجورة ، واصحابها لا يقدمون على نصب غيرها ، او على احداث بناء جديد ، لئلا يتهمهم الحاكم مثرين ، اذ من يعرف عنه انه يحرز مالاً ، يطلب منه تأديته ، فان ابى او انكر ، ضرب ، وان اعطى ضرب ليعطي اكثر فاكثر .

والطرابلسيون يلبسون الطربوش ، لقب الانكشارية الذي يتحدونه ، والعمامة الخضراء التي يفتخرون بها ، منتحلين صفة الاشراف ، بجملتهم على العصيان . ففي اواسط القرن الثامن عشر ، امر احد باشواتهم ، ودفعهم الى اليأس القنوط من اعمال الجور والاستبداد ، فطردوه ، ولبثوا بضعة اشهر مستقلين ، الى ان ارسل الباب العالي بعث اليهم حلاً من سالب الحق ، التوصل الى اخضاعهم فبذل لهم الوعود الحسنة ومنحهم العفو والامان ، ثم انتهى به الامر الى حتى ذبحهم في يوم واحد ، وهم الذين ترى مدافنهم في مغارة قرب « قاديشا » .

والفرنسيون الذين هم في طرابلس قنصل وثلاث وكالات ، يقايضون على الحرير والاسفنج المستخرج من قعر الخليج ، بالجوخ والدراهم الفرنسية ، والسكر ، والبن الاميركي ، وان هذا المرفأ هو دون اللاذقية اهمية .

ومدينة اللاذقية التي انشأها « سلوقيوس نيكاتور » ودعاها « لاوديقية » تقع على الشاطئ الجنوبي لبقعة ارض مستطيلة داخلة نصف فرسخ في البحر .

ومرفأها كباقي المرافئ التي على هذا الساحل ، يحيط به رصيف من الحجارة ، وله مدخل ضيق ؛ ويمكنه ان يأوي خمسة عشر او ثلاثين مركباً . بيد ان الامواج ، لتراكمت فيه الحجارة والاتربة حتى انه لم يعد يسع اربعة مراكب ؛ والسفن التي يزيد غورها على اربعة اقدام لا يمكنها ان تعوم فيه ، وكثيراً ما تجتمع السفن عند مدخله ؛ ومع ذلك فان التجارة في هذه المدينة رائجة ؛ وعلى الاخص تجارة التبغ الذي يشحنون منه سنوياً الى دمياط عشرين مركباً ويأتيهم بدلاً منه الارز الذي يقايضون عليه بالزيت والقطن في سوريا العليا . وفي عصر « سترابون » كانوا يبعثون الى مصر عن طريق الاسكندرية بمقادير كبيرة من الخمر المشهور المستخرج من عنب الكروم التي على منحدرات الجبال .

ويقدرون عدد سكان كل من طرابلس واللاذقية بأربعة آلاف نسمة .

وعلى الساحل الذي ما بين هاتين المدينتين عدة قرى كانت في العصور الخوالي مدناً عامرة ، كجبلة وطرطوس وغيرهما . وهناك اماكن عديدة تدل آثارها التي اندثر اكثرها ، انها كانت مدناً عامرة في سالف الزمان ؛ ومنها جزيرة ارواد او ارادوس القديمة الشهيرة بمدنها ، وهي التي روى عنها « سترابون » ان دورها كانت اكثر طبقات من بيوت رومة . وسكان جزيرته التي كان ينعم بها سكانها نموا وتكاثروا حتى اصبح عددهم عظيماً . وكانوا يزاولون الملاحة ، ويمارسون الفنون والصنائع ؛ والجزيرة اليوم خالية خاوية ، حتى ان النقل لم يحفظ لنا ذكرى عن الآلة الدقيقة التي اخترعها الارواديون في قاع البحر فكانوا يستمدون الماء منها نقياً من الرصاص وانبوب من جلد يركبونه عليه .

والى الجنوب بلاد كسروان الممتدة من نهر الكلب حتى طرابلس ؛ واكبر مدنها جبيل وبيلوس القديمة التي عدد سكانها ستة آلاف . ومرفأها

كرفا اللاذقية . ونهر ابرهيم هو نهر ادونيس ، القديم الذي يبعد فرسخين الى الجنوب ؛ وعليه جسر بقوس واحدة ، فتحتها خمسون قدماً ، وارتفاعها ثلاثون . ويدل شكله على ان العرب هم الذين شيدوه .

والاوربيون يترددون الى اهدن وبشري التي فيها معهد للمرسلين . وفي فصل الشتاء يقصد جمهور كبير من القرويين الى الساحل تاركين بيوتهم التي طمرتها الثلوج ، في عهدة بعض الحراس . وتبعد بشري عن غابة الارز ثلاثة فراسخ ، مع ان الرجل لا يستطيع قطع هذه المسافة الا في سبع ساعات . ويدعي فولني ان اشجار الارز هذه الذائعة الشهرة ، تشبه عجائب الدنيا الاخرى . فلما دنوت منها ، رأيت ان صيتها يفوق حقيقة حالها . ويقول ان هنالك اربع او خمس شجرات ضخمة ، ليس لها اية صفة خاصة ، ولا هي جديرة بما يكابده المرء من المشقة في سبيل رؤيتها .

وعلى حدود كسروان بمسافة فرسخ واحد من نهر الكلب تقع قرية منطورة الصغيرة حيث كان للآباء اليسوعيين دير حسن الموقع ، قريب من الساحل ، يشرف على الوادي الذي امامه . وعلى مقربة منه عين مرية الماء تسقي بساتين الدير وكرومه . وكان الآباء عزموا على ان يضموا اليه دير بناء يبعد نحو ربع فرسخ . غير ان الروم الكاثوليك الذين هم اصحابه لم يوافقوهم على ذلك ؛ فاقاموا ديراً آخر الى جانب ديرهم دعوه دير الزيارة . وكانوا قد بنوا ايضاً على بعد مئتي قدم مدرسة اعدوها للطلبة الموارنة والروم الكاثوليك ؛ لكنها بقيت خالية . واليسوعيون الذين حلوا محلهم لهم هنالك كاهن واخ مساعد .

ولاية صيدا

التي يقال لها ايضاً ولاية عكا

الى جنوب ولاية طرابلس ، وعلى طول ذات الساحل ، ولاية ثالثة دعيت باسم صيدا ، وهي المدينة التي كانت قاعدتها . ويمكن ايضاً تسميتها ولاية او ايالة عكا . فقبل الشيخ ظاهر كانت تشمل بلاد الدروز ، وجميع الساحل الممتد من مجرى نهر الكلب حتى جبل الكرمل . وبقدر ما كانت سلطة الشيخ تنمو وتتقدم ، كانت البقعة التي يسيطر عليها الوالي تصغر وتضيق ، حتى انها لم تعد تشمل سوى مدينة صيدا وحدها التي طرد منها في نهاية الامر .

غير انها ما لبثت ان استعادت حدودها السابقة على اثر اضمحلال سلطة الشيخ ؛ والجزار الذي خلف الشيخ في الحكم ، ضمّ اليها بلاد صفد ، وطبرية ، ومدينة قيصرية التي كان يحتلها عرب بني صخر ، وبعلبك التي كانت تابعة لولاية دمشق ؛ ثم نقل سكنه الى عكا ، للاستفادة مما احرزه فيها الشيخ من العمران . وهذه الولاية بعد ان ضم اليها ما ضمّ ، صارت تشمل جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب وقيصرية فلسطين جنوباً ، والبحر المتوسط غرباً ، ولبنان الشرقي والجانب الاعلى من نهر الاردن شرقاً .

فتلك الاراضي الواسعة قد زادت الولاية شأناً ، واعطتها مزيتين حسنتين ، هما الموقع والخصب . فسهول عكا ، ومرجعيون ، وصور ، والحولة ، والبقاع الاسفل ، اشتهرت بجودة تربتها ؛ فاذا ما يزرع فيها من شعير ، وذرة ، وقطن ، وسمسم ، يعطي عشرين او خمسة وعشرين ضعفاً . واراضي قيصرية فلسطين فيها غابة من شجر البلوط لا مثيل لها في سورية باسرها . واراضي صفد بنبت

فيها قطن يحاكي قطن جزيرة قبرص ، وما يزرع من التبغ في الاراضي الجبلية التي في جوار صور يضارع بجودته تبغ اللاذقية ، بل هنالك بقعة يُجنى منها صنف به رائحة عطرية كرائحة القرنفل يبعثون به الى القصر السلطاني في الاستانة . ويتوافر في بلاد الدروز العنب والحرير .

وتُعدّ هذه الولاية ثغراً لدمشق وسائر سورية ، بفضل موقعها على الساحل وكثرة خلجانها .

والوالي حاكم مطلق السلطة ، ومحترم جداً ؛ فهو يدفع سنوياً الى الباب العالي مبلغاً ثابتاً قدره سبعمئة وعشرون كيساً . وفضلاً عن ذلك ، فعليه ان يمون قافلة الحجاج ، على غرار زميله والي طرابلس ، فيقدما للقافلة من الارز والقمح والشعير ما يساوي مئة وخمسين كيساً . والالتزام مدته سنة واحدة يمكن تجديدها . واما دخله فهو : اولاً الجزية او ضريبة الارض . — ثانياً الاموال المفروضة على الدروز والموارنة والمتاولة وبعض عشائر العرب . — ثالثاً المال الجزيل الذي يدخل عليه من التركات ومن طريق الاتاوى والمغارم . — رابعاً المكوس التي تحصل بدل الرسوم من جميع الموانئ والخلجان الف كيس .

ومما كان يأتيه ايضاً من الارباح الطائلة باستغلاله الاراضي الواسعة ، وتسليفه التجار والفلاحين المال بالربا ؛ فما يجنيه من ذلك يربو على ثمانية ملايين قرش .

ولأولياء الامر في الاستانة خطة لا يحيدون عنها ، وهي جعل المال المفروض على الملتزم ثابتاً ، اي تركه بلا زيادة ولا نقصان ، مهما كثرت الارباح ، ولاجل ذلك تدعونه يجمع المال بأمان واطمئنان ، حتى اذا جاءت الساعة توصلوا ببعض الحجج الى الاتيان اما برأسه او بصندوق ماله

فالباب العالي يخشى من الجزار نظراً الى خدمه ؛ فهو الذي مهد السبيل الى

القضاء على الشيخ ظاهر العمر واولاده ، وقمع عرب قبائل صخر ، وخفض جناح الدروز ، وكسر شوكة المتاولة . فلاجل ذلك احرز له الانعامات ، ومنحه رتبة «باشا» ولقب «وزير» . ولكن الباب العالي ما لبث ان داخله الارتياب من مطامعه الطامحة ، فنشأ في كليهما شعور دفين من تضعضع الثقة ، كما حمل الجزار على اتخاذ الحيطة لنفسه ، فجعل يجمع الجنود ، باذلاً جهده لجعل معظم افراد جيشه من مواطنيه الشراكسة والارناؤوط ، حتى اصبح عددهم تسعة آلاف فارس ، ذلك علاوة على الالف مغربي الذين كانوا تحت يده . وكان له بحراً اربع سفن حربية عدا عدد من صغار حربية عاطلة .

فتلك الاحتياطات التي تظاهر باتخاذها اتقاء الاعداء ، جعلته في مأمن من المداهمات . لكن الباب لم يبق مكتوف اليدين ، بل كان يرسل اليه «القبوجيين» ، عهد اليهم في اغتياله وجزاره . لكنه لم يكن غافلاً عن هؤلاء المندوبين ، فكان يراقبهم مراقبة شديدة منذ ساعة وصولهم . فالجزار الذي اورد اثنين او ثلاثة منهم حتفهم ، القى رهبة عجيبة في الاقدام على اغتياله .

وكان له في ديوان الاستانة ، وفي القصر السلطاني ذاته محاسيب واصدقاء ، يجزل لهم الهدايا والعطايا ، فهم الذين توصلوا بعدئذ الى حمل اولياء الشأن على اسناد ولاية دمشق اليه . وذلك ما كان هو يرغب فيه ، لان ولاية دمشق اعظم ولايات سورية قاطبة . وقد تخلى عندئذ عن ولاية عكا لمملوك يدعى سليماً كان غلاماً له . لكنه كان يعد نفسه صاحب الولايتين ، اذ سليم كان اطوع له من بنانه .

واما الاماكن الجديرة بالذكر في هذه الولاية ، ففي مقدمتها بيروت القائمة على نقطة تبدأ عند سفح الجبل ، داخلة في البحر على شكل قرن طوله

فرسخان . والزاوية الجوفاء التي يحدثها هذا القرن ، يصب فيها نهر بيروت او نهر الصليب الذي يفيض في فصل الشتاء ، وعلى هذا النهر جسر كبير خرب يصعب عبوره .

وكانت بيروت في حوزة الدروز ، ثم انتزعها منهم الجزار . بيد انها ظلت المنفذ الذي يترددون اليه ، لانهم منها يشحنون قطنهم وحريرهم المعدّ معظمه لمدينة القاهرة ، فيأتيهم بدلاً منهما البن وارز الدلتا يقايضون عليهما بحنطة البقاع وحوران . وفي بيروت من السكان ستة آلاف نسمة .

ومرفؤها رصيف كالمرافئ الأخرى التي على هذا الساحل ، وقد تراكمت فيه الانقاض والرمال . ويحيط بها سور مبني بحجارة رملية رخوة تخترقها القنابل من غير ان تحطمها . مع انه لا مناعة لسورها ولا لأبراجها القديمة ، والتلال المشرفة عليها ، وافتقارها الى الماء يجعلانها تعجز عن صد المغيرين عليها .

وتَرِد سكانها مياهاً نائية ، ماؤها قليل العذوبة . وقد حاول الجزار اقامة سبيل فيها كالذي شيده في عكا ، والحفر التي حفروها لبناء الصهاريج ، كشفت من اطلال المدينة القديمة التي بعض انقاضها واعمدتها ترى وراء السور .

والبساتين التي بجوارها توتها اقوى واحدث من التوت الذي في اراضي طرابلس ، لان اصحاب تلك البساتين كانوا في اثناء حكم الدروز يستطيعون نصب اشجار جديدة كلما دعت الضرورة ، فلا يعارضهم احد ؛ لاجل ذلك يمتاز الحرير المجنى منها بجودته .

وبيروت حرها شديد ، وماؤها ساخن ، لكنّ هواءها طيب ، ومما يزيد طيبه ويجعله جيداً قب ، شجر الصنوبر الكثير الذي غرسه الامير فخر الدين على مسافة فرسخ منها . وبعض هذا الامر قد اكده لي رهبان دير

الشوير ، وقالوا له ايضاً قد كثرت مياه الينابيع وازدادت عذوبة منذ ما انتشرت غابات الصنوبر على قمم لبنان، وهو لعمري قول صادق قد أيدته الحقائق.

ان الاماكن التي تستدعي النظر في جبل الدروز هي بعيدة ، فاهمها دير القمر موطن الامراء . وهي ليست عذبة ، بل هي قرية منازلها مبنية بالحجر ، تقع خلف جبل يجري عند سفحه نهر الدامور اي « تمراس » القديم ، وسكانها دروز وموارنة وروم من ارثوذكس وكاثوليك ، عددهم نحواً الف و ٨ مئة . وقصر الامير ليس سوى بيت كبير ، بناؤه سيء ، وجدره متداعية .

ومما يجدر ايضاً ذكره زحلة القرية الواقعة في وادي البقاع على سفوح الجبال واكنافها . وقد صارت في اواسط القرن الثامن عشر عقدة الاتصال ما بين بعلبك ودمشق وبيروت ولبنان . والمشهور عنها ان نقوداً مزيفة تضرب فيها .

وبلاد الدروز عدة مقاطعات ، لكل واحدة منها حاصلها الخاص الذي يميزها عن غيرها : فمقاطعة المتن كثيرة الصخور والحصى والحديد ، ومقاطعة الغرب تنبت فيها احسن اشجار الصنوبر ، ومقاطعة الساحل تكثر فيها الكروم واشجار التوت ، ومقاطعة الشوف مشهورة بجودة حريرها ، وتكثر شجر التبغ في المقاطعة المكناة باسمه ، ومقاطعة الشقيف تعطي افضل اصناف التبغ . ويسمون حروداً اعلى واشد تقع في الجبال ، وهناك يسرح الرعاة قطعانهم في فصل الصيف .

وكان الدروز قد رضوا بان يقطن بين ظهرانيهم المسيحيون من روم وموارنة ، فاقطعوهم ما يحتاجون اليه من الاراضي لاقامة اديرة عليها . وهكذا تسنى للروم الكاثوليك ان يشيدوا هناك اثني عشر ديراً في اوائل القرن الثامن عشر .

واول تلك الاديرة دير مار يوحنا الصابغ الذي يقع تجاه قرية الشوير ،

على سفح صخر يجري في اسفله شتاءً سيل يصب في نهر الكلب . وقد بني هذا الصرح بهندسة لا زخارف فيها ولا جمال ، في وسط الصخور العظيمة المنهارة من الجبل ، وهو يشبه مرقداً له مدخل من الحجارة الصغيرة يعلوها سطح معقود عقداً متيناً . ويقيم فيه اربعون راهباً . ومزيته الكبرى احتواؤه على مطبعة عربية وهي الوحيدة التي تحدث في البلاد الشرقية . ولا نطيل على القارئ بأن نعرض لاتمام تاريخها .

وان الآباء اليسوعيين شرعوا منذ بدء القرن الثامن عشر ينشرون العلوم في ديرهم بحلب ، بنشاطهم وعنايتهم المعهودة ، فانشأوا في تلك المدينة مدرسة لتربية الاولاد المسيحيين ، وتلقينهم قواعد الدين ، وتدريبهم من الصغر ، كما هو دأب المرسلين الاول ، ومنعهم من ذلك بين شدد الى المناقشات التي تثير الخصام والجدال ما بين المنتمين الى شتى المذاهب الشرقية .

فالمنطق ركن الحجة ، وهو علم يفرض على من يروم الاخذ به ان يكون ملماً الالمام التام باصول اللغة ، وبما ان المسيحيين كانوا لا يعرفون سوى اللغة العامية لايصاد ابواب المدارس العربية في وجوههم ، لم يكن في وسعهم الاقدام على المناظرة كتابة ، الى ان توصل نفر منهم الى الاخذ عن بعض العلماء قواعد الصرف والنحو .

وقد امتاز من بين هؤلاء المسيحيين بنبوغه وتضلعه من اللغة العربية المدعو عبدالله زاخر ، فاخذ ينشر بغيرة لا تعرف الملل عقائده وآراءه . وليس في وسعنا ان نعلم بدقة مدى التأثير الذي كان يحدثه نشاطه في استمالة الناس الى آرائه في حلب ، اذ طرأ فجأة حادث من الحوادث التي تعد عادية في تلك البلاد ، فغير مجرى الامور .

فخصومه قد غاظهم نجاحه عليهم فسعوا في الاستانة لهلاكه ، وتوصلوا الى

الحصول على خط شريف بضرب عنقه ، وكان من حسن حظه انه شعر بالدسيسة ففرّ هارباً الى لبنان حيث لم يكن خطر على حياته .

ففارق عبدالله حلب ، ولكن افكاره الرامية الى التجديد لم تفارقه ، فعزم عزماً صادقاً على نشر آرائه كتابة بدلاً مما يظل مخطوطاً منها ، فانه بدا له غير واف بالمرام ، ولانه كان يقدر فوائد الطباعة ، فقدم على تنفيذ ثلاثة مشاريع في آن واحد وهي التأليف ، وصب الحروف ، والطباعة . وقد تسنى له بلوغ مرامه بفضل عبقريته وثروته واتقانه فن الحفر الذي مارسه اذ كان يتعاطى مهنة الصياغة

وكانت الحاجة تدعو الى شريك ، فساعده الحظ على وجود ذلك الشريك، فاستعان به على حمل ما كان يصعب عليه ، واتى به الذي كان رئيس دير مار يوحنا الشوير ، فأشار عليه بالسكن في ذات الدير . ومنذ تلك الساعة غدت مشاريعه شغله الشاغل ، الى ان تمكن في سنة ١٧٣٣ من نشر مزامير داود في مجلد واحد فاقبل الناس على شراء كتابه حتى خصومه انفسهم ، لما رأوا فيه من جمال الحروف واتقانها . ومنذ ذلك الحين اعيد طبع الكتاب عشر مرات .

وقد حاول عدة صب حروف ، ولكنهم لم يستطيعوا التفوق عليه ، اذ الحروف التي صبها كانت تمثل الكتابة تمثيلاً تاماً . فكانت ملأى حيث يجب ان تكون ملأى ، ودقيقة حيث يجب ان تكون دقيقة . وذلك بعكس الحروف العربية التي كانوا يصنعونها قبلاً في اوربة متماسكة دقيقة .

فقضى عشرين سنة وهو يقوم بطبع المؤلفات المتنوعة التي كان معظمها مترجماً عن الكتب الغربية ، انه لم يكن يعرف اللغات الاوربية ، الا ان الآباء اليسوعيين نقلوا الى العربية كتباً عديدة . ومع ان المامهم باللغة العربية لم يكن كاملاً فاعاد تعريبهم مستنداً بلغة هي مثال المتانة والطلاوة .

وكان فيه سيالاً ، متنوع الاساليب ، صريحاً ، خالياً من الحشو ، فادحش الجميع ، دالاً بذلك على ان اللغة العربية تلائم ملاءمة موفقة اي موضوع اريد طرقه وشرحه .

وقد توفي عبدالله سنة ١٧٤٨ ، فخلفه تلميذه ، فرهبان الدير انفسهم ، مواصلين بعده عمل الطباعة وصف الحروف . غير ان المطبعة وقفت بعدئذٍ حالها حتى امست مهددة بالزوال ، لان ما كان يباع من الكتب يسير ما عدا كتاب المزامير الذي جعله المسيحيون كتاب اولادهم المدرسي . فرواجه هو الذي دعا الى اعادة طبعه مراراً .

بيد ان النفقات كانت باهظة ، لان الورق يجب جلبه من اوربة . ثم ان اليد العاملة بطيئة جداً ؛ فمشكلة الورق يمكن معالجتها بشيء من الفن ؛ واما بطء العمل فمن المتعذر وجود حل له ، لان الحروف العربية تتطلب ربط بعضها ببعض ، لان شكلها يختلف على نحو ما تكون في بدء الكلمة ، او في وسطها ، او في طرفها . فدعت الضرورة الى صب الحروف العديدة المزدوجة والى جعل منضدة الحروف ذات عيون كثيرة العدد ، لا تستطيع يد الناضد الوصول اليها بسهولة ؛ فيضطر الناضد الى اخرى ذهاباً واياباً امام المنضدة التي يبلغ طولها ثماني عشرة قدماً ، باحثاً عن حروفه في ما يقارب تسعمائة عين مما يؤدي الى ضياع وقت طويل . ومن هذا الامر يجعل من المتعذر على الطابعين العرب بلوغ درجة الاتقان التي ادركها الطابعون في اوربة .

واما كساد الكتب فالباعث عليه عدم انتقاء الملائم منها ؛ فبدلاً من تعريب الكتب ذات الفائدة العامة التي من شأنها ايقاظ حب الفنون في جميع العرب بلا تمييز ، فانهم لم يعربوا الا كتب العبادة التي تلائم المسيحيين وحدهم . فهاك جدول الكتب التي طبعت في دير مار يوحنا الشوير في جبل الدروز :

١ً ميزان الزمان للاب بيرمبرغ اليسوعي – ٢ً اباطيل العالم للاب ديدراكو اليسوعي – ٣ً مرشد الخاطئ للاب لويس دي غرناد اليسوعي – ٤ً مرشد الكاهن ٥ً قوت النفس – ٦ً مرشد المسيحيين – ٧ً التأمل الاسبوعي – ٨ً التعليم المسيحي – ٩ً تعبير السمات ١٠ً مزامير داود مترجماً عن اليونانية – ١١ً النبوات – ١٢ً الاناجيل والرسائل – ١٣ً الربيعيات تأليف رودريكاز .

وهذه هي المخطوطات المحفوظة في الدير .

١ً الاقتداء بالمسيح – ٢ً بستان الرهبان – ٣ً علم الهيئة تأليف بوزاموم ٤ً مواعظ سنيري – ٧ً قواعد النواميس لكلود فرنتير * ٨ً مجادلات الانبا جرجي – ٩ً المنطق ترجمه من اللاتينية احد افراد الصنعة المارونية – ١٠ً ردود الاناب ابولس الارميري اليهودي الاصل المرتد الى المسيحية – * ١١ً المطالب والمباحث لمطران جرمانوس فرحات – * ١٢ً ديوان الخوري نقولا ابن ام عبدالله زاهر – ١٣ً مختصر القاموس .

جميع هذه الكتب خطها المسيحيون ، والمسروق منها بنعمة الحث بالامة العربية . اما الكتب الآتي بيانها فألفها المسلمون :

١ً القرآن – ٢ً قاموس الفيروزابادي – ٣ً الفية ابن مالك – ٤ً تعبير الف بيت – ٥ً الاجرومية – ٦ً التفتازاني – ٧ً مقامات الحريري – ٨ً ديوان عمر بن الفارض – ٩ً فقه اللغة – ١٠ً الطب لابن سينا – ١١ً المفردات ترجمة ابن البيطار – ١٢ً دعوات الاطباء – ١٣ً عبارات المتكلمين – ١٤ التدبير الوحيد – ١٥ً تاريخ اليهود ليوسيفوس (ترجمة سيئة) . وايضاً كتب في علم الفلك ، وكتب اخرى لا فائدة منها .

تلك هي مجموعة خزانة دير مار يوحنا ، ومنها يمكن ان نعرف مستوى

الشائعة في جميع الجماعات السورية ، حيث لا يوجد سوى هذه القراءة وقراءة الجرار
ولم يكن بين مخطوطاتنا ما هو جدير بالترجمة من حيث مضمونه ، حتى ان مقامات الحريري لا تحجبها عن الأذهان حيث نفسها ، وليس بين الرهبان من يستطيع فهمها سوى راهب واحد ، كما ان باقي المخطوطات يتعذر فهمها على معظم الرهبان .

وفي نظام هذا الدير واخلاق سكانه شيء من الغرابة يجدر بنا ذكره . قانون رهبانيتهم هو قانون القديس باسيليوس الذي معرفته عند الشرقيين تعادل معرفة القديس بندكتوس عند الغربيين ، غير انهم قد ادخلوا على قانونهم بعض التعديل لجعله ملائماً حاجاتهم . وقد رفعوه في اواسط القرن الثامن عشر الى الحبر الاعظم ، فوافق عليه .

وفي استطاعتهم ان يبرزوا نذورهم ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمرهم ، اذ واضعو القوانين الرهبانية قد توخوا التأخر في دعوة الذين يستقبلونهم منذ حداثتهم لكي يعلموهم خصيصاً طريقتهم . وتلك النذور لا تختلف عما هي عليه في اي مكان آخر ، فهي الفقر والطاعة والتضحية والعفة ، غير انهم يحافظون عليها في هذه البلاد اكثر مما يحافظون عليها في اوروبة .

وحالة رهبان الشرق هي اجمالاً اصعب من حالة الرهبان الغربيين ، كما تدل على ذلك طريقة معيشتهم ، فانهم يقضون في اليوم الواحد سبع ساعات في الصلاة من غير ان يُعفى منها احد . وينهضون في الساعة الرابعة صباحاً ، ويرقدون في الساعة التاسعة مساء ، ولا يأكلون في يومهم الا اكلتين ، الواحدة في الساعة التاسعة ، والاخرى في الساعة الخامسة . وينقطعون دوماً من أكل الزفر ، حتى انهم لا يأكلون اللحم في امراضهم الكبرى . ويصومون كباقي الروم ثلاثة صيامات كبيرة في السنة . وهنالك عدة صيامات اخرى لا يأكلون

في حلاله بيضاً وخلبا ولا جبناً ويشترون الخاص للاكل من السنة على العدس المدروش ما تزبت وعلى خبز والارز المطبوخ في السمن ، وعلى قليل والزيتون ، وشيء من السمك المقدد . ويأكلون لحماً مرة كل شهر ، اي الاحتفال بجميع ثاني يوم عيد ، مع انهم لا يحرمون الامر في الاسبوع . ثم يزعمون ان مثل هذه الاغذية يتحصنون من الامراض التي تعتري الفلاحين .

ولكل واحد منهم حجرة صغيرة ليس فيها من الريش سوى حصيرة وفراش وغطاء . وليسوا في حاجة الى اكثر من ذلك لانهم ينامون وثيابهم عليهم . واما لباسهم فهو قميص غليظ ، وسروال وقميص داخلي وقباء من الصوف الخشن الذي لا يغير لونه وقصارته . ثم يدعون شعر رؤوسهم يطول حتى يبلغ ثماني اصابع ، على حسب ذلك عادة السكان . ويلبسون قلنسوة من اللباد كالتي يتخذها فرسان الاتراك طولها عشر اصابع .

وكل منهم ما عدا الرئيس ونائبه ووكيل الخرج ، يتعاطى مهنة من المهن اللازمة والمفيدة للدير ، فمنهم الحائك ، والخياط ، وصانع الاحذية ، والنجار ، والحداد ، واربعة يقومون بأشغال مطبخه ، وخمسة يتعاطون الكتابة . وهؤلاء يشتغلون في العجن يوم الخبز .

ونفقات هؤلاء الاربعين او الخمسة والاربعين لا تزيد على اثني عشر كيسا في السنة ، اي ما يساوي ستة آلاف قرش ، مع ان في ذلك نصف ايراد الدير كثيراً ما تعود زيارتهم على الدير بالفائدة ، اذ اعطاهم معونة مال او الهبات التي تؤلف قسماً من دخله . واما الجانب الآخر فانه يتحصل من ريع الاراضي التي اكتراها الرهبان ، ويقدر باربع مئة قرش في السنة .

وتلك الاراضي قد تعرفها الرهبان الاولون ، واما الآن فانهم يحرثونها ويزرعونها بقربهم والاخرون يحصدون للدير نصف محصولها ، وهو خليط الابيض والاصفر

الذي يبيعونه في بيروت ، وبعض الحبوب ، والخمر التي لا سوق لها هنالك ، فيهدونها الى الحبشيين الى الدير ، او يشربونها هم . وكان الرهبان فيما مضى يمتنعون عن شربها . ولكن انقياداً لما يطرأ عادة من التحويل والتبديل على اي جمعية كانت ، قد خف الرهبان من علومهم الاول ، كما انهم بدأوا يتساهلون في تدخين التبغ ، وشرب القهوة ، غير ملتفتين الى احتجاج الرهبان القدماء الحريصين على صيانة التقاليد التي تقيدوا بها منذ حداثتهم .

ان دائرة هذا النظام تضم الديورة الاثني عشر الخاصة بتلك الرهبانية التي عدد افرادها نحو مئة وخمسين . ويجب ان نضيف اليها خمسة ديورة للراهبات . فان الرؤساء الاولين ظنوا انهم صنعوا حسناً بشأنها . وقد اسف الرهبان بعدئذ على ما فعله اسلافهم ، اذ وجود راهبات في هذه البلاد لا يخلو من الخطر . ثم انهن ينفقن اكثر من دخلهن . بيد ان الرهبان لا يجرؤون على تسريحهن ، لانهن ينتمين الى اغنى الاسر في دمشق وحلب والقاهرة وتلك الاسر ترسل بناتهن الى تلك الديورة ومعهن مهورهن .

وكثيرون يهبون الدير كل سنة مئة قرش ، حتى مئة ليرة ذهباً او الف ريال ، ولا يبغون عوض ذلك سوى الصلاة على نيتهم لكي يبعد الله عنهم طمع الحكام ، مع ان ذلك لا يمنع الحكام من اكراههم على استنفاد نقودهم بالمال اذا ما رأوا افراطهم في اللباس الانيق والرياش الفاخر . وقد روي ان احدهم بنى في دمشق داراً نفقت نفقاتها مئة وعشرين الف قرش . فما علم بها الحاكم بعث اليه يقول : ارغب في ان اراها واشرب القهوة عندك . ولكن ما ان الحاكم اعجب بها وبه لم يرحل عنها الا بعدما دفع اليه صاحبها عشرة آلاف ريال .

ومن الديارات الاكثر شهرة دير المخلص المقام على بقعة تبعد مسير ثلاث

ساعات عن صيدا شمالاً لشرق . وكان رهبانه قد جمعوا فيه كثيراً من الكتب العربية من مطبوعة ومخطوطة . غير ان عساكر الجزار أتلفوا بعضها ، وبدّدوا البعض الآخر عندما شنّوا الغارة على هذا الصقع واقتحموا الدير .

وصيدا الآنفة الذكر هي صورة صيدون قديمة ، لكنها صورة لا تطابق الاصل . وكانت فيما مضى مقر الباشا الحاكم ؛ وهي كسائر المدن الشرقية سيئة البناء ، وملأى اوساخاً ؛ وتشغل على شاطئ البحر بقعة من الارض طولها نحو ستمئة قدم بعرض مئة وخمسين . وفي طرفها الى الجنوب حيث تعلو قليلاً ، اقام دنكرلي الذي مرّ بنا ذكره حصناً يشرف على البحر والبر والمدينة .

وفي طرف المدينة الآخر ، شمالاً بغرب ، قلعة مشيّدة في وسط البحر تبعد ثمانين قدماً عن البر المتصلة به باقواس . والى جانبها مرّ صخرة بارزة فوق الماء طولها ستمئة قدم ؛ فترسو السفن في المسافة التي ما بين الصخرة والقلعة . فذلك هو المرفأ ، لكنه مرفأ لا يقي السفن الارياح اذا هبت ، والعواصف اذا ثارت . وعلى الشاطئ بازاء المدينة حوض محوّط برصيف خرب ؛ فذلك كان المرفأ فيما مضى ، لكن الرمل تراكمت فيه ، فلم تعد المراكب تستطيع دخوله .

هو الامير فخر الدين الذي اقدم على ردم جميع تلك المرافئ الصغيرة ، لانه كان يخشى السفن التركية ؛ لاجل ذلك ، اغرق فيها مراكب وردمها بحجارة ؛ فلو نُظّف هذا الحوض ، وازيل منه الردم ، لاستوعب خمسة وعشرين مركباً .

ما من سور يصون المدينة من جهة البحر ، ولا يكتنفها من جهة البر الا حائط السجن . ثم ان مدافعها الست التي في قلعتها ، لا « قنادق » او قواعد لها ، وليس هنالك من يعرف طريقة استعمالها . وعدد رجال حامية المدينة

اقل من مئة . ويأتيها الماء في مجارٍ مكشوفة تردها النساء ، ومنها ترتوي بساتين التوت وحدائق الليمون .

والتجارة هناك لا بأس فيها ، لان المدينة هي البندر الاول لدمشق والبلاد الداخلية . والاجانب المقيمون فيها جميعهم فرنسيون ، لهم فيها قنصل وخمس او ست وكالات ؛ فيتاجرون بالحرير والقطن المغزول او الغير المغزول . وغزل القطن اهم الصنائع التي يتعاطاها سكان صيدا البالغ عددهم نحو خمسة آلاف .

وبعد مسير ستة فراسخ الى الجنوب بموازاة البحر، يصل المسافر الى قرية (*) صور التي كانت في سالف العصور محور تجارة وملاحة عالميتين ، ومهد العلوم والفنون ، وموطن اشهر وانشط شعب مشى على وجه البسيطة . وهي تقع على بقعة شبه جزيرة متوغلة في البحر على شكل مطرقة ، رأسها صخر تكسوه تربة حمراء تصلح للزراعة ، مكونة سهلاً صغيراً طوله ثماني مئة قدم ، وعرضه اربع مئة . والبرزخ الذي يصل السهل بالبر ، مكون من رمال البحر . والفرق ما بين السهل والبرزخ يجعلنا نتصور ما كانت عليه الجزيرة البيضوية الشكل قبل ان يصلها الاسكندر بالساحل بواسطة رصيف ، فالبحر بقذفه الرمال على الرصيف جعله على شكله الراهن .

والقرية ذاتها قائمة على الوصلة التي ما بين البرزخ والجزيرة ، غير شاغلة منها سوى ثلثها . فالطرف البارز من الارض جنوباً فيه حوض ، وهو الذي كان في الاصل المرفأ ، قد تراكمت فيه الرمال حتى صار الاحداث يعبرونه من غير ان تبتل احقاؤهم . وعند مدخله برجان متقابلان ، كانوا يعلقون بهما سلسلة

(*) كان سكانها على زمان « فولني » لا يزيد عددهم على خمسين او ستين اسرة لذلك نراه يدعوها « قرية » .

طولها عشرون او ستون قدماً ليمنعوا المراكب من دخوله ، وكان يمتد منها جدار بطول الحوض من جهة البحر ، ويحدق من ثم بالجزيرة كلها ؛ ولم يبق الآن منه سوى اساسه الممتد على الشاطئ الى نقطة قريبة من المرفأ حيث قام المتاولة في العقد السابع للقرن الثامن عشر ببعض الترميمات التي اخذت الآن تنهار .

وفي وسط البحر على مسافة ثلاث مئة قدم من الطرف البارز الآنف ذكره ، يُرى شمالاً نغرب صف من الصخور . ففي الفرجة التي بينها وبين الشاطئ ، تجد السفن ملجأ يحصل على مرفإ صغير ، ولو انها لا تكون فيه بأمن من الاخطار ، لان الريح الشمالية تعصف هناك بشدة ، كما ان قعر البحر يُتلف حبال المراسي .

واذا دخلنا الجزيرة المشار اليها ، رأينا ان القرويين تركوا جانباً منها فضاء ، وهو المطل على البحر من الشمال ، فقد جعلوه بستاناً ، لكن اعتناءهم به ضئيل . ويقيم في هذه القرية عشرون او ستون اسرة يتعاطى افرادها الملاحة وصيد الاسماك . وشتان ما بين اكواخهم الحقيرة المتداعية والبيوت ذات الطبقات الثلاث التي كانت هنالك في عصر « سترابون » .

وكانت القرية معرَّضة للغارات . والمتاولة الذين استولوا عليها في سنة ١٧٦٦ احاطوها بسور علوه عشرون قدماً . ومما يسترعي الانتباه كنيسة لم يبقَ منها سوى الخورس ، وهي من آثار الصليبيين . وعلى مقربة منها ، في وسط كوم من الحجارة عمودان جميلان من الصوان الاحمر النادر الوجود في سورية . والجزار الذي اخذ من هذه الاماكن ، كل ما فيها ، ليزين به الجامع الذي بناه في عكا ، رغب في نقلهما . غير ان رجاله لم يستطيعوا زحزحتهما من مكانهما .

وعلى مسافة مئة قدم من باب القرية ، برج خرب فيه بئر تردها النساء ، عمقها نحو خمس عشرة قدماً . على ان الماء فيه لا يزيد ارتفاعه على قدمين او ثلاث اقدام ، وليس افضل منه في سائر انحاء ذلك الساحل . ومن الغريب انه يتعكر في شهر ايلول ، ويظل بضعة ايام احمر من كثرة التراب الاحمر الممزوج به ، فيحتفل القرويون بالحادث احتفالاً رائعاً ، فيأتون البئر ، ويلقون فيها دلواً من ماء البحر ، زاعمين انه يروّق ماءها

واذا تابعنا سيرنا على الجدول ، متجهين نحو البر ، رأينا بين مسافة ومسافة اقواساً متهدمة تتتابع في خط مستقيم حتى تل طبيعي وهو الوحيد في ذلك السهل ، ومكوّن من صخرة طول دائرها نحو مئة وخمسين قدماً ، ليس عليها سوى بيت واحد خرب ومقام لاحد الاولياء تعلوه قبة بيضاء . والمسافة التي ما بين الصخرة وقرية صور يقطعها الفارس في ربع ساعة من الزمان . وكلما دنا المسافر من الصخرة توالت امامه الاقواس التي اشرنا اليها فيتضاءل عددها شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطاً متتابعاً ، ينعطف فجأة الى الجنوب على شكل زاوية قائمة ، ثم يسير بانحراف في وسط الحقول الى ان يصل الى البحر . وتلك المسافة يقطعها الخيّال في ساعة من الزمن .

واما الغاية من تلك الاقواس فهي حمل الماء المنصب الذي عليها والذي عرضه ثلاث اقدام وعمقه قدمان ونصف القدم ، وهو مبني بملاط اصلب من الحجر ، ويتصل آخره بآبار يدعوها بعض الرحالة « آبار سليمان » ويدعوها القرويون « رأس العين » احداها كبيرة ، واثنتان اصغر منها ، وعلى مقربة عدة آبار أُخر صغيرة ، مكونة جميعها كتلة من البناء المشيّد بحصى البحر والملاط ارتفاعه ثماني عشرة قدماً في الجنوب ، وخمس عشرة في الشمال بانحدار خفيف الميل عريضه ، تصعد المركبة عليه بسهولة حتى قمته ، التي اذا ما بلغ اليها المرء ، رأى منظراً مدهشاً

رأى الماء بدلاً من ان يكون منخفضاً عن الارض او مساوياً لها ، يرتفع أعلى من سطح المكان ، اي ان الماء الذي يملأ البئر أعلى من الارض بخمس عشرة قدماً ؛ وهو ليس هادئاً ، بل يشبه سيلاً فائراً مدهشاً ، فيصعد الى المنافذ التي على سطح البئر ، وهو غزير كاف لادارة ارحاء الثلاثة الطواحين الواقعة على مقربة ؛ وينزل من ثم غديراً يصب في البحر على مسافة اربعمئة قدم

وفوهة البئر المكورة مثمنة الزوايا طول كل منها ثلاث وعشرون قدماً وثلاث اصابع ؛ وقطر الفوهة ، هو اذاً احدى وستون قدماً ؛ ويزعمون ان هذه البئر لا قرار لها ، بيد ان الرحالة « لاروك » روى انهم وجدوا عمقها في زمانه ستة وثلاثين باعاً .

وكما بدت النظر ان دوران الماء قرض جانب البئر الداخلي الذي صار شبه نصف قوس معقود فوق الماء .

واكبر واحد من المجاري المشعبة هنالك يتصل بشعب الاقواس المشار اليها ، وكان الماء ينحدر منه قديماً الى البحيرة العرج من طريق الجسر ، وهو الجسر الذي ترد النساء بئره .

والسهل عرضه فرسخان ، تحف به تلال عالية ، تتوالى من القاسمية حتى الرأس الابيض ، وهو ذو تربة جيدة سوداء .

ومدينة عكا المشهورة في قديم الزمان باسم « بتولمايس » لا تبعد عن صور سوى تسعة فراسخ ؛ وهي تقع في الزاوية الشمالية لخليج ممتد حتى الطرف البارز من جبل الكرمل .

ومنذ ما رحل الصليبيون عنها تضاءل شأنها ، وقلّ عدد سكانها على ان الترميمات والاعمال العمرانية التي اجراها فيها الشيخ ظاهر العمر اعاد الحياة اليها ، وقد جعلها الجزار من بعده اعظم مدائن الساحل ؛ فبنى فيها جامعاً جميلاً ،

وسوقاً مسقوفة لا تقل شأناً عن سوق حلب ذاتها . ومما يجب ذكره عن الجزار بالثناء انه وضع هو نفسه تصميم تلك البنايات ، فكان يدرس مشروعها ويرسم خططها ، ويشرف على بنائها .

ومرفأ عكا هو من حيث موقعه احسن مرافئ ذلك الساحل . والمدينة ذاتها تقيه شر الارياح الشمالية . غير انه ظل مردوماً منذ عهد الامير فخر الدين ، ولم يحدث فيه الجزار بعدئذ سوى موردة .

والحصن الذي صار لا فائدة منه . ولو انه متين به اكثر من سائر الحصون الاخرى ؛ وليس فيه سوى ابراج لا خير فيها ، ركبوا فيها مدافع ، لكنها صدئة رديئة ، ان أُطلقت انفجرت . والسور الذي من جهة البر ان هو الا جدار ، لا خندق له ، فهو يماثل اسوار الحدائق والبساتين .

وسهل عكا اكثر اخصاباً واقل مرضاً من سهل صور ، تحدق به تلال تتتابع من الرأس الابيض حتى الكرمل . ومنخفضاته تحملها مياه الامطار التي تتجمع فيها ، مناقع خطرة ، تتصاعد منها في فصل الصيف الابخرة النتنة . واما تربته فهي تصلح لزراعة القمح والقطن ، وهما اساس تجارة عكا .

وقد اتبع الجزار اسلوباً راجحاً في الشرق ، هو احتكار التجارة فما من احد يستطيع بيع او شراء القطن سواه . وعبثاً حاول التجار الاوربيون الاحتجاج على ذلك باستنادهم الى الامتيازات التي منحهم اياها السلطان ، فكان يجيبهم : انا السلطان في بلادي . لذلك لم يبالِ بهم . وهؤلاء التجار معظمهم فرنسيون ، لهم في عكا قنصل وست وكالات .

والجانب من خليج عكا حيث ترسو السفن يقع الى شمال جبل الكرمل عند اسفل المدينة حيفا . وقعره تثبت فيه المراسي من غير ان تنصرم حبالها . لكن المكان معرّض للريح الشمالية . وجبل الكرمل الذي يشرف على ما حوله ،

له ظهر مسطح صخري ، يُرى عليه الى جنب العوسج ، الزيتون والكرمة البرية مما يدل على ان الزراعة امتدت في سالف الزمان الى هذا المكان . وعلى قنته معبد مكرس لايليا النبي . والى الجنوب سلسلة صخرية ، ينمو على ذراها البطم والصنوبر ، ويجتلب اليها السمر والحلوف .

وعلى مسافة ستة فراسخ بلدة الناصرة ذات الشهرة العالية ، سكانها ثلثهم مسلمون ، والثلثان مسيحيون . وللآباء الفرنسيسيين فيها دير ومعبد وهم عادة ملتزمو البلدة .

وجبل الطور او طابور الذي يبعد فرسخين عن الناصرة ، له شكل مخروط مبتور الرأس . وكان عليه قلاع لم يبقَ منها الا واحدة خربة . ومن اعلاه يمتد النظر الى جبال وأودية تتتابع جنوباً حتى بيت المقدس . ويُطل الناظر من عليه الى وادي الاردن وبحيرة طبرية ، التي حوضها مكوَّن من فوهة بركان يقذف بعد سطحه .

لا شيء مما على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا خليق بالذكر فيما عدا المدينة المكناة باسم البحيرة نفسها ، وعين الماء الحارّ التي تقع على بعد فرسخ منها . وقد تراكم فيها وحل اسود ، وهو دواء نافع في الامراض العصبية واما المدينة فليست سوى كوم انقاض تقيم فيها نحو مئة اسرة .

وعلى مسافة سبعة فراسخ من البحيرة نحو الشمال ، قرية صفد الواقعة على سطح جبل . وتعدّ صفد مهدُ السلطة التي توصل الى احرازها الشيخ ظاهر العمر . وكان فيها معهد لتعليم الصرف والنحو والفقه وتفسير القرآن . واليهود الذين يعتقدون ان مسيحهم سيجعلها قاعدة ملكه ، رغبوا في سكناها ، فاستوطنها خمسون او ستون اسرة منهم . غير ان الزلزلة التي حدثت في سنة ١٧٥٩ تركتها خراباً . والاتراك الذين يتشاءمون منها قد اهملوها ،

فصارت قرية لا شأن لها .

واذا غادرنا صفد ، واتجهنا شمالاً ، صادفنا سلسلة جبال عالية ، تدعى « جبل الشيخ » ينبع منها نهر الاردن وجداول اخرى . والمكان المنبسط منه يدعى « حاصبيا » ، كان مستولياً عليها في اواخر القرن الثامن عشر احد امراء الاسرة الشهابية ؛ وكان يؤدي الى « الجزار » ضريبة سنوية تقدرها ستون كيساً . والارض هنالك وعرة تشبه ارض جبل لبنان الاسفل . والجبال الممتدة بطول وادي البقاع ، تدعى لبنان الشرقي ، لانها موازية للبنان سمواً والموازنة . ووادي البقاع الفاصل بينهما كان يدعى قديماً « سوريا الجوفاء » لوقعه المنخفض الذي تنحدر اليه مياه الجبال يجعله من اخصب الاراضي السورية . والهواء فيه شديد الرطوبة ، ويشبه مصر من هذا القبيل ؛ غير انه طيب الهواء ، وليس فيه مياه راكدة . والمصريون ينامون على سطوح بيوتهم ولا يصابهم ضرر . وقبل زلزلة سنة ١٧٥٩ ، كانت تلك الاماكن كثيرة القرى ، وسكانها متاولة . ولكن الاضرار التي احدثتها الزلزلة ، والحروب التي نشبت بعدئذ بين السكان والامراء ، تركتها قاعاً صفصفاً ؛ والمكان الوحيد فيها الذي يسترعي الانتباه ، مدينة بعلبك .

ان بعلبك الشهيرة عند الرومان واليونان باسم « هليوبوليس » اي مدينة الشمس ، مبنية على سفح لبنان الشرقي ، عند طرف الجبل الذي يلي السهل . ومن يجيء اليها من الجنوب ، يرى من مسافة فرسخ ونصف الفرسخ ، وراء ادواح الجوز الرائعة التي تمتد مسير ساعة من الزمن ، تعلوها قبب ومآذن بيضاء ، وتليها جنائن تتخللها طرق ضيقة معوجة مؤدية الى المدينة . واول ما يقع النظر عليه هناك جدار خرب على جوانبه ابراج مربعة .

فذلك الجدار الذي لا يزيد علوه على اثني عشرة قدماً ، يتسلق من الجهة

اليمنى لقلعة ، فيصدق بالمدينة القديمة ، من غير ان يحجب ما وراءه من الارض الخلاء ، والانقاض والاطلال ، والسور العظيم الذي يدل جداره العالي ، واعمدته المزخرفة ، على انه احد تلك الهياكل التي تركها لنا الاقدمون ، ليشيدوا بها اعمالنا . فهو احدى البنايات القديمة قاطبة ، واكثرها صيانة ولو ان جانباً كبيراً منه تناوله الخراب بفعل اضطرابات الطبيعة ، وتوالي الحدثان ، وجهل السكان (1) .

ومن الغريب ان مؤرخي اليونان والرومان لم يذكروا الا شيئاً يسيراً من هذا الهيكل . والرحالة « وود » قد بحث في كتب الاقدمين عن اصل منشإها ، فلم يجد فيها الا ما قاله يوحنا الانطاكي من ان بانيه هو القيصر انطونيوس الورع . وقوله هذا تؤيده الادلة ، كثيرة الشيوع عن الباحث عن استعمال الطراز الكورنثي في عمارته ، وهو الطراز الذي لم يبلغ درجة الاتقان الا في الحقبة الثالثة لمدينة روما . ولا يجب ان لا نعد برهاناً على ذلك النقاش الذي على ساكف احد ابواب الهيكل ، فذا النقار الاصلي ، والطاس

(1) وصف فولني [illegible] هذا الاثر العجيب [illegible] لنا « روبرت وود » و « داوكنس » [illegible] وصفه [illegible] سنة ١٧٥١ ونشرا [illegible] وصفاً دقيقاً لذلك الاثر العجيب . وفولني [illegible] عليه من هذا [illegible] من يريد التعمق في درس اصول الفن [illegible] المحفوظة نسخة منه في [illegible] والكتاب [illegible] الوجود [illegible] وقد لاحظ فولني انه طرأ بعض التغيير على حالة الهيكل بعد [illegible] من الاعمدة التسعة [illegible] كبيرة [illegible] وعشرين صغيرة ، واما هو [illegible] لم يجد [illegible] سوى ستة اعمدة كبيرة ، وعشرين صغيرة . ورأى ان الاعمدة [illegible] زلزلة سنة ١٧٥٩ كانت قد اسقطتها .

الكبيرة القابضة على شيء له شكل طير . فقبوته التي تشبه قبعة البعض من طير الحام ، تدل على انه ليس بالنسر الروماني ؛ وذات صورته ترى في هيكل تدمر ، لاجل ذلك يرجح ان يكون الطائر المشار اليه نسراً شرقياً مكرّساً للشمس التي هي إلاهة هذين الهيكلين .

فبعلبك عبدت الشمس منذ اقدم العصور ، ولعلها الذي يشبه « اوربيس » حيّ به من مدينة « هليوبوليس » مصر ، ويعتقد « رود » المار ذكره ان كلمة « بعلبك » تعني مدينة الشمس ، واليونان تسميتهم اياها « هليوبوليس » فعلوا ما فعلوه غير مرّة ، اي انهم نقلوا اسمها الى لغتهم مترجماً .

واما سكان تلك البلاد فيزعمون ان الجانّ اقاموا هذا الهيكل طوعاً لأوامر الملك سليمان ؛ ويزعمون ان القلعة فيه اخفاء الكنوز العظيمة التي يعتقدون انها ما زالت موجودة في اسفل البناية . والكثيرون منهم نزلوا الى اقبيتها للبحث عما دفن فيها ، غير ان اخفاقهم في بحثهم ، وما نالهم من عسف الحكام من جرآء ذلك اكرهاهم على الكف عن مواصلة التنقيب .

والاساطير التي يتناقلونها في شأن سليمان الملك ، تحملنا على التفكير في ثلاثة امور مهمّة وهي :

اولاً — معظم ما يرويه النقل من العصور الخوالي ، لا كبير صحة له فان الحوادث التي جرت منذ مئة سنة فقط ، ولم تكن قد سُجّلت عند وقوعها ، طرأ عليها المسخ والتحريف .

ثانياً — ينسب الاسلام واليهود والنصارى الى الملك سليمان جميع البنايات القديمة العظيمة ، ليس لان النقل يشير الى ذلك ، بل لانهم يرون في تفسيرهم لبعض آيات العهد العتيق ما يحملهم الى مثل هذا الزعم . فالعهدان القديم والجديد هما مصدر النقل باجمعه ، لانهما الكتابان التاريخيان اللذان يعرفها

ويقرأها جمهور الناس هنالك . وبما ان معظم الذين يفسرونها اميّون ، فما يشرحونه منها هو في غالب الاحيان غير مصيب .

ثالثاً . واما يقينهم بوجود كنوز مدفونة فقد أيّدته الوقائع ؛ فانهم عثروا في مدينة الخليل منذ بضع سنين على صندوق مملوء فضة وذهباً ؛ وفي بلاد الدروز اكتشفوا جرة فيها نقود من ذهب . وبما ان الحكام يدّعون ان لهم الحق في امتلاك ما هو مدفون في الارض ، فالذين يسعدهم الحظ بوجود شيء من هذا القبيل ، يكتمون امره ، فلا يعلم به احد ، فيطمرونه او يعيدونه الى مخابئه ، خوفهم من الدولة ، وهو نفس الخوف الذي حدا فيما مضى اصحابه الى اخفائه .

ولسنا نعرف ما هي الحالة التي كانت عليها تلك المدينة في قديم الزمان ولكنا نعتقد ان وقوعها على الطريق التي ما بين تدمر وصور ، جعل لها حصة لا يستهان بها من تجارة هاتين المدينتين العظيمتين . وكانت تقيم فيها فرقة من الجنود الرومانيين في عصر اغسطوس قيصر ، اذ انه منقوش بحروف يونانية على جدار الباب الجنوبي (Kenturia Pr ma) اي فرقة المئة الاولى .

وبعد مئة واربعين سنة بنى انطونينوس الهيكل الحالي بدل القديم الذي كان متداعياً . ولما انتشرت الديانة المسيحية في عصر قسطنطين ، أهمل شأن الهيكل الجديد الذي جعل بعدئذ كنيسة ، بقي منه الجدار الذي يفصل المعبد من الصحن ، وظلّ على حاله حتى الفتح العربي . وقد اوصدت الكنيسة ابوابها عندما انقطع الناس عن الاختلاف اليها . ولما توالت بعدئذ الحروب ، جُعل المكان حصناً . غير ان الخراب ما عتم ان استولى على الهيكل بعدما ساءت حالته من جراء صروف الزمان وتعاقب الحدثان .

والمدينة نفسها ليست احسن حالاً من الهيكل ؛ فان امراء آل حرفوش

انزلوا بها الاضرار الجسيمة ، وزلزال سنة ١٧٥٩ زادها خراباً ، والحروب التي دارت رحاها بين الجزار والامير يوسف ، اتت على آخر اثر من عمرانها . وبعد ما كان عدد سكانها في سنة ١٧٥٠ خمسة آلاف ، هبط الى الفين ومئتين في اواخر القرن الثامن عشر ، جميعهم فقراء ، لا صناعة لهم ، ولا تجارة عندهم ، وزراعتهم مقصورة على شيء من القطن والذرة والبطيخ . وتربة هذه النواحي قليلة الخصب ، كما هي ايضاً تربة الاراضي الممتدة منها الى الشمال او الى الجنوب الشرقي في اتجاه دمشق

ولاية دمشق

هي الاخيرة من ولايات سورية الاربع، فانها تشمل الجانب السوري الشرقي بمعظمه، وهو الذي يقع في الشمال ما بين معرة النعمان على طريق حلب، ومدينة الخليل في الجنوب الشرقي لفلسطين؛ ويتبع خط حدوده غرباً جبال النصيرية، فلبنان الشرقي، فالشطر الاعلى لمجرى نهر الاردن، مكتنفاً نابلس، وبيت المقدس، والخليل؛ ثم يمر شرقاً بالبادية متوغلاً فيها بقدر ما تمتد الفلاحة والزراعة في تلك الانحاء؛ بيد انه في الغالب لا يتجاوز الا يسيراً الجبال المار ذكرها ما عدا جهات تدمر الواقعة على مسافة خمسة ايام منها.

ففي تلك الاراضي الواسعة تنبت الذرة والغلات كافة؛ فسهول حوران والبقاع التي على ضفاف نهر العاصي في الاخص، تعطي بكثرة القمح والشعير والذرة والسمسم والقطن. وتربة اراضي دمشق والبقاع الاعلى حصبة ضعيفة تلائم على الاخص التبغ والشجر المثمر. والاراضي الجبلية تصلح حيثما للزيتون والتوت والشجر المثمر والكرمة التي من عنبها الاحمر يصنع النصارى النبيذ، والمسلمون الزبيب.

ان حقوق صاحب هذه الولاية اوسع واعظم من حقوق غيره من الولاة؛ وهو ذو سلطة مطلقة، والمقدم العام، وامير الحج؛ والمسلمون يجلّون كثيراً هذه الرتبة، والذي تسند اليه، ويقوم بمهامها خير قيام، لا يستطيع احد ولو كان السلطان نفسه، ان يمسه بأذى.

والمال الذي يؤديه والي دمشق الى السلطان، لا يزيد على اربعة وخمسين كيساً. انما عليه ان يقوم بجميع نفقات الحج التي تبلغ ثلاثة ملايين قرش،

وهي ما ينفقه على شراء القمح والشعير والارز المعدّ لتموين «الجردة» وعلى اكتراء الجمال لنقل الجنود الذين يرافقون قفل الحجاج . وعليه ايضاً ان يدفع لمشايخ البدو التي تمر القفل بمضاربها . ويعتاض مما ينفقه على هذا المنوال بالميري او ضريبة الارض التي يجبيها هو بنفسه ، او يعهد في جبايتها الى ملتزمين يتحمهم . واما المكوس فلا شأن له بها ، والنظر في امرها للدفتردار الذي يدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون القائمة على طريق مكة .

ويرث الوالي الحجاج الذين يقضون نحبهم في اثناء السفر ، ودخله من ذلك لا يستهان به ، وقد اتضح ان الذين يموتون في الطريق هم عادة اغنى الحجاج . ويحق له علاوة على ذلك ان يقرض التجار والفلاحين المال بالربا ، وفي وسعه ايضاً ان يعرض على رعاياه من المغارم ما يشاء .

والجنود الذين تحت يده الفان ، او الفان وثلاثمئة ، من انكشارية ومغاربة ، ودلي باش او فرسان ، وهؤلاء الجنود الذين كانوا يعدونهم في سورية جيشاً كبيراً ، يفتقر اليهم الوالي ليس فقط لحراسة قوافل الحجاج ، ومعاقبة البدو المعتدين على المسافرين وغيرهم ، بل ايضاً لجباية الميري ، واجبار الرعية على الطاعة والاستكانة .

فكل سنة قبل قيام موكب الحج بثلاثة اشهر ، يطوف بصحبة جنوده في انحاء ولايته الواسعة لجمع الضرائب من المدن والقرى وطوافه قلما ينتهي بسلام ، لان الشعب الجاهل يشعر انه رعية مضامة ، وان الوالي نفسه يعسفه ويظلمه ، فينتفض ويتمرد ولا يُجبى المال منه الا عنوة . وسكان نابلس ، وبيت لحم ، والخليل ، لهم من هذا القبيل شهرة اكسبتهم اعفاءات خاصة . بيد ان الدولة تأخذ منهم العوض اضعافاً عندما تسنح لها الفرص .

ان ولاية دمشق معرّضة اكثر من غيرها لغارات البدو ، لكنها من حيث العمران احسن حالاً من باقي الولايات ، اذ الباب العالي لا يعزل ولاتها بتواتر . وفي القرن الثامن عشر تقلد زمامها مدة خمسين سنة اسرة العظم الدمشقية الغنية التي اربعة من افرادها ، اي أب وثلاثة اخوة ، تعاقبوا في تولي الحكم عليها ؛ وآخرهم اسعد باشا الذي مرّ ذكره في اثناء حديثنا عن الشيخ ظاهر العمر ، ظلّ والياً عليها خمس عشرة سنة ، قام في غضونها بأعمال طيبة لا تعدّ ولا تحدّ . ومن اعماله الحميدة تشكيل بناء وضعه نظاماً للجنود ، ردعهم به من التعدي على الفلاحين ونهب اموالهم .

ان جمع المال كان يستغرقه على غرار سائر ارباب المناصب في الشرق ، لكنه لم يكن يدعه في خزائنه ، بل كان يقرضه بفائدة قدرها ستة في المئة وهي لعمري فائدة معتدلة . ويروون عنه انه احتاج ذات يوم الى بعض المال ؛ فالمقربون أشاروا عليه بفرض غرامة على النصارى بحجة انهم قوم لئام لا يستحقون الشفقة او المراعاة . فسألهم : ما هو المبلغ الذي يمكن جمعه من هؤلاء الناس . قالوا : خمسون او ستون كيساً . قال : لكنهم ليسوا باغنياء فيتعذر عليهم دفع مثل هذا البدل . قالوا : ليبيعوا حُلى نسائهم . قال سأنظر في الامر ، لعلي اكون اوفر حيلة منكم .

ففي اليوم ذاته اوعز الى رئيس عالي المقام أن يأتيه سرّاً في هذا المساء . فلما حضر قال له : علمت بأن سيرتك في السرّ لا تحمد ؛ عرفت ميلك لشرب المسكر ، وارتكابك المنكر ، مخالفاً ما انزله الله في كتابه الكريم . فتلك امور لا استطيع الاغضاء عنها ، وقد اضطرّ الى ابلاغها لمفتي الآستانة ؛ لكني قبل اقدامي على ذلك رغبت في انذارك ، لئلا تتهمني باني اخذتك غدراً .

فلما سمع الرجل ذلك ، اعتراه خوف شديد ، فجعل يتضرع الى الباشا ليكتم الامر ، ويغض الطرف ، وعرض عليه الف قرش . غير ان الباشا لم يرضَ بها . فزاد الرجل المبلغ مثنى وثلاث ، وانتهى الامر باتفاقهما على ستة آلاف قرش وعلى اتفاقهما في طيّ الكتمان ما دار بينهما من الحديث .

وفي الغد دعا الباشا منصباً كبيراً آخر ، وحادثه كما حادث زميله من قبل متهماً اياه تهمة معظمة توجب ضرب عنقه ؛ فخاف الرجل وسأله بالحاح ان يرفق بحاله ؛ وساومه كما ساومه زميله ؛ فاتفقا على مبلغ مماثل للاول . وهكذا عاد هذا الرجل وهو مغتبط لنجاته من الهلاك .

وجرى الامر نفسه مع رجل ثالث عالي المقام ، ومع آغا الانكشارية والمحاسب ، وبعض كبار التجار ؛ فكان يذكر لهم اموراً وذنوباً ارتكبوها في اثناء قيامهم بمهام مناصبهم ، او تعاطي تجارتهم . فكانوا يبادرون الى افتداء نفوسهم على منوال من سبقهم .

فلما اجتمع لديه مبلغ كبير ، قال لاولئك المتزلفين : هل سمعتم في دمشق ان اسعد باشا يأخذ المال من الشعب قسراً ؟ قالوا : لا ، فقال : كيف اذاً توصلت الى جمع مئتي كيس ؟ فسكتوا ولم يحيروا جواباً . ولما سألوه كيف تسنى له الحصول على مثل هذا المال ، اجابهم : « جززت النعاج ولم اجز الحملان » .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة ، حُرمت دمشق هذا الرجل على اثر مؤامرة يروون حكايتها كما يلي :

في السنة ١٧٥٥ نزل ضيفاً على اسعد باشا رجل من خصيان بلاط السلطان ، وهو في طريقه الى مكة . غير انه لم يسرّ بالمقابلة التي لقيها . فلدى عودته من الاقطار الحجازية ، لم يعرّج على دمشق ، بل رجع من طريق غزة ؛ فحرّض باشا الذي كان متولياً عليها ، استغله حسن استغلال .

وبعد ما وصل الخصيّ الى الاستانة ، تذكر صنيع مضيفه ، وكي يظهر ما يكنّه من الحقد على اسعد باشا ، ومن عرفان الجميل لحسين باشا ، سعى في الحاق الاذى بالاول ، واحلال الثاني محله . فنجح في سعيه وتوصل الى حمل اولياء الشأن في الاستانة ، على فصل القدس عن ولاية دمشق وضمها الى الولاية العامل عليها حسين باشا . وبعد ذلك بسنة اسندت ولاية دمشق ذاتها الى حسين باشا .

لما نُحّي اسعد باشا عن منصبه انسحب الى البادية مع اهل بيته ، خوفاً من ان تنزل به نقمة اكبر . ثم جاء اوان الحج ، فحسين باشا سار في قافلة الحجاج الى مكة . ولما قفل راجعاً ، نشب نزاع بينه وبين البدو على مال طالبوه به . فهجمت عليه جموعهم وكسروا جنوده ، ونهبوا القفل بأسره وكان ذلك في سنة ١٧٥٧ .

فتلك الفاجعة كان لها صدى اليم في جميع انحاء البلاد العثمانية ، وتأثير مؤلم كالذي تحدثه الهزيمة بعد حرب ضروس . فقدّر البعض الألوف من الحجاج الذين هلكوا قتلاً او جوعاً او عطشاً ، واقرباء النساء العديدات اللاتي سُبين ، والتجار الذين نهبت اموالهم ، هؤلاء جميعهم طلبوا معاقبة امير الحج على جبنه والانتقام من البدو على اعتدائهم ذلك الفظيع .

فقلق الباب العالي مما حدث ، وحكم على حسين باشا بضرب عنقه ؛ لكن حُسيناً توارى عن الانظار ، ولم يتوصلوا الى معرفة مخبئه . ومع ذلك ظلّ ظهيره وصديقه الزنجي يسعى لتبرئته ، فنجح في مسعاه بعد ثلاثة اشهر ، مزوراً رسالة نسبها الى اسعد باشا . فالحكم بالموت صدر لينفذ على اسعد باشا ، بدلاً من حسين باشا ، وجعل اولياء الامر يترقبون الفرصة لتنفيذ الحكم .

واما ولاية دمشق فبقيت ردحاً بلا والٍ ، وحسين الذي مقته الشعب ، لم

يستطيع العود اليها . والباب العالي الذي كان يرغب في محو العار الذي لحق به ، وتأمين طريق الحج ، عوّل على دمشق رجلاً غريب الاطوار ، له حكاية يجدر بنا ذكرها . اما الرجل الذي يدعى عبدالله باشا الشتجي ، ولد في جوار بغداد من ابوين فقيرين . فمال منذ نعومة اظفاره الى خدمة الحكام ، وقضى سني شبابه الاولى في المعسكرات والحروب ، خائضاً جميع المعارك التي دارت رحاها بين الترك والفرس . ونظراً الى جسارته وبسالته ، ارتقى من رتبة الى رتبة اعلى منها ، الى ان اسندت اليه ولاية بغداد . فقام باعباء منصبه الخطير خير قيام ، فاستتبَّ الامن وسادت الطمأنينة . فالحياة العسكرية التي اعتادها جعلته في غنى عن النفقات الكبيرة . لاجل ذلك لم يندفع الى جمع المال .

غير ان اولياء الامر في الاستانة لم يرقهم اعتداله هذا ، بل استاءوا منه ، واخذوا يتحينون الفرص لخلعه . فاتفق ذات يوم ان دخلت الخزينة اربعون الف قرش من تركة بعض التجار . ولما طالبوه بها ، اجابهم انه انفقها على رواتب الجيش المتأخرة ، ورصد الباقي في اعماله . لكن الصدر الاعظم الحّ عليه في تأدية المال في الحال ، واوفد اليه مندوباً رسمياً ومعه خط شريف بضرب عنقه .

ولما وصل المندوب الى جوار مدينة بغداد ، تمارض وتظاهر بانه جاء التماساً للصحة . وبعث الى عبدالله باشا بان يسمح له بزيارته والسلام عليه . فعبدالله باشا الذي كان مُلمّاً باساليب الباب العالي ، ساوره الشك ، وامين خزينته الذي كان هو ايضاً خبيراً بتلك الاساليب ، ارتاب هو ايضاً من مظاهر العاطفة التي ابداها الحمي ، فاقترح ان يبحث في امتعته بينما يكون هو ورفاقه في حضرة الباشا . فوافقه عبدالله باشا على ذلك .

ففي الميعاد المضروب مضى اوين الخزينة الى خيمة الخصي ، وبعد التفتيش والبحث الدقيق عثر على الخط الشريف في بطانة فرو ، فانطلق من ساعته الى عبدالله باشا ، ودفع اليه الرقيم السلطاني . فوضع عبدالله باشا الرقيم في ردنه ، وعاد الى الغرفة حيث كان الخصي ، واستأنف محادثته بكل هدوء ، قائلاً : كلما افكر في مجيئك الى بغداد ازداد دهشة فديننا بعيدة عن الاستانة ، وليست ببادية ، لذلك ارتاب في كونك جئتها طلباً للصحة . فاجابه الآغا : نعم ، وقد عهد الي في ان اطلب منك في الوقت ذاته ان تدفع الي شيئاً من الاربعين الف قرش ، فقال الباشا لا بأس في ذلك . ولكن قل ايضاً انك جئت لضرب عنقي . وقد علمت انت مما يذاع عني اني رجل صادق لا يحنث بوعده ، فان صدقتني القول اطلقت سبيلك من غير ان ينالك ضر .

فحمل عندئذ الخصي يدافع عن نفسه بحديث طويل ، ويؤكد انه لم يضمر له شراً . فقال له عبدالله باشا : اقسم لي برأسي انك تقول الحقيقة ، فظل الخصي يبرئ نفسه من كل نية سيئة . فقال الباشا : احلف لي برأسك . لكن الرجل اصرّ على الانكار . فقال له عبدالله باشا : استحلفك برأس السلطان ، فطار من الكذب .

فلما رأى ان الخصي لم يجد فيه شعرة من اقواله السابقة ، قال : لقد حكمت انت على نفسك بالموت . ثم اخرج من ردنه الخط الشريف ، وقال . اتعرف ما في هذا الكاغد . اهكذا انتم تديرون دفة الحكم هناك ، فلستم سوى عصابة لصوص ، فلا تحسبون حساباً لحياة الذي لا يجاوز رضاكم متجرئين على سفك دم خدم مولانا السلطان ان الصدر الاعظم يروم ان يرى هامات معزولة ، فسيكون له ما يروم ، خذوا هذا الكلب ، واقطعوا رأسه ، وابعثوا به الى الاستانة .

ففي الحال اطاعوا امره . ورفقاء الآغا اطلق سبيلهم ، فغادروا ادراجهم ومعهم رأس الزنجي .

وكان في وسع عبدالله باشا ان يستفيد من حب الشعب له ، ويتمرد على الدولة . لكنه فضّل مغادرة بغداد ، والاقامة بين عشائر الاكراد . ثم جاءه عفو السلطان وهو هنالك ، والفراءة بتوليته على دمشق . وكان في منفاه قد اصابه الضجر واعتراه الملل ، كما ان المال كان قد فرغ من يده ، فرضي بالمنصب وسافر برفقة مئة من اتباعه .

ولدى وصوله الى تخوم ولاية دمشق ، علم ان اسعد باشا ضرب خيامه في مكان قريب . وكان يعرف ما له من الشهرة ، وانه اعظم رجل انجبته سورية . فرغب في ان يراه ، لاجل ذلك تنكّر ، واصطحب ستة فرسان ، وقصد خيمه ، وطلب مقابلته ، فادخلوه عليه بلا تكاليف ، عملاً بالعادة المألوفة في مضارب البادية . وبعد السلام وعبارات الترحيب ، قال له اسعد باشا : من اين اقبلتم والى اين تريدون ، اجابه عبدالله باشا : نحن ستة او سبعة فرسان اكراد نطلب عملاً . وقد سمعنا ان عبدالله الشتجي جاء دمشق فعزمنا ان نطرق بابه ، وبما اننا علمنا ونحن في الطريق ، بان مضاربكم قريبة ، جئنا نطلب علفاً لخيلنا . فقال اسعد باشا : نعطيكم بطيبة خاطر ما تطلبون ، ولكن اتعرفون انتم الشتجي . اجابه عبدالله باشا : نعم ، فقال اسعد باشا كيف هو الرجل ، ايحب المال . اجاب عبدالله باشا : هو غريب الاطوار ، فلا المال يهمه ، ولا الغرو ، ولا اللآلئ ، ولا النساء . فهو لا يحب الّا السلاح الطيب ، والجياد الكريمة ، والحرب الضروس ، ويحب العدل ، ويحمي الارملة واليتيم ، ويقرأ الكتاب الكريم ، ويعيش على السمن واللبن . فسأله اسعد باشا هل هو طاعن في السن . اجابه : اقلّ مما يبدو عليه ، اذ الشقاء

صيره شيخاً قبل الاوان . وقد جرح مراراً عديدة ، وعلى اثر ضربة سيف ، غدا يعرج من رجله اليسرى ، وضربة اخرى جعلت عنقه تميل الى كتفه اليمنى . قال عبدالله باشا ذلك ، وانتصب فجأة وقال : البس هذا ارحف طبق صورتي من رأسي الى اخمص قدمي .

فلما سمع اسعد باشا هذا الكلام امتقع من شدة خوفه ، ظاناً ان ساعة هلاكه قد ازفت ، غير ان عبدالله باشا جلس وقال . ايطمئن بالك ، يا اخي ، اني لست برسول جاءك من كهف هؤلاء اللصوص . وما اتيت لاخونك ، فثق بي ، واذا استطعت ان اخدمك ، فاني لا اتوانى مطلقاً . فكلانا عدوان في نظر سادتنا ، فقد رضوا عني واعادوني اليهم ، لانهم يريدون الاقتصاص من البدو ، فاذا ما تم لهم ما يريدون ، استأنفوا التفكير في قتلي . لكن الله كبير فيعمل ما يشاء .

فذهب عبدالله باشا الى دمشق ، واعاد الى السكان الراحة والطمأنينة ، وردع العسكر عن التعدي عليهم ، وسار في مقدمة الحج ، والسيف في يده ولم يؤدِ فلساً واحداً الى البدو . وفي اثناء حكمه الذي دام سنتين كان العدل ناشراً لواءه على البلاد . « فكان الناس يأمنون وابوابهم مفتوحة » هكذا يقول الدمشقيون حتى اليوم . وهو نفسه كان يتنكر متخذاً هيئة شحاذ ويعاين كل شيء بنفسه ، والاحكام التي كان يصدرها وهو متنكر كان لها المفعول الحسن . ويروون على سبيل المثال انه وصل الى القدس في طوافه فحذر رجاله من اغتصاب شيء من السكان . وقد حدث ذات يوم اذ كان يجول متخذاً شكل فقير وفي يده صحن عدس ، ان جندياً معه حزمة حطب ، قابله واجبره على حملها عنه ، فوضعها عبدالله باشا على ظهره ، وسار بها امام « السلي باش » الذي كان يشجعه ، وهو يسب ويشتم . ولكن سرعان ما

عرفه احد الجنود ، ومضى الى زميله بالامر ؛ فما كان من صاحب حزمة الحطب الا ان لاذ بالفرار ، متطفلاً في الازقة . ولما خطا الباشا بضع خطوات ، ولم يعد يسمع صوت الجندي ، التفت ، فلم يره ، فاستاء من انه خلص من يده ، فالقى الحمل الى الارض ، وقال : ياله من لص لئيم . فقد ترك احداً معه صحبني واحرقني . غير ان امر الجندي لم يطل ، لان عبدالله باشا فاجأه بعد ايام قلائل اذ كان يسرق بعض البقول من بستان امرأة فقيرة ، وبمجرد مفاجأته ضرب عنقه بالحال .

واما هو فبعد نجاته غير مرة من قتلة كانوا يترصدون به ، مات مسموماً بيد ابن اخيه . وقبل موته عرف من هو سامه ، فدعاه اليه وقال له : يالك من شقي ، لقد غرك الاشرار ، فدسست لي السم ، لتستولي على ما اتركه من بعدي . فاني وصيت قبل موتي ان احجب املاك ، واعاقبك على فعلتك ، غير اني اعرف الاتراك ، فهم سيأخذون ثأري منك .

فكان الامر كما قال ، لان بعد موته ارسل الباب العالي مندوباً معه خط شريف بخنق ابن الاخ ، فخنق .

وبعد عبدالله باشا آل الحكم الى شابك ، فعثمان ، فاسعد ، فدرويش ابن عثمان الذي تقلد الحكم في سنة ١٧٨١ . فدرويش هذا لم يكن له شيء من مناقب ابيه ، ولم يرث منه سوى الميل الى الاستبداد . فهاك حادثاً جديراً بالذكر :

في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٨٤ طُلب من قرية واقعة على مقربة من دمشق ان تدفع ضريبة الميري ؛ فمشايخ القرية ابرزوا الوثائق الدالة على ان الفريقين دفعوا جميع المال المستحق عليهم ؛ لذلك رفضوا دفعه ثانية ؛ فما كان من بعض الجنود الا انهم اكتسحوا القرية ليلاً ، وقتلوا واحداً وثلاثين رجلاً

من مكانها . فاستولى الذعر على القرويين الساكنين فاخذوا هامات قتلاهم وجاءوا بها الى الوالي في دمشق ، وطلبوا منه انصافهم ، فاصغى درويش باشا الى شكواهم ، ثم اشار عليهم بترك الهامات في الكنيسة الى ان يقوم بالبحث اللازم ، فمرت ثلاثة ايام ، وفسدت الهامات ، ولما ارادوا دفنها لم يستطيعوا نقلها من مكانها بدون اذن الباشا الذي لم يسمح بدفنها الا بعد اخذه منهم اربعين كيساً .

وفي السنة التي بعدها عُزل درويش باشا وحلّ محله احمد الجزار بعامل المال الوافر الذي بعث به الى اولياء الشأن في الاستانة . وقيل انه ابتغى السيطرة على ولاية حلب ايضاً . فلو نال ما صبا اليه ، لأضحى سيد سورية بأجمعها ، واستطاع ان يشق عصا الطاعة ويتصرف في الحكم تصرف المستقلّ بأمره .

بيد ان الدولة كانت مرتاحة البال من هذا القبيل ، ولو ان المشاكل التي حدثت قائمة بينها وبين روسية ، شغلتها بعض الاهتمام بشؤون بلادها ، وتصرف عمالها فان خبرة واسعة علمتها ان لابدّ لعصاة المتمردين من الوقوع ذات يوم في يدها مهما قويت شوكتهم وازدادت سطوتهم .

والجزار ايضاً مع ما كان عليه من دهاء وقوة عزيمة ، عرف حق المعرفة انه بمعزل عن الشذوذ عن تقاليد القاعدة ؛ فلم يخطر قط على باله ان ينهض على الدولة ، بل اتبع الخطة التي سار عليها اسلافه ، فلم يهتمّ بمصلحة العامة الا بقدر ما كانت تعود عليه بالمنفعة . فالمسجد الذي اقامه في عكا لم يقدم على بنائه ، وينفق في سبيله مليوناً ومئتي الف قرش الا لانه كان يحب الظهور ، ويميل الى المباهاة . والسوق التي شيدها لا تنكر فائدتها ، بيد انه كان يجب عليه قبل التفكير في احداث مكان تباع فيه الغلة ، ان يهتم بالارض التي

تعطيها ، والزراعة على بعد ميلين من عكا كانت معدومة .

وكان ينفق اعظم جانب من ماله على حدائقه وحماماته ونسائه البيض اللاتي كان عددهن ثماني عشرة في السنة ١٧٨٤ ، وجميعهن يفرطن في التبذير والاسراف على تبرجهن .

وبعد طعنه في السن ، ودخول الشيخوخة على نفسه ، اخذ جمع المال يستغرقه ؛ فكان من جراء بخله ان تورم منه حسوده ، ومن جراء شراسته ان كثر اعداؤه حتى عائلته ذاتها لا تخلو منهم ؛ فقد حاول اثنان من عماله اغتياله ، لكنه نجا من نار عداوتهم . ولم يجن من ادخاره المال سوى اثارة طمع الباب العالي فيه ، ومقت الشعب له .

ولنتحدث الآن عن الاماكن الجديرة بالذكر التي في هذه الولاية ؛ فان اول مدينة تستدعي الانتباه دمشق نفسها ، قاعدة الولاية ، ومقر الولاة ، والعرب يدعونها الشام ؛ واما الاسم القديم « دمشق » فلم يكن يعرفه سوى اصحاب تقاويم البلدان .

تقع هذه المدينة في سهل مترامي الارجاء ؛ وهي منفرجة على البادية من الشرق والجنوب ، ومحصورة شمالاً وغرباً بالجبال العالية حيث تتفجر الينابيع ، وتتدفق الجداول التي تجعل جنتها وعرصاتها اخصب الاراضي السورية ، واوفرها رياً واروعها منظراً ؛ والعرب لا يذكرون دمشق الا بالثناء والاطراء معددين مناظر بساتينها ، واخضرار حدائقها ، ووفرة ثمارها ، وكثرة غدرانها ، وصفاء مياهها .

غير ان التربة فيها حصوية ضميئة حمراء لا تصلح لزراعة الحبوب ؛ بل تلائم كثيراً الاشجار تعطي الذ الاثمار .

وما من مدينة تضاهيها من حيث غزارة مياهها ، وكثرة سواقيها فكل

بيت له فستقية ، ومياهها تتغذى من ثلاثة غدران ، او بالاحرى من ثلاثة فروع لنهر واحد يروي البساتين والسواقي المنبسطة على شعبتيه بطول ثلاثة فراسخ ، ثم يتجمع في ارض منخفضة واقعة في وسط البرية فيكون مستنقعاً واسعاً يدعونه بحيرة المرج .

وتعد دمشق من حيث موقعها احدى مدن تركية قاطبة ، لكن هواءها ليس في غاية النقاوة . والدمشقيون معرضون للانقباض ، وبياض بشرتهم ليس الدليل على جودة الصحة ، وامراضهم في شكل امراضنا ، ولا سيما مشمش ، تنجم عنه في فصلي الصيف والخريف زحار و حميات .

وشكل المدينة مستطيل ؛ « وبيهر » الذي صوّر مخططها في القرن الثامن عشر ، قدّر انّ مساحتها بستة عشر الفاً وخمسمئة قدم مربعة ، باعتبار ان طول دائرها فرسخ ونصف الفرسخ . فكان عدد سكانها ثمانين الفاً ، خمسة عشر الفاً منهم نصارى ، ثلثهم ارثوذكسيون .

والدمشقيون يعتقدون ان مدينتهم مقدسة ، لكونها باب الكعبة ففيها يجتمع الحجاج القادمون من مختلف الانحاء الشرقية ، كما يجتمع في القاهرة حجاج افريقية . ويتزايد عددهم كل سنة بعدد معين ، يصل بعضهم اليها قبل الاوان بنحو خمسة اشهر . واما السواد الاعظم فيأتيها في اواخر شهر رمضان . فتشبه دمشق حينئذ معسكراً او سوقاً عظيمة ، لا يُرى فيها سوى غرباء يعبرونها من سائر اطراف الدولة التركية وفارس ، فتزدحم فيها الابل والخيل والبغال ، وتكتظ حاناتها وخاناتها شتى انواع البضائع .

وبعد استعدادات وتأهبات دوامها بضعة ايام ، تبادر تلك الجماهير الى السفر بلا ترتيب ولا نظام ، متبعة طرق البادية ، فتصل الى مكة بعد اربعين يوماً ، اي في عيد الاضحى . وبما انها تمر باراضي بعض القبائل ، فتدعو الحاجة الى

الاتفاق معهم باعطائهم مالاً واستخدامهم كأدلاء .

وقد يقع في غالب الأحيان اختلاف بين مشايخهم ، فينتهز امير الحج الفرصة للاستفادة من تزاحمهم ، فيبادر الى مساومتهم . ومن المعتاد ان تحصل على عيرها القبائل الضاربة بطول بلاد حوران ، فيبعث الباشا الى رئيسها بسلاح وخلعة وجبة ، ويعلمه بانه جعله رئيس الأدلاء . ويعني بذلك انه عهد اليه في اعداد ما يحتاج اليه النقل من إبل بأجر معين من غير ان يضمن له اي تعويض كان من الخسائر التي تلحق به ، لانه يموت عادة عشرة آلاف بعير في الموسم الواحد .

والحج فرصة فريدة لتعاطي تجارة عظيمة الارباح ، فان فريقاً كبيراً من الحجاج يغادرون بلادهم ومعهم بضائع يبيعونها في اثناء السفر ، والمال الذي يجنونه منها يضمونه الى المال الذي يحملونه معهم ، فيشترون به في مكة ، الشال والاقمشة الهندية المصنوعة في البنغال والمليبار وشال كشمير ، وعود الصين وورقه ، وعاج الهند ، ولآلئ البحرين ، والتوابل ، والابازير والبن اليمني .

وقد يتفق احياناً ان يخيب البدو الآمال ، لنهبهم اموال المتباطئين في السير ، وغزوهم المنفصلين عن القافلة . ومع ذلك يصل الحجاج الى بلادهم سالمين ، فيغبطهم مواطنوهم بمظاهر الاكرام والاحترام ، فيصفون لمن يأتون للسلام عليهم ، عجائب الكعبة ، وجبل عرفات ، وجموع الحجاج ، وكثرة الذبائح المنحورة يوم العيد ، والمشقات التي كابدوها ، وغزوات البدو الغريبة ، والبادية التي لا ماء فيها ، وضريح النبي في المدينة . فوصفهم هذا يثير اعجاب السامعين وغبطتهم .

ودمشق التي هي مركز تجارة واسعة النطاق ، تتصل من طريق حلب

بارميدية ، وبلاد الاناضول ، وديار بكر ، وبلاد فارس ، وترد القوافل الى القاهرة عن طريق جسر بنات يعقوب، وطبرية، ونابلس، وغزة؛ وتستورد البضائع من الاستانة واوربة عن طريق بيروت ؛ وتصدر منها ايضاً الاقمشة الحريرية والقطنية التي اشتهرت بنسجها ، والفواكه المجففة ، ومربى الورد والمشمش ، وغير ذلك من الحلاوي التي تتقن صنعها . وتشتري تركية من هذه الاقمشة والمربيات ما تساوي قيمته اربعة ملايين قرش . وتجارة كهذه تجلب على دمشق مالاً وافراً ، ويرجع عهدها في سورية الى اقدم العصور . وقد اتخذت طرقاً متعددة واتخذت اساليب متنوعة ، على حسب تعدد الامكنة ، وتبدل الاحوال ؛ وكان ينجم عنها غنى وروعة دامت آثارها حتى بعد زوالها ؛ وولاية دمشق تعطينا من هذا القبيل شاهداً عجيباً يمكن اعتباره ، الا وهو تدمر التي دامت شهرتها في حلقة الثالثة روما ، من جراء مرور الحديد الذي تمت به في عصور النزاع الذي نشب بين البارثيين (Parthes) والرومانيين ، سواء كان في ايام ادينة وزنبا ، او بعد سقوطها ، وخرابها في عصر اوريليانوس قيصر ، مخلفة في بطون التاريخ ذكرى مجيدة دائمة .

وبما ان معالم عظمتها لم تعرف بالضبط ، فلم يكن من السهل تكوين فكرة صحيحة عنها ، حتى في ازمنة عزها ، فلم يكن يخطر على بال احد وجود آثار لها ، الى ان سمع في اواسط القرن السابع عشر بعض التجار الانكليز المقيمين بحلب ، ان في الصحراء خرائب عظيمة ؛ وعزموا بعضهم على كشف القناع عن حقيقة امرها ، لكنهم اخفقوا في محاولة اولى اقدموا عليها في سنة ١٦٧٨ ، لان البدو اطبقوا عليهم ، وهم في الطريق ، وجردوهم مما كان في حوزتهم ، فاضطروا ان يعودوا ادراجهم من دون ان يحرزوا طائلاً .

فعادوا الكرة في سنة ١٦٩١ ، وتوصلوا بعد الجهد الكبير الى المقصود

على الآثار التي ذهبوا للبحث عنها . لما نشروه آنئذٍ في اعلانات العلمية ابى الكثيرون تصديقه لاعتقادهم انه ليس من المعقول ان تقوم في بقعة بعيدة عن الاماكن المأهولة مدينة كانت مثلها وصفهم وتصورهم .

ولكن منذ ما نشر « داركنس » الانكليزي [1] في سنة ١٧٥٣ الرسم الكامل الذي نقله هو نفسه عن تلك الآثار والاطلال في السنة ١٧٥١ لم يبقَ للشك اي محل ما . فاجمعوا حينئذٍ على القول بن الاقدمين لم يتركوا شيئاً سواء كان في بلاد اليونان او ايطاليا يضاهي بجماله آثار تدمر .

فهاك ملخص ما رواه « روبرت وود » زميل « داركنس » ومدوّن وقائع رحلتها قال :

« لما علمنا ونحن في دمشق ان تدمر تقع في المنطقة التي يسيطر عليها آغا يقيم في قرية الحسية الواقعة في الصحراء على الطريق التي ما بين دمشق وحلب ، قصدنا اليه ؛ وقد استغرقت رحلتنا اربعة ايام ؛ فاستقبلنا الآغا احسن استقبال ، واولانا ضيوفاً عليه بذلك الكرم الذي اشتهر به اهل تلك البلاد ، اغنياء كانوا او فقراء . وما ان علم بقصدنا حتى دهش من تصورنا ، لكنه دلنا الينا كما كنا في حاجة الى معرفته لبلوغ هدفنا .

« انا برحنا الحسية في ١١ اذار سنة ١٧٥١ وبصحبتنا حرس من احسن فرسان الآغا مسلحون ببنادق ورماح طوال ؛ فوصلنا الى قرية صدود بعد مسير اربع ساعات في سهل قاحل ، ينبت فيه عشب لا تقوى على رعيه حتى الغزلان التي لقينا اسرابها هناك . وهذه القرية حقيرة فقيرة ، بيوتها مبنية باللبن وسكانها موارنة ، يزرعون في الاراضي التي حولها ما يقتاتون به ، ويصنعون خمراً حمراء جيدة .

---

(١) راجع الحاشية صفحة ٦١ .

«وفي المساء استأنفنا السير، فدخلنا القرية التركية حوارين بعد ثلاث ساعات، فقضينا ليلتنا فيها ، وهي ليست احسن حالاً من صدود . وقد شهدنا في جوارها قرية مهجورة ، وهو امر كثيراً ما يحدث في تلك البلاد حيث ينزح السكان عن اراضيهم ، ان لم تأتهم مغلة تؤازي جهودهم .

« غادرنا حوارين في ١٢ اذار ، فوصلنا الى القريتين بعد ثلاث ساعات سرنا في اثنآئها شرقاً بجنوب . وهذه القرية تماثل القرى التي عرجنا عليها ولو انها اكبر منها . وقد عزمنا ان نقضي فيها باقي يومنا لنتأهب للشطر الاخير من رحلتنا الذي يستغرق اربعاً وعشرين ساعة اخرى يجب قطعها في مرحلة واحدة اذ الطريق لا ماء فيها .

« فقمنا اذاً من قريتين في اليوم ١٣ اذار ، وكنا حينئذ نحو مئتي نفس ، ومعنا ما يقارب ذات العدد من حمير وبغال وجمال وسكان ، وكنا شكل غريب واما اتجاهنا فيها فانه كان شمالاً شرق ، فاجتزنا بصحراء رملية عرضها ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ لا ماء فيها ولا نبات ، يحدق بها جنة وسرة جبال قاحلة بدت لنا من بعد كانها تتلاقى على مسافة ثاني الفرسخ من تدمر .

« وعند ظهر اليوم ١٤ وصلنا الى المكان الذي خيل الينا ان فيه تتلاقى تلك الجبال ، واذا بواد يفصل بينها ، فرأينا فيها آثار قناة كان الماء يسيل منها الى تدمر ثم شهدنا يميناً ويساراً ابراجاً مربعة الشكل عالية . ولكن ما ان دنونا منها حتى اتضح لنا انها قبور التدمريين وبعد ما اجتزنا تلك الآثار الجليلة ، بدت لنا فجأة من فرجة الجبال التي على الجانبين ، خرائب عديدة لم نكن رأينا مثلها قط ، تمتد وراءها حتى نهر الفرات صحراء جدباء .

« فرأينا اغرب ما يمكن تصوره ، اي عدداً كبيراً من الاعمدة الكرنثية ،

وبجوارها جدار وابنية »(1) .

وفي وسط تلك الاعمدة العظيمة ذات الاطناف المزدانة باجمل ما توصل الفن الى ايجاده من نقش وحفر . وفي وسط الجدر المتينة والاقواس البديعة التي ما زالت منتصبة منتهى الروعة والجلال ، يصادف المرء اكواخاً حقيرة قذرة تقيم فيها أسر بدوية بائسة ، فقرها مدقع ، لا تملك من حطام الدنيا الا بعض المعز والنعاج .

وكانت تدمر قبل المسيح المكان الذي ترد اليه بضائع الهند عن طريق الخليج الفارسي ، فتبعث بها الى فينيقية واسية الصغرى من طريق الفرات والصحراء .

ومما كان يحمل على السكنى في تدمر عيون يستخرج منها ماء عذب في تلك البوادي . فموقعها هذا حمل سليمان يقدم على فتحها . وقال يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الاول بعد المسيح : وبنى (سليمان) فيها اسواراً متينة بعد امتلاكها ودعاها تدمر اي بلاد النخيل .

واذا ما غادرنا تلك الخرائب العظيمة ، وعدنا الى الاماكن الآهلة وجدنا مدينة حمص الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ، والتي كانت كثيرة السكان في سالف الزمان . واما الآن فهي بلدة خربة يقطن فيها نحو الفي نسمة بعضهم روم والبعض الآخر مسلمون . وكان متولياً عليها آغا قد اقرها من والي دمشق ، ويشمل التزامه جميع الاراضي الممتدة حتى تدمر ، وهي التي

(1) وهنا يشرح فولني اصل تلك المباني مستعيناً برسم طويل جميل ضمه الى كتابه مثلت فيه تلك الاطلال الرائعة ، احسن تمثيل . ثم يعلل شرحه تعليلاً جيداً ثم يورد القارئ بالفكر الى تلك العصور اذ استطاعت امة مقدامة ان تشيد في الصحراء مدينة على هذا النمط جاعلتها قاعدة مملكة ستولت على عرشه ملكاتها .

مع حماة ومعرّة النعمان ، اقطعها السلطان والي دمشق باربعمئة كيس .

وعلى مسير يومين من حمص نجد حماة الشهيرة بنواعيرها التي هي اكبر النواعير المعروفة ، فدائرة عجلاتها مؤلفة من قواديس مركبة بنمط يجعلها تدور على نفسها وهي ممتلئة ماء . واذا ما وصلت الى قمتها انحدر منها الماء الى حوض متصل بالقنية ، فيسيل فيها الى الحمامات الخصوصية والعمومية .

وتقع حماة في واد ضيق على ضفتي نهر العاصي ويبلغ عدد سكانها اربعة آلاف . وتجارتها لا بأس فيها . وتلائم تربتها القطن والحنطة . واما الزراعة فيها ضئيلة من جرآء عسف المتسلم وتعدّي العرب .

واذا واصلنا سيرنا نزولاً مجرى نهر العاصي على طريق قلما يسلكها المسافرون رأينا في وسط البطائح مكاناً يستدعي الانتباه من جرآء التغير العظيم الذي طرأ عليه . والمكان يُدعى « فامية » وكان يعرف باسم « اباميا » وهي من المدائن الشرقية الشهيرة ، وقال « استرابون » : « كان السلوقيون قد جعلوا هنالك ميداناً للتدريب على ضروب الفروسية ، ومرجاً واسعاً تتوالد فيه وتنمو الجياد المعدّة لفرسانهم .

والاراضي التي في جوارها تكثر فيها المراعي ، فثلاثون الف فرس ، وثلاثة حصان ، وخمسمئة فيل كانت ترتع فيها وتمرح وجنود الاسكندر الذين جعلوا من هذا المكان محطة استراحة ، خلفهم عليه فلاحون فقرآء ، يقضون العمر في خوف دائم من جور الحكام وتعدي البدو . وتلك هي ايضاً حالة سكان القرى التي ما بين الصحرآء والجانب الجنوبي من دمشق عند سهول حوران .

والحجاج الذين يسيرون في وسط تلك السهول خمسة وستة ايام في عصور سفرهم ، يروون انهم كثيراً ما يعثرون على انقاض منازل قديمة ، غير انها لا

تسترعي الانتباه، ولا هي ذات اهمية من الوجهة التاريخية.

ان المواد الصلبة التي تصلح للبناء مفقودة من هذه السهول، والارض لا قضض في تربتها ولا حصى، فما يورده من حصبها، يؤيد ما قاله فيها كتاب العراقيين، وانها تزرع القمح، فينضج نضجاً باهراً، وينمو حتى يبلغ طوله قامة رجل، فتعطي غلة وافرة، ذلك ما لم تحبس السماء الغيث عنها. ويؤكد الحجاج ان الرجال هنالك ذوو قوة وقوام لا مثيل لهم في سائر انحاء سورية، ويشبهون المصريين باجسامهم ولون بشرتهم بحمول جراء اصطلائهم الكثيرة الحر والحماء.

ومعظم قراهم يحميها العرب، غير انهم يؤدون الخراج الى صاحب دمشق والأمن مستتب في الجبال المتاخمة شمالاً وغرباً. لاجل ذلك التجأت اليها بعض الاسر الدرزية والمارونية التي اضنتها قلاقل لبنان وحروبه، واقامت لها قرى، وشيدت فيها معابد حيث تقوم شعائر دينها بلا مانع ولا عائق.

وكلما اقترب المسافر من نهر الاردن، تعاقبت الجبال، وتوالت الاراضي المروية. والوادي الذي يجري في وسطه النهر، كثير المراعي، غزير الكلا وعلى الاخص في شطره الاعلى. والعرب الذين لا يعرفون لفظة «اردن»، يسمونه نهر الشريعة. ومتوسط اتساعه ما بين الضفتين الكبيرتين نحو خمس وسبعين قدماً. واما عمقه فهو نحو اثنتي عشرة قدماً، فاذا تضخم في الشتاء، خرج من مجراه على اثر سقوط الامطار التي تنحدر اليه سيولها، فيفيض متدفقاً على ضفتيه، فيصبح عرضه ربع فرسخ، وفيضانه الاعظم يحدث في شهر اذار اذ تذوب الثلوج المتراكمة على جبل الشيخ. فتتكدر حينئذ مياهه، ويزداد انحدارها سرعة. وعلى شطيه غابات متكاثفة تأوي اليها الخنازير البرية والنمورة وبنات آوى والارانب والطيور.

واذا عبرت النهر في منتصفه، وطئت اراضي خصبة عُرفت في قديم الزمان

باسم مملكة السامرة ، ويدعونها اليوم بلاد نابلس ، قاعدتها مدينة نابلس . وهذه المدينة ، او بالحري القرية ، مشيدة على انقاض « نيابوليس » اليونانيين . وهي مقرّ شيخ ملتزم يعينه صاحب دمشق .

ولا فرق بين هذه الاماكن وبلاد الدروز الا من حيث ان سكانها مسلمون ذوو حمية ، لا يرضون بان يعيش بين ظهرانيهم من لا يدين بدينهم ، واما اراضيهم فانها جبلية خصبة التربة ، تغطي بوفرة القمح والقطن والزيتون .

وبعدهم من دمشق ووعورة اماكنهم يجعلانهم في مأمن من جور الحكام ويمكنانهم من ان يعيشوا بهناء وسلامة بل ؛ فكانوا يعدّون اسعد شعب في سوريا . وبما انهم لزموا جانب الهدوء في اوان الاضطرابات التي حدثت في بلاد الجليل وفلسطين فقد ذهب الكثيرون من ذوي اليسار الى مجاورتهم لكي ينجوا من مفاجآت الزمن وجشع الحكام . غير ان طمع بعض زعمائهم ما لبث ان اوجد فيهم ميلاً الى النزاع والتعصب والشقاق ، فكابدوا من جرآء ذلك اضراراً لا تقل جسامة من التي يلحقها بغيرهم حكام البلاد .

وبعد مسير يومين من نابلس جنوباً ، في وسط جبل تزداد على التوالي وعورة ، يصل المرء الى مدينة تعدّ شاهداً ناطقاً لتقلبات الزمان وعوائل الحدثان . فاذا ما رأينا اسوارها المهدومة وخنادقها المردومة ، والانقاض المكتنطّ بها محيطها ، صعب علينا ان نصدق انها هي اورشليم ، تلك العاصمة الشديدة البأس التي قاومت في غابر الزمان جيوش اعظم الممالك . وها هي ذي الآن ، عضول تعاقب الحوادث ، وتبدل الاحوال ، تحاط بشتى ضروب الاكرام والاجلال .

وبما يحمل على العجب من الحظ العظيم الذي تتمتع به ، كونها قائمة على بقعة وعرة ماحلة قاحلة ، لا ماء فيها ولا كلأ ، تحدق بها الاودية والمنخفضات والهضاب . ونظراً الى بعدها من الطريق الكبرى ، كانت تلوح ابدا الى تصير

مدينة ذات شأن ، غير انها اقتصرت على جميع المرافق ، مبرهنة على ما يستطيع الفكر عمله اذا ما سيطر عليه شارع ماهر او جاءته فرص طيبة .

والمقبرة الرفيعة ، التي لها عند اليهود والنصارى والاسلام ، قد تحمل على الظن ان اهلها اكثر الامم ورعاً وصلاحاً غير ان الحقيقة هي بخلاف ذلك . وعددهم يناهز اربعة عشر الفاً . واما مسيحيوها فان تخاصمهم متواصل ، وتحاقدهم دائم ، فرامهم الذي تثيره دواعٍ تافهة ، يعود عليهم بالضرر ، وعلى الحاكم بالفائدة . فاولياء الامر يتشهرون خصامهم ، فيبتزون اموالهم . لذلك يدأب الحاكم في توسيع شقة الخلاف ما بين طائفة واخرى .

ودخل المتسلم اي الحاكم يناهز مئة الف قرش ، فهو يتقاضى من كل زائر رسماً قدره عشرة قروش ، وخفارة من الزوار الذين ينوون الذهاب الى نهر الاردن ، فضلاً عن المغارم التي يفرضها عليهم لدى كل سانحة وبارحة .

وله على كل دير من اديار الطوائف المختلفة مبلغ مال معلوم يأخذه باسم رسم طواف ، او اصلاح عمار . وبما ان التنافر مستحكم الحلقات بين تلك الديورة فان كل واحد منها يرشوه لكي يشدد بعضه ، ويؤيده بتفرده ، او يغض الطرف عن مخالفته النظم المتبعة القائمة عليها حقوق الطوائف . والاديار تقدم له الهدايا في بدء تقلده منصبه ، او عندما يولى عليها رئيس جديد .

ويتقاضى ايضاً ضريبة على السلع المختصة بصنعها مدينة القدس كالسبح والصلبان وما اليها من التحف الدينية التي يصدرون منها كل سنة ثلاثة صندوق ، والتي تشتري منها الاديرة شيئاً كثيراً . ودير اللاتين وحده ينفق على مشتراها خمسين الف قرش في السنة .

وتوافد الزوار على بيت المقدس يدر على الديورة والمدينة الارباح الجزيلة . غير ان عددهم آخذ في التضاؤل ، وفي سنة ١٧٨٤ لم يرد منهم سوى الف زائر

بعد ما كانوا فيما سبق اثني عشر الفاً او يزيدون . واما ما ينفقه الواحد منهم فيناهز الالف والستمئة قرش ، وهو مبلغ كانوا آنئذٍ يعدونه جسيماً ، بيد ان بعض الزوار الاغنياء ينفقون اضعافه .

ورحلة الزوار الى نهر الاردن تأتي الحاكم بدخل لا يقلّ من الاربعين الف قرش في السنة ، يُنفق بعضها على مواكبة الزوار لاجل حراستهم . والكثيرون منهم يشمون يدهم فيبقى الوشم شاهداً ناطقاً على انهم حجوا بيت المقدس ، وانما الوشم لا يخلو من الخطر ان مرّت الواشم الابرة في عصب الكوع ، فقد يؤول ذلك احياناً الى بتر اليد الموشومة .

وعلى مسير ستة فراسخ من القدس بلدة اريحا القائمة في وسط سهل طوله نحو سبعة فراسخ ، وعرضه ثلاثة ، حوله جبال جرداء ، تجعل الهواء حاراً . وكان سكانها يغرسون شجرة البلسم التي تشبه [illegible] ، لها ورق كاوراق الحرمل ، وتحمل ثمراً داخل لوزة يستخرجون منها مادة يدعونها بلسماً . غير انهم عدلوا الآن عنها واستبدلوها بشجرة يسمونها الزقوم ، وهي تشبه شجر الخوخ ، فيستخرجون منها زيتاً حلواً ينفع في الجروح والقروح ، لها اشواك طول الواحدة اربع اصابع ، وورق كاوراق الزيتون ، الا انه اضيق منها ، واكثر اخضراراً ، واطرافه شائكة . وثمرها كالبلوط ، ولكن ليس له كمّ ، وتحت قشرته لبّ ثمرته ، يستخرجون منها زيتاً ، يُباع باسعار طيبة . فتلك هي تجارتهم الوحيدة . واريحا ليست سوى قرية صغيرة فقيرة .

وبيت لحم لا تبعد من القدس سوى فرسخين جنوباً بشرق ، وهي مشيدة على اكمة في بقعة كلها تلال واودية صغيرة . لاجل ذلك هي جميلة الموقع ، وتربتها تفوق بجودتها تربة غيرها من الاراضي التي تجاورها ، فتنجح فيها اتمّ نجاح الاشجار المثمرة والكرمة والزيتون والسمسم . ويقدرون نسمة عدد

رجاله القادرين على حمل السلاح ، وكثيراً ما يمتشقون الحسام لمقاومة الباشا ، او لشن الغارة على القرى المجاورة ، او لفض نزاع ينشب فيما بينهم .

واصحاب الطقس اللاتيني عددهم مئة ، يقوم بخدمتهم الروحية احد رهبان دير القدس الكبير . وكانوا يتعاطون جميعهم صنع السبح ؛ غير ان الرهبان لم يستطيعوا شراء كل ما كانوا يصنعونه منها لذلك اضطروا ان يعودوا الى فلاحة اراضيهم والمسيحيون في بيت لحم يعيشون بسلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين ؛ وجميعهم من الحزب اليمني والفلسطينيون حزبان : يمنيون وقيسيون .

وعلى مسافة ستة فراسخ من بيت لحم الى الغرب مدينة حبرون التي يدعوها العرب « الخليل » نسبة الى ابرهيم الخليل المدفون فيها . وبيوتها مبنية بانقاض قلعة قديمة . والاراضي التي حواليها لها شكل حوض مستطيل ، طوله خمسة فراسخ او ستة ، تتوالى فيه على خط لطيف الآكام المثمرة ، وغابات البلوط والصنوبر ، وبساتين الزيتون ، والكروم التي لا يستخرج السكان من منها خمراً ، لانهم جميعهم مسلمون ، بل يجففونه زبيباً ، ولو انهم لا يتقنون عمله . ويزرعون القطن ، فيغزلونه ، ويبيعونه في القدس او غزة . ويصنعون الصابون ، ويأتيهم البدو بالقلي الذي يدخل في طبخه . وعندهم معمل للزجاج وهو الوحيد في سورية . ففيه يصنعون الخواتم الملونة ، واساور ، وخلاخل ، واشياء آخر تافهة يبعثون بها الى الاستانة .

فتلك الصنائع جعلت لحبرون منزلة ممتازة ، فهي اقوى بلدة في تلك الارجاء . ويمكنها ان تسلح ثماني مئة رجل وبما ان سكانها ينتمون الى الحزب القيسي فهم وسكان بيت لحم اضداد وخصوم . فالنزاع القائم منذ القدم بين اهل تلك البلاد يجعلهم متحفزين دوماً للقتال وخوض الحروب الاهلية . وكثيراً ما يغير بعضهم على اراضي البعض ، ويتلفون الزرع ، ويقلعون الشجر ،

ويحملون الغم والمر والامل . وقلما يحاول الحكام ردعهم من جراء عجزهم وضآلة نفوذهم .

ان البدو المقيمين في الاراضي المسطحة مجمعون على مشاكسة الفلاحين الذين ينتقمون منهم بشن الغارة عليهم ، فيؤدي ذلك الى احداث فوضى هي شر من الاستبداد الرازحة تحته باقي البلاد .

واذا ما برحنا حوران الى الغرب ، وصلنا بعد مسير بضع ساعات الى مرتفعات هي في هذا الجانب الحلقة الاخيرة لجبال اليهودية ، والمسافر الذي يكون قد سئم تلك المناظر الوعرة التي فارقها ، يلقي نظره بارتياح على السهل الواسع المتساوي الذي يمتد عند قدميه حتى البحر المتوسط امامه ، فذلك هو السهل المعروف باسم فلسطين ، الذي تنتهي به ولاية سورية .

ايالة فلسطين

كانت ايالة فلسطين تشمل في اواخر القرن الثامن عشر الاراضي الواسعة من الجانب الواحد، ما بين البحر المتوسط غرباً، وسلسلة الجبال شرقاً؛ ومن الجانب الآخر، ما بين خطين، يبدأ احدهما عند خان يونس، ويمتد الآخر شمالاً من قيصرية حتى غدير يافا.

فهذه البقعة تتكون من سهل شبه متساوٍ لا انهار فيه، ولا غدران؛ غير ان تربته جيدة، وقد تكون كثيرة الخصب اذا ما جادت السماء عليها بالمطر. وهي سوداء دسمة، تدخر في جوفها من الرطوبة ما يكفي لانضاج البقول والحبوب في اشهر الصيف. لذلك يكثر فيها زرع الذرة والسمسم والبطيخ والفول والقطن والشعير. واما القمح فلا يزرعون منه الا ما هم في اقصى الحاجة اليه، لخوفهم من طمع الحكام واعتداء البدو.

وهذا الصقع هو الاكثر خراباً من سواه في سورية باجمعها، اذ الاغارة عليه سهلة لكونه مفتوحاً امام البدو، والذين يرغبون فيه، يفضلونه على غيره لخلوه من الجبال. لذلك لبثوا ردحاً يبارزون الحكام لاستيلاء عليه، حتى اكرهوهم على التخلي لهم عن جانب منه، بدل مال يؤدونه الى الدولة في مواعيد معينة؛ فاخذوا يشنون الغارة منه على المسافرين ويقطعون الطرق، وهو امر جعل السفر ما بين غزة وعكا محفوفاً بالاخطار.

وكان يتولى امر فلسطين حكام لهم لقب «باشا» وقد جرت العادة يومئذ بجعلها ثلاث اقطاعات، هي يافا ولد وغزة؛ فالاولى منها خُصت بسلطانة الوالدة، اي ام السلطان؛ والثانية والثالثة منحتها الدولة للرتبان الاعلى

مكافأةً له على ما قام به من الاعمال الحديدية ، وعلى قوده بالشيخ ظاهر العمر ، وهو يعطي التزامها بمئتين وخمسة عشر كيساً لآغا يقيم بالرملة اي ١٨٠ كيساً عن غزة والرملة ، و٣٥ كيساً عن اللد .

واما التزام يافا فانه امتد الى آغا آخر بمئة وعشرين كيساً يدفعها الى السلطانة الوالدة ، فيعتاض بالاموال التي يجبيها من المدينة والقرى المجاورة . غير ان الجانب الاكبر من دخله يأتيه من المكوس التي يتقاضاها على جميع البضائع صادرة كانت او واردة ، وهي لعمري ذات شأن ، اذ في يافا ينزلون الارز الذي ترسله مدينة دمياط الى القدس ، واليها يشحنون البضائع المعدّة للوكالة التجارية الفرنسية التي في الرملة ، ومنها ينزل الى البرّ الزوار الآتون من بلاد اليونان والاستانة ، واليها ترد غلال الساحل السوري ، ومنها يصدر القطن المغزول ، وتودع الغلال التي تبعث بها فلسطين الى مدنها الساحلية .

واما الجنود الذين تحت يد الآغا فعددهم ثلاثون ، فلا يقوون على حراسة الاماكن الموكول اليهم امرها . ومدينة يافا ليست حصينة ، ولا هي ذات مرفأ حسن . وانما فيها الآن المدفعان اللتان فيها قرب شاطئ البحر تجعلانها اهمّ مدن ذلك الساحل . وقد مكّنتاها في الحروب الاخيرة من مقاومة المغيرين عليها .

واما مرفأها فهو في اسوأ حال ، فلو ازالوا منه الردم المتراكم فيه ، لاستطاع استيعاب عشرين سفينة ، حمولة كل واحدة منها ثلاثمئة طن . لاجل ذلك تضطر السفن التي تأتي اليها ان تلقي مراسيها على مسافة فرسخ من الشاطئ ، وهي مع ذلك لا تأمن الخطر ، لان قعر البحر هناك كثير الصخور .

وكانت يافا قبل الحصارين الاخيرين اهمّ مدينة على الساحل . وكانت تكثر في جوارها بساتين البرتقال والليمون والكباد والنخيل والزيتون الذي

يشبه شجره دوح الجوز . فالمماليك قطعوا جميع تلك الاشجار للاستدفاء او للتسلية . على ان العدو لم يستطع ان يحرم بلدها الماء الطيب الذي يروي بساتينها وهو الماء الذي احيا جراثيم تلك الاشجار فأخذت تتشكل بسرعة .

وبلدة اللد التي تبعد عن يافا ثلاثة فراسخ ، عرفت في قديم الزمان باسم ديوسبوليس ، وهي اليوم تشبه مكاناً اغار عليه العدو بالنار والدمار ، فلا يرى في البقعة التي ما بين اكواخ السكان وقصر الآغا ، سوى انقاض واطلال وبيوت متهدمة . ومع ذلك تقام فيها سوق يتوافد عليها اهل القرى المجاورة لبيع القطن المغزول .

ونصارى اللد يشيرون باحترام الى انقاض كنيسة مار بطرس ، ويدعون الزوار الى الجلوس على عمود يزعمون ان القديس كان يجلس عليه . ويشيرون ايضاً الى مسكنين ، ويدعون ايضاً انه كان يصلي في الواحد منهما ، ويهبط الناس من على الآخر .

وعلى مسافة ثلث فرسخ من اللد بلدة الرملة اي اريماتيه القديمة ، وعلى جانبي الطريق المؤدية اليها سياجان من الصبر . والرملة كاللد مهدمة . وآغاها مقره قائم في دار سقفها وحيطانها متداعية . وقد قيل ذات يوم لاحد اعوان الآغا : « لماذا لا يصلح الآغا مقره ، ما دام يأبى ترميم الدار كلها ؟ » فقال : « وان عزل في العام المقبل ، فمن يعوضه من نفقات الترميم ؟ »

وتحت يده مئة فارس ومئة جندي مغربي ، ويقيم فريق منهم في كنيسة قديمة ، وفريق آخر في خان تسكنه معه العقارب والحشرات .

والاراضي التي في جوار هذه المدينة تعطي زيتوناً جيداً ، غرست اشجاره على خط هندسي لطيف ، وهي اشجار كبيرة كدوح الجوز . بيد انها قادمة على التلف من جراء قدمها او اهمالها او العبث بها .

والعبث بالشجر كثير الحصول في عهد الاعداء اذ القروي يأتي ليلاً شجرة خصمه وينشرها او يشقها عند اصل جذعها ، ثم يغطيه بتراب ، فتسيل مادتها وهكذا تتلف شيئاً فشيئاً .

وان اجتاز المرء بهذه البساتين يرى الكثير من الآثار الجميلة والصهاريج الخربة والمصانع المقببة مما يدل على ان المدينة كانت ذات سور محيط يبلغ الفرسخ ونصف الفرسخ . واما الآن فليس فيها مثنا نسمة .

والاراضي القلائل التي يفلحونها ويزرعونها ، يملكها الفتى او اثنان او ثلاثة من اقربائه . واهم ما يتعاطونه من الاعمال صنعة غزل القطن الذي يبتاعه منهم تجار فرنسيون . ويصنعون ايضاً الصابون فيبعثون به الى مصر . ومما يجدر بالذكر انه في سنة ١٧٤٨ عهد الى تاجر بندقي في اقامة طاحون هوائي في الرملة ، وهو الوحيد في مصر وسورية مع انه يقال ان مخترع دواليب الريح ورحى الهواء شرقي .

والاثر القديم في الرملة ، مئذنة جامع قديمة على طريق يافا ، يؤخذ من الكتابة العربية التي عليها ان بانيها الناصر محمد قلاوون احد سلاطين مصر . ويمكن تسريح الطرف من اعلاها على الجبال التي وراء السهل حيث بعض القرى الحقيرة التي تحمل في وجوه اصحابها طابع الذل والفقر . والبيوت هناك بعضها مفرد ، والبعض الاخر مؤلف من حجر مقببة حول باحة يحيط بها سور من لبن .

وفي فصل الشتاء ينام القرويون حيث تربض مواشيهم ، فيدفأون من غير ان يصطلوا بنار ؛ ففي ذلك توفير شيء في بلاد يعوزها الحطب . واما نارهم فهي من روث يجففونه اقراصاً يجعلونها في الشمس يلصقونها بحيطان اكواخهم . ولهم في الصيف مسكن آخر ليس فيه من الاثاث سوى حصير

وانمآء للمآء . ولا يزرعون الا الاراضي القريبة من مساكنهم ، واما البعيدة فيتركونها للبدو الذين يرعون انعامهم عليها .

وكثيراً ما يصادف المرء هنالك خرائب ابراج وشرف وقلاع حولها خنادق ، يقيم في بعضها رجل من قبل الآغا ، وثلاثة جنود ، لا يملك الواحد منهم سوى قميص وبندقية ، بينما البعض الآخر قد تُرك لبنات آوى والابوام والعقارب ، فتأوي اليها وتمرح فيها .

ومدينة غزة مؤلفة من ثلاثة احياء ، احدها قلعة خربة يشغل قصر الآغا جانباً منها ، وهو متداعٍ كقصر الرملة ، لكنه يطل على ما حوله الى ابعد مدى ، ومنه يرى البحر الذي يفصله عن المدينة ساحل من الرمال عرضه ربع فرسخ . وهذه البقعة تشبه اراضي مصر بشكلها المبسط والنخيل القائم فيها ، وقربها وموازاتها يماثلان هواء مصر وتربة شواطئ النيل . حتى ان السكان هم مصريون باقوالهم وعاداتهم ولهجتهم ولون بشرتهم اكثر مما هم سوريون .

وغزة هي عقدة الاتصال ما بين سورية ومصر ، لاجل ذلك ظلت مدينة ذات شأن ، مع ما طرأ عليها من تقلبات الدهر وعوامل الحدثان . وتدل الانقاض من الرخام الابيض التي فيها ، على انها كانت عامرة غنية . ثم ان تربتها السوداء كثيرة الخصب ، وبساتينها التي يرويها ماء عذب ، تعطي رماناً وبرتقالاً وتمراً جيداً .

وليست غزة اليوم سوى قرية سكانها لا يزيدون على الفي نسمة ، اهمّ صنائعهم الحياكة التي يستعملون لها نحو خمسمئة نول . وعندهم ايضاً معملان او ثلاثة معامل للصابون ، وكانت تجارة القلي رابحة ، وكان البدو يبيعونه منهم بابخس الاثمان . ولكن بعدما احتكره الآغا واجبرهم على بيعه منه بالسعر الذي يريده ، توقفوا عن جلبه . وهذا الرماد او القلي مرغوب فيه لكثرة الملح الذي يحويه .

والقوافل الرائحة والغادية فيما بين مصر وسورية مصدر ارباح حركة سكان غزة ، فمن غزة تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت والتمر ، وما يعوزها من المواد الغذائية في خلال الايام الستة او العشرة التي تقضيها في اجتيازها بالصحراء .

والتجار المصريون يقصدون الى ترعة السويس [illegible] فيها السفن الآتية من جدة ، او الذاهبة اليها ، فيتاجرون [illegible] ثلاثة ايام . ويوفدون كل سنة قافلة كبيرة الى الحجيج العائدين من مكة ، فيحملون اليهم المرطبات [illegible] ويقضون الليل في [illegible] التي تبعد مسير اربعة ايام من غزة جنوبا لشرق .

ثم انهم يتقاضون الاسلاب التي يأخذها [illegible] البدو ، فتدر عليهم الارباح الطائلة . ومسلوبات سنة ١٧٥٧ انهم تمكنوا لا تقع تحت حصر ، لان [illegible] المشرقي الف جمل التي كانت في نقل الحجاج ، حين [illegible] الى غزة ، فابتدر اتباع الاهالي الذين لا يعرفون سعر [illegible] ، عن [illegible] قيمة ، [illegible] مطرزة فروش شالات الكشمير والنسيج [illegible] والقماش الهندي والبن اليمني والصمغ العربي واللآلئ الرائعة .

ويروون حادثا يدل على [illegible] على سذاجة هؤلاء البدو ، وهو ان اعرابيا من قبيلة عنزة وجد بين الاشياء التي نهبها علبة صغيرة فيها اللآلئ الناعمة ، فظنها ذرة ، فقلاها قاصداً طبخها ، ولما رآها لم تنضج ، هم بطرحها جانباً ، [illegible] عربي واخذها منه ، واعطاه بدلاً منها طربوشاً احمر .

وقد حدث ايضاً مثل ذلك عندما [illegible] البدو قافلة الطور التي كان فيها [illegible] جرمن (١) . وقد نهبوا حديثاً قافلة الحجاج [illegible] التي كان

(١) Charles-Louis comte de St Germain كان وزير الحرب في ايام لويس السادس عشر ، وهو الذي اعاد تنظيم الجيش الفرنسي . مات في سنة ١٧٧٨ .

عددها ثلاثة آلاف . فالب الذي وقع في يدهم كان شيئاً كثيراً ، فهبط سعره في فلسطين هبوطاً كبيراً ؛ لكن الآغا حرم على السكان ابتياعه لكي يجبر البدو على بيعه منه . فذلك الاحتكار اتاه بارباح طائلة . فدخل السوري من اموال البدو ، والمكوس ، والالف والمئتين حملا التي يحتلسها من الثلاثة آلاف حمل المؤلفة منها « الجردة » ، والمغارم التي يفرضها على السكان ، يساوي ضعف المئة والثمانين كيساً التي هي بدل التزامه .

وتلي الصحراء غزة ، فلا يعني ذلك ان الاراضي هنالك غير مأهولة ، فانك ان سرت مسافة يوم بموازاة شطىء البحر ، رأيت زرعاً وقرى ، نذكر منها على سبيل المثال خان يونس الذي يشبه حصناً يحميه اثنا عشر مملوكاً ؛ وفي العريش الذي هو آخر مرحلة قبل ضاحية مصر ، يجد المسافر ماء زلالاً .

واذا ما توغلت في الصحراء شرقاً ، وسرت حتى طريق مكة ، رأيت اراضي مزروعة ؛ فهنالك اودية حيث بعض الآبار ، والامطار التي تتساقط في الصيف ، قد جلبت الى تلك الانحاء فلاحين هم اكثر وداعة ولطافة وبؤساً من البدو انفسهم .

والى جنوب البحر الميت شرق على بقعة من الارض ، يقطعها المسافر في ثلاثة ايام ، عدة مدائن خربة . في البعض منها اطلال عظيمة ، تدل اعمدتها على انها بقايا هياكل وكنائس قديمة ؛ والبدو الذين يرعون قطعانهم في جوارها لا يجرؤون على دخولها خوفهم من العقارب الضخمة التي تكثر فيها . فآثار كتلك تنبىء عما كانت عليه البلاد من العمران ؛ هي بلاد النباطيين الذين كانوا اقوى العرب قاطبة ، وموطن الايدوميين الذين كانوا لا يقلون عدداً عن اليهود في آخر ايام اورشليم كما يؤكد ذلك ما رواه يوسيفوس المؤرخ اليهودي من ان ثلاثين الفاً منهم اسرعوا الى نجدة اورشليم اذ علموا بزحف

تبطوس اليهـا .

ويبدو لنا ان عمران تلك الديار اوجدته فيها شرائع حسنة ، وتجارة رائجة ، ومن المشهور انه في عصر سليمان كان هنالك مدينتان واقعتان على خليج البحر الاحمر ، ترد اليها البضائع الوفيرة ، ويكثر التردد اليها ، فاحداهما هي العقبة ، والمكانان يسيطر عليهما البدو ، لكنهم لا يقيمون فيها ، اذ انهم لا يمارسون التجارة ، ولا يزاولون الملاحة . والحجاج المصريون الذين يمرجون عليها ، يرون ان في العقبة حصناً تخفره عساكر الاتراك ، وستمالاً عظيم القيمة في تلك الانحاء المقفرة النائية .

والايدوميون الذين لم ينتزع منهم اليهود تلك الثغور الا في فترات قصيرة ، كانوا يحتلون منهما منى ويسراً ضارعوا بها الصوريين الذين كانوا يملكون هنالك ثلاث مدن ، احداها ، وهي المجهولة الاسم ، تقع على ساحل الحجاز في برية التيه ، والثانية مدينة فران ، والثالثة مدينة الطور التي هي مرفأ لفران هذه .

وكانت القوافل تذهب من تلك المدن الى فلسطين واليهودية في ثمانية ايام اوعشرة ، سالكة طريقاً اطول من التي تصل السويس بالقاهرة ، واقصر من التي يذهبون عليها من حلب الى البصرة .

وبرية التيه هي ذات البادية التي قاد موسى الكليم العبرانيين اليها ، وطوحهم فيها ردحاً طويلاً ، ليدربهم على اساليب القتال ويجعل منهم شعب حرب [1] . والاسم « التيه » له علاقة بدرس كما يدل معناه ! وانه من الخطأ الاعتقاد انه ظلّ شائعاً بعامل النقل ، فلم يردده العرب الا لانهم يقرأونه في

(١) هذا فكر المؤلف . واما الروح [illegible] في [illegible] وتاههم الرب في البرية اربعين سنة حتى انقرض جميع [illegible] (عدد ٣٢ : ١٣)

التوراة والقرآن .

فتلك الصحراء التي تتاخم سورية من الجنوب ، تمتد بشكل شبه جزيرة ما بين خليجين واقعين على البحر الاحمر ، اي خليج السويس غرباً ، وخليج العقبة شرقاً ؛ فتتوسط عرضها ثلاثون فرسخاً ، وطولها ستون ، ومعظمها جبال ارضها قفار ، متصلة شمالاً بجبال سورية ، وهي مثلها مكونة من صخور جيرية لكنها صوانية في الجنوب ، كما هما حملا سيناء وحوريب ، لا ينبت فيها الا الطلح والاثل والرتم وبعض الشجيرات .

وينابيع الماء فيها نادرة الوجود ، فان وجد هنالك عين ، كان ماؤها كبريتياً حاراً ، كالعين التي يدعونها حمامات فرعون ؛ او اُجاجاً آسناً ، كالتي تدعى « النبع » ازاء السويس .

وفي الجانب الشمالي يكثر الملح المعدني ، بيد ان التربة في بعض الاودية ليست مالحة ، لانها مكونة من فتات الصخور ، فتصلح للزراعة ، بل تكون ايضاً خصبة اذا ما روتها الامطار ، كتربة وادي جرندل حيث بعض المياه ، ووادي فران حيث اطلال مدينة فران القديمة وكانوا في سالف الزمان لا يدعون تلك المزايا تذهب سدى . واما الآن وقد اهمل شأنها ، فلا ينبت فيها الا الحشائش البرية .

ببين تلك الوسائل البعيدة تقوم الصحراء بامشة ثلاث قبائل عدد افرادها يناهز ستة آلاف ، يدعونهم بدو طوارة ، نسبة الى الطور الواقع على الساحل الشرقي لذراع السويس في بقعة رملية منخفضة ، ومرفئه ان فيه رصيفا جيداً وماء عذباً تأخذ منه حاجتها السفن الداهبة الى جدة . وليس هنالك الا بعض النخيل ، وحصن حرب ، ودير للروم حرب ايضاً ، واكواخ يقيم فيها عرب فقراء . والقبائل الثلاث تعتمد لاجل معيشتها على تمرها واماها والصمغ

الذي تجمعه من شجر الطلح وتبيعه في مصر ؛ وايضاً على ما تقضيه في السفرات التي تقوم بها على طريقي الحج والسويس .

وهؤلاء البدو ابن عمهم جبل كما عند غيرهم من القبائل بما انه لا مرعى له في تلك الانحاء ، فيستاضون منه بضعان من الابل التي تمتاز من غيرها ببياضها، ونعومة وبرها ، ورشاقة اعضائها ، وخفة حركاتها ومقدرتها على الجري السريع ؛ وفي وسعها ان تسير سيراً متواصلاً ثلاثين او اربعين ساعة بلا أكل ولا شرب . ويستخدمونها في نقل البريد وقطع المراحل الشاسعة ، وانما يجب ان يألف المرء حركاتها ، اذ ركوبها قصي حتى امهر الفرسان .

ان زيارة الروم لدير جبل سيناء تعد الاروح الطيبة على بدو الطور . فالروم الارثوذكس يكرمون احسن تكريم القديسة كاترينا ، ويعتقدون ان في هذا الدير رفاتها ؛ ويحجون لقامها ، ولو مرة واحدة ، يعدونه من اعمال البر التي تجلب البركات ومغفرة الزلات . لاجل ذلك يقصده الزوار من القسطنطينية واقاصي بلاد اليونان ؛ فيجتمعون في القاهرة حيث رهبان جبل سيناء لهم عملاء ؛ وهؤلاء يتفقون مع العرب على مواكبة الزوار حتى الدير باجر قدره خمسة وعشرون قرشاً من كل شخص .

وعندما يصل الزوار الى الدير يقومون بفرائض العبادة ، يزورون الكنيسة ويقبلون الذخائر والايقونات ، ويصعدون الى جبل موسى زحفاً على الركب ويختمون زيارتهم باعطائهم الدير ما يتيسر لهم من المال . غير ان مقدار العطاء لا يقل عن مئة قرش او مئة وعشرين .

فتلك الزيارة لا تحدث الا مرة واحدة في السنة . واما الاقامة في الدير فانها ليست من الامور المبهجة ، نظراً الى بعده ، وانفراد موقعه ، فليس حوله سوى صخور هائلة كثيبة . والجبل الذي يقوم الدير على سفحه ، مكوّن من

كتلة عظيمة من الصوان تبدو كأنها ستنهار عليه . وهو يشبه سجناً مربع الشكل ، ليس في سوره سوى فتحة واحدة ، يدلي الرهبان منها سلة لمن يروم الدخول ، ثم يسحبونها وهو فيها .

واما الباعث على هذا الاحتراز فهو الخوف من البدو الذين يدخلون الدير عنوة ان فتح بابه الكبير ، الذي يظل موصداً ولا يفتحونه الا للمطران الذي يفد عليهم مرة كل سنتين او ثلاث سنين . وزيارته كثيرة النفقات بداعي الاتاوة التي يتقاضاها البدو آنئذ . وعلى الرهبان ان يقدموا لهم كل يوم عدة حصص من الطعام ، والنزاع الذي ينشب من حين الى آخر بسببها ، كثيراً ما يؤول الى رجم الرهبان واطلاق الرصاص عليهم .

وهؤلاء الرهبان لا يغادرون قط ديرهم ، وقد توصلوا ، بجهودهم وطول اناتهم ، الى احداث حديقة على تلك الصخور ، بنقلهم التراب اليها ، فهي متنزههم . ويجنون من اشجارها ثمراً فاخراً ، كالعنب والتين والاجاص الذي يهدونه الى كبار قومهم في القاهرة .

وتشبه حياتهم النسكية حياة زملائهم من الروم والموارنة الذين في لبنان ، اي انهم يقضون الوقت في الصلاة والعبادة والاعمال المفيدة . بيد ان رهبان لبنان يعيشون بأمان واطمئنان بخلاف رهبان دير سيناء .

ثم ان حياة السجن والانزواء هذه المجردة من كل تنعم وتجدد هي حياة جميع الرهبان في الشرق ، فعلى هذا المنوال يعيش رهبان دير مار سمعان في شمال حلب ، ودير مار سابا القريب من بحيرة لوط . وهكذا ايضاً يعيش اقباط ديورة مصر ، كالقديس مقار والقديس انطونيوس .

فجميع تلك الديارات هي كالسجون ، لا نافذة لها تطل على الخارج الا التي تأتيهم منها مؤونتهم واقواتهم . وهي مشيدة في اماكن بشعة قفرة ، لا

يرى فيها سوى حجارة وصخور ، ومع ذلك تجد الرهبان فيها عديدين ؛ فخمسون منهم يقيمون في دير طور سيناء ، وخمسة وعشرون في دير مار سابا ونحو ثلاثمئة في ديورة صحارى مصر .

نظرة شاملة

تتألف البلاد السورية من ثلاث قطع مستطيلة تنبسط احداها بموازاة البحر الابيض ، وهي وادٍ رطب ، هواؤه ليس حسناً بدوام ، وانما تربته وافرة الخصب .

والقطعة الثانية تتاخم الاولى ، وهي جبلية ، وعرة المسالك والمعابر ، لكنها طيبة الهواء .

وتقع الثالثة الى ما وراء الجبال شرقاً ، فتجمع بين حرّ القطعة الاولى وجفاف الثانية .

وقد رأينا كيف تمتاز سورية بعدة مزايا من حيث تربتها وجودة هوائها فتبدو كأن الله جعلها المكان الاكثر ملاءمة للسكنى . على انها تفتقر الى الخضرة البهجة التي تزدان بها على الدوام بعض البلاد الاوربية ؛ فلا ترى فيها العشب الاخضر ، ولا الزهر الزاهي ، ولا الغابات الرائعة التي تسبغ البهجة والنشاط ، وذلك امر ناشئ من عوامل عرضية اكثر منها طبيعية .

ولولا الخراب الذي جلبه عليها ابن آدم لكست النباتات معظم انحائها .

ومن البديهي ان الارض الغزيرة المياه في الاصقاع الحارة ، تكون وافرة النبات إن اعتني بها . فهي حينئذ تزهر وتثمر . والاثمار الازهار وهكذا دواليك . وبذلك تمتاز البلاد الحارة عن البلاد الباردة .

وفي الانحاء المعتدلة اعوآ تظل الطبيعة جامدة عدة اشهر ، فيذهب ثلث بل نصف السنة في سبات لا حياة فيه ، لان الارض التي حملت الحبوب لم يبقَ لها متسع من الوقت لتنبت البقول قبل انقضاء اشهر الصيف ، فلا يبقى والحالة هذه امل في جني غلة ثانية . فالفلاح يجد نفسه حينئذٍ مضطراً الى العطلة والبطالة .

واما في سورية فان الامر ليس كذلك ، فان كانت غلالها هي دون ما تستطيع اعطاءه ، فالباعث الاول والاكبر يعود الى سوء الحكم القائم فيها .

ولنلخصْ ما شرحناه مطولاً عن دخل الدولة وعساكرها ، وعدد السكان ، فنقول : تدفع سورية الى خزينة الدولة الفين وثلاثمئة وخمسة واربعين كيساً ، وهي جملة الضرائب المفروضة عليها ، واليك تفصيلها :

٨٠٠ كيس تدفعها حلب
٧٥٠ كيساً « طرابلس
٤٥ « « دمشق
٧٥٠ « « عكا

٢٣٤٥ (اي ما يعادل ٢٬٩٣١٬٢٥٠ ليرة من نقود فرنسة في القرن الثامن عشر ، او ١٬٢٧٢٬٠٠٠ قرش تركي ذهباً) .

ويجب ان نضم الى هذا المبلغ : اولاً – قيمة تركات الباشوات والافراد ، وهي تناهز الف كيس ، ثانياً – الجزية اي مال الاعناق ومال الجوالي

المفروض على المسيحيين ، وينظر في امره ديوان خاص تابع لبيت مال الدولة في الآستانة . واما مسيحيو البلاد التي حق تأديتها منوط بالباشا الحاكم ، كبلاد الموارنة والدروز ، فهم معفون منه ، وهو على الشخص الواحد ، ثلاثة او خمسة قروش او احد عشر قرشاً ، وقد يصعب تقدير مجموعه ، وانما اذا فرضنا ان عدد الذين يؤدونه مئة وخمسون الفاً ، ومتوسط ما يؤديه الواحد منهم ستة قروش كانت الجملة تسعمئة الف قرش .

فلا نخطئ ان قدرنا سبعة ملايين ونصف مليون ليرة جملة المال الذي تدفعه سورية الى خزينة الدولة . واما ما يجبيه « الملتزمون » فيكون تقديره كما يلي :

١٬٠٠٠ كيس – حلب
٢٬٠٠٠ « – طرابلس
١٠٬٠٠٠ « – دمشق
١٠٬٠٠٠ « – عكا
٦٠٠ « – فلسطين
٢٤٬٩٠٠

فهذا المبلغ هو دون ما تستطيع سورية دفعه ، لان ارباح « الالتزامات » التي يعهد فيها الحاكم الى الافراد ، كما هو جار في بلاد الدروز والموارنة والنصيرية ، لم تدخل في هذا الحساب .

والجنود في سورية لا يتناسب عددهم مع ما يجب على بلاد ذلك هو دخلها ، ان يكون فيها . اذ جميع الجنود في سورية من مشاة وفرسان لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف وخمسمئة ، متوزعين عليها كما يلي :

حلب	٦٠٠ فارس	٥٠٠	من	مغاربة	مشاة
طرابلس	٥٠٠ «	٢٠٠	«	«	«
عكا	١٬٠٠٠ «	٩٠٠	«	«	«
دمشق	١٬٠٠٠ «	٦٠٠	«	«	«
فلسطين	٣٠٠ «	١٠٠	«	«	«
	٣٬٤٠٠	٢٣٠٠			

وعند الضرورة يضم الباشا الانكشارية الى هؤلاء الجنود، كما انه يدعو اناساً آخرين الى الالتحاق بهم؛ فهكذا تألفت بسرعة تلك الجيوش التي رأيناها تشن الحرب على الشيخ ظاهر العمر، وعلي بك المصري. بيد ان ما بسطناه من نظامها، والاساليب التي تتبعها في حروبها، يدل على ان سورية، من حيث الدفاع، هي دون مصر. على ان الجندي التركي خليق بكل اعجاب، نظراً الى زهده وجودة صحته. وهما ميزتان تجعلانه يستطيع ان يعيش في افقر الاصقاع، ويتحمل اشد المتاعب والمشقات، بما انه اعتاد الحياة الشاقة منذ الصغر اذ كان في الحقل يفترش الارض ويلتحف السماء. لاجل ذلك لا يشعر بميل الى التنعم، ولا هو يبالي بشظف العيش في المعسكر.

ولئن قابلنا سورية بمصر، رأينا بينهما بوناً شاسعاً من حيث مقدرة كل منهما على الدفاع عن نفسها، فمصر تستطيع ان تحمي نفسها براً بصحراواتها وبحراً بسواحلها. واما سورية فانها مفتوحة من البرّ عن طريق ديار بكر ومن البحر عن طريق سواحلها التي يسهل الاقتراب منها.

واما مصر فالدنوّ منها ليس بالامر الهيّن؛ ومن يحاول فتحها يصعب

عليه البقاء فيها ، لانها تستطيع التملص منه بسهولة . ومن يستولي على سورية يتعذر اخراجه منها لان الاحتفاظ بها سهل .

وما ذلك الفرق بينهما الا لان مصر تقع في سهل ، فالحرب فيها تدور بسرعة بخلاف سورية التي جبالها تجعل الحرب مكانية ، وانكسار احد الخصمين فيها لا يحرم الآخر وسائل الدفاع .

واذا حاولنا تقدير عدد سكان سورية . بالاستناد الى بعض الادلة حصلنا على الاحصاء التالي :

٣١٠٬٠٠٠	ولاية حلب
٢٠٠٬٠٠٠	« طرابلس ما عدا كسروان
١١٥٬٠٠٠	كسروان
١٢٠٬٠٠٠	دروز
٣٠٠٬٠٠٠	ولاية عكا
٥٠٬٠٠٠	فلسطين
١٬٢٢٠٬٠٠٠	ولاية دمشق
١٬٣٠٥٬٠٠٠	الجملة

الفلاحون والفلاحة (1)

في سورية بل في البلاد العثمانية بمجموعها، يُعدّ الفلاحون كغيرهم من السكان عبيد السلطان. غير ان لفظة «عبيد» تعادل هنا كلمة «رعايا». ولا ريب ان السلطان هو السيد المطلق، لكنه لا يبيع الناس كما يُباع الرقيق، ولا يكرههم على الاقامة في مكان معيّن. واذا منح احد كبار دولته اقطاعة ما، فلا يعني ذلك انه قطعه في الوقت ذاته عدداً معيناً من الفلاحين، كما هو جارٍ في روسية وبولونية. وقصارى القول ان الفلاحين في سورية يرزحون تحت عبء الحكومة وجورها، من غير ان يكونوا عبيداً لاصحاب الاقطاعات، ارقّاء لهم.

ولما فتح السلطان سليم سورية، اراد ان يجعل جباية الضرائب سهلة، فلم يفرض سوى ضريبة واحدة، واعني بها «الميري». ويبدو لنا ان هذا السلطان مع ما كان عليه من قسوة الطبع، شعر بضرورة مراعاة حالة الفلاح. فلو قابلنا الميري بمساحة الارض لرأيناها في غاية الاعتدال، لا سيما وان عدد سكان سورية كان آنذاك اكثر منه في القرن الثامن

---

(1) حاول فولني قبل طرقه هذا البحث ان يشرح طريقة الحكم في سورية، وسرد العوامل التي جعلته مستبداً جائراً: لا عدل فيه، ولا رحمة [illegible] له شكل غث فاسد [illegible] في كثرته على الاستبداد، وتأثير الدين في المعاملات، والعلاقات التي [illegible] الحكام والرعية. وكتب عن كل موضوع فصلاً خاصاً، مبدياً كثيراً من الآراء التي لا يمكننا موافقته عليها. لاجل ذلك طوينا كشحاً عنها، لنوفر على القارئ مشقة مطالعتها، فهي مسهبة اكثر منها مفيدة.

عشر . ولربما كانت تجارتها اذ ذاك لا تقل عما صارت اليه بعدئذٍ ، لان « رأس الرجاء الصالح » لم يكن في ذلك الحين مقصوداً كثيراً ، فكانت سورية واقعة على الطريق المعتدل على غيره من الطرق المؤدية الى الهند .

ولكي تجري الجباية بانتظام ، جعل لها السلطان دفتراً او سجلاً عيّن به ، سهم كل قرية ؛ اي انه جعل الجبايات لئلا يجوز احد على الحق به . ففي حالته تلك لم يكن ثقيلاً على كاهل الشعب . غير ان عيوب نظامه جعلت الحكام وعمالهم من حمله مرهقاً . وبما انهم لم يجرؤوا على العبث بالضريبة التي سنّها السلطان بجعله الضريبة غير قابلة الزيادة او النقصان . فقد اضافوا اليها عدة فروض تعمل عمل الضرائب ، ولو انها لا تدعى ضرائب . ومن ذلك انهم لا يتنازلون لاحد عن اي جزء من الارض المعطاة لهم ، الا بشروط باهظة ، فيطالبون بنصف الغلة او ثلثيها . ويحتكرون ايضاً البذور والحيوانات ، فيضطر الفلاح ان يشتريها منهم باسعار تزيد على قيمتها الحقيقية . وعندما يتسلمون الغلة منه ، يحاكمونه متهمين بنقصانها ، او مدعين اختلاسه لجانب منها . وبما انهم اصحاب السلطة والنفوذ ، فيأخذون قسراً ما يريدون . واذا جاءت السنة ماحلة فلا يأبهون به ، ولا يصطبرون عليه ، بل يطالبونه بما عليه ويبيعون جميع مقتنياته ليستوفوا دينهم منه . ومن حسن الصدف انه لا يحكم عليه بالسجن ان لم يعد يملك شيئاً ، فيغدو اذ ذاك حراً طليقاً .

وقد يضيفون الى تلك المعاملة المرهقة اعمالاً اخرى ، فتارة يفرضون غرامة على القرية باجمعها لذنب ارتكبه بعض سكانها ، او اتهموا به زوراً ، وتارة يوجبون عليها ضرباً جديداً من السخرة ، فيطالبونها بهدية لدى قدوم حاكم جديد ، او بتأدية علف الى خيله وخيل فرسانه ، ويجبونها من قرآه

الجنود الذين يرون بها اتفاقاً ، او يأتونها قصداً يبلغونها اوامر الحكام .

وقد يبذل الحكام جهدهم الاكثار من تلك البعثات التي تؤول الى اقتصادهم في النفقات ، ولو انها ترهق الفلاحين . والقرى ترتعش خوفاً ان وفد عليها « لاوند » فهو لعمري لص قد انتحل اسم « جندي » . فيدخل القرية كأنه فاتح ، ويأمر كأنه المولى المطلق السلطة . وبعد ما يرحل يطالب بنفقة ما يسمونه « كرا الفرس » .

والفلاحون يستغيثون من هذا الظلم ، ولا من مغيث ، فتتوسط الحال فيهم تتأخر اشغالهم ، ويتضاءل دخلهم ، ويعجزون في نهاية الامر من تأدية « الميري » فيحبسون حتى على عجزهم ، او يهربون الى المدن . وبما ان الميري مقداره ثابت ، اي انه لا ينقص ولا يزيد ، ومن المحتوم وفاؤه بتمامه ، فالمفروض عليهم منه ، يترتب على القرويين الآخرين القيام بدفعه . وهكذا الحمل الذي كان في بدء الامر خفيفاً ، صار مع التوالي ثقيلاً . واذا حصل محل على مدار سنتين متواليتين ، هدمت القرى بجملتها ، واقفرت من سكانها ، غير ان « ميريهم » يقع حينئذ على جيرانهم .

وذات الامر يحدث في ما يختص « بجزية » النصارى التي تعينت في الاصل بمقتضى احصاء امرت به الدولة ، فيجب الا ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء ، فمثلاً اذا انقرض عن بلدة نصف من سكانها المسيحيين ، فعلى الباقين منهم ان يقوموا بتأدية الجزية المفروضة على الجميع ؛ فيصبح عندئذ على الشخص الواحد خمسة وثلاثين او اربعين قرشاً ، فيؤول ذلك الى انتقال كامل ذلك الشخص ، او اكراهه على غير دينه .

ثم ان اصحاب الاقطاعات يطلقون يد الملتزم ، رغبة منهم في زيادة

دخلهم ؛ فالملتزمون هم الذين اتقنوا اسلوب فرض المغارم والعوائد واوجدوا رسماً على الاحمال والغلال . فاساليب السلب راجت رواجاً عظيماً في اواسط القرن الثامن عشر ، حتى تفاقمت من جرائها حالة الارياف ؛ فاقفرت القرى واندثرت العساكر والمزارع ، فتضاءلت الاموال التي كانوا يبعثون بها الى الاستانة .

واما البدو فاذا كانوا في حرب نهبوا بحجة انهم يصيبون اعداءهم واذا كانوا في السلم انتهبوا كل شيء باعتبارهم ضيوفاً . ولاجل ذلك يقول المثل : « احذر البدو ان صديقاً وان عدواً » .

واصاب الفلاحين دوماً فلاحو البلاد التي تغاضت عنها الدولة ، كبلاد الدروز وكسروان ونابلس وعجلون ، ثمة مصدر اذى آخر يجب عده من اكبر الضربات التي تنزل بفلاحي سورية ، الا وهو الربا الفاحش ؛ فان احتاج القروي الى بذار او بهيمة او غير ذلك ، فانه لا يجد المال لشرائها الا ان باع سلفاً وبابخس الاثمان جميع غلته او قسماً منها .

واظهار المال امر خطر ؛ لاجل ذلك من لديه مال يحرص عليه ويحجبه ولا يرضى بالتخلي عنه الا اذا اتاه بربح وافر سريع . واقل الادنى اثنا عشر في المئة ، والعادي عشرون ، وكثيراً ما يكون ثلاثين .

فيتضور القروي جوعاً من جراء ذلك كله فتجده مضطراً الى الاقتيات بخبز الذرة والشعير ، والبصل والعدس المطبوخ في الماء ، وعلماً انه لم يأنس الاكل الطيب ، فيحسب الزيت الحاد والدهن الزنخ الذ المآكل واطيبها ولئلا يفقد شيئاً من الحبوب يبذل فيها ما هو غريب عنها ، حتى الزيوان الذي يسبب دواراً وصداعاً يدومان بضع ساعات . وفي لبنان ونابلس يأكلون في ايام المحل البلوط المشوي تحت الرماد .

ولا يملك القروي بسبب ضيق ذات يده ما هو في حاجة اليه من عُدد الفلاحة ؛ فان كان لديه شيء منها ، فهو من الصنف الذي لا يجديه كبير نفع . فمحراثه ليس في الغالب سوى فرع شجرة له شعبتان ، ويفلح به على الحمير والبقر ، وقلما يستخدم الثيران ، لان الثور دليل الغنى الذي يثير طمع الحكام .

وفي الانحاء المعرضة لاعتداء البدو ، كما هو الحال في فلسطين ، يضطر الى حمل بندقيته عندما يزرع حقله ، وما ان تنضج السنابل حتى يبادر الى حصدها ودرسها واخفاء قمحها في المطامير ، ولا يأخذ منه للبذر الا ما يعطيه المقدار الذي لا يمكنه الاستغناء عنه . لاجل ذلك يقتصر الفلاحون على ما هم في شديد الحاجة اليه من قوت ولبس ، عائشين في ضيق دائم .

الصناعة والتجارة والبضاعة

ان التجار وارباب الحرف في سورية اقل بؤساً من قروييها وفلاحيها ، اذ ما يملكه التاجر او الصانع مؤلف من اشياء يسهل نقلها ، فلا يقع نظر اولياء الامر عليها . ومن الصعب ان يسحق الصانع والتاجر المقيمان في المدن من ظلم الحكام وجشعهم . وهذا الامر هو احد البواعث على اكتظاظ مدن سورية بل سائر مدن تركية . واذ لا مأوى في المدن من فلاحي البلاد الاخرى الا الذين يبعث درهم في حاجة الى سواعدهم . فان فلاحي سورية يلجأون الى المدن هرباً من الظلم ، فيهجرون اراضيهم التي لا غنى لها عنهم ، ويجدون في ملاجئهم الامان والطمأنينة .

والحكام يبذلون قصارى جهدهم حتى السكينة مستتبة في المدن ، فسلامتهم ذاتها قائمة عليها ، وربما كانت عاقبة ثورة او انتقاض وبالاً عليهم . ثم ان الباب العالي يشترط عليهم ان يوفروا في ادنى اقوات الشعب ؛ لاجل ذلك يبذلون ما في وسعهم لجلب المواد الغذائية بخفض الاسعار في الاماكن الكثيرة السكان ، وعلى الاخص في المدن التي يقيمون فيها حتى اذا حدثت مجاعة ، كانت هنالك ضحية الولاة ، فيحظرون عندئذ نقل الحبوب الى بلد آخر ، ويجبرون اصحابها ، تحت طائلة العقاب الشديد ، على بيعها بالاسعار التي يعينونها ؛ واذا خلت من المدينة ، جلبوها من الخارج ، كما حدث في دمشق سنة ١٧٨٤

ففي تلك السنة اقام الوالي المراقبين على الطرق ، واوعز الى البدو بنهب جميع الاحمال المعدة لغير دمشق . وامر سكان بلاد حوران باخراج جميع الحنطة من مطاميرهم . لاجل ذلك لم يدفع الدمشقي آنئذ

ثمناً لاقة خبز سوى ثلاثة بارات [1] بينما كان الفلاح يتصور جوعاً .

ويمكننا ان كل شيء له رد فعل ، فالضرر الذي لحق حينئذ بالفلاحة ، أثّر في الصناعة والتجارة . واما التجارة هنالك فهي اليوم كما كانت عليه في سالف الزمان ، اذ كانت الدنيا غائرة في لجة الجهل والبداوة . فعلى الساحل السوري بجمعه لا تجد مرفأ تستطيع سفينة تستوعب ما زنته اربعمئة طن ، ان ترسو فيه ، وارصفة المرافئ الباقية حتى الان معرضة لاعتداءات الاعادي ، اذ ما من حصون تحميها . فقرصان مالطة كانوا يدنون من تلك الارصفة ، ويدلون الى البر ، ويغنمون ما استطاعوا . وما ذلك الا لانه لم يكن هنالك ما يصدهم . وبما ان السكان كانوا يلقون على عاتق التجار الاوربيين تبعة تلك الاعتداءات ، فالدولة الفرنسية توصلت بمساعيها الى رد القرصان عن الساحل السوري . فصار في وسع السكان ان يركبوا البحر بلا خوف . لذلك اخذت الملاحة تروج ما بين اللاذقية ويافا .

وسورية ليس فيها طرق منظمة ، ولا ترع ملاحية ، ولا جسور على الانهر ومجاري السيول . ووسائل اتصال مدينة بمدينة معدومة . والبريد البري هو وحده الذي يأتي من الاستانة الى دمشق عن طريق حلب ، ولا يحط الا على مقربة من المدن الكبرى . وقد اجازوا له ان يأخذ عند الضرورة فرس اي مسافر يصادفه . وينتظر دوماً فرساً ثانياً عملاً بعادة شائعة عند الترك ، وكثيراً ما يصطحب رفيقاً ، احترازاً مما عساه ان يحدث له من المفاجآت . وتوصيل الرسائل من مدينة الى مدينة يتم بواسطة المكارين ،

(1) اربعون بارة تساوي قرشاً تركياً ذهبياً .

غير ان سفرهم ليس له مواعيد معينة ، كما انهم لا يستطيعون السفر الا في القوافل . وما من احد هنالك يقدم على السفر بمفرده ، نظراً الى فقدان الامن . فيجب على من يروم الذهاب الى مكان ما ، ان ينتظر قيام حملة مسافرين قاصدين ذات المكان ، او يتحين سفر احد الناس من ذوي النفوذ الذي يحمل معه حامي القافلة ، ولو انه يكون في غالب الاحيان هو المستبد بها . فاحتراز كهذا لا بدّ منه ، وعلى الاخص في الجهات المعرضة لاعتداء البدو ، كفلسطين واطراف البادية . والطريق التي ما بين حلب والاسكندرون حيث يكثر اللصوص .

والشواهق الجبلية وعرة ، والقرويون بدلاً من تمهيدها ، يزيدونها وعورة وصعوبة ، ليحولوا دون وصول فرسان الحكام اليهم .

وليس في سورية كلها عجلة او مراكب ، لخوف السكان من استيلاء الحكام عليها . وجميع الاشياء يجري نقلها على الدواب ؛ فيستخدمون في الاماكن الجبلية البغال والحمير ، لانها تستطيع تسلق الصخور والانحدار من عليها . ويغلب استعمال الجمل في السهول ، وزنة حمله العادي سبعمئة وخمسين ليبرة (أي نحو ثلاثة وسبعين كيلوغراماً) . وهو لا يأنف من أكل اي علف كان ، ان نباتاً او عوسجاً ، او معجنات قمح معجونة ، او فولاً . فليبرة واحدة من العدس ، وليتر ماء ، يكفيانه مؤونة يومه . ويمكن تسييره اسابيع . ويقطع في الاربعين ساعة او ست واربعين ، بما فيها ساعات الاستراحة ، المسافة التي ما بين السويس والقاهرة ، من غير ان يأكل او يشرب . الا ان امتناعه المتواتر من الاكل يضعفه ، فيبخر حينئذ فمه حتى تنبعث رائحته كرائحة الجيف . وسيره الطبيعي بطيء ومن العبث استحثاثه على الاسراع لانه لا يستطيع تغيير سيره .

واما الفنادق فلا وجود لها في تلك البلاد . وفي كل مدينة او قرية كبيرة بناية تدعى خاناً يحط به المسافرون . وهي مؤلفة من اربعة اجنحة في وسطها باحة . وغرفها صغيرة عارية لا شيء فيها سوى العقارب والغبار ؛ فصاحب الخان يعطي المسافر مفتاح احداها وحصيراً ، وعلى المسافر ان يهتم بما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش ؛ لاجل ذلك يحمل معه اينما ذهب فراشه ، وادوات مطبخه ومؤنته . ومن عادة الشرقيين ان يجعلوا عدة سفرهم خفيفة سهلة النقل فما يأخذه معه مسافر يرغب في ان لا يعوزه شيء ، سجادة ، وفرش ، ولحاف ، وقدران الواحدة اصغر من الاخرى وصحنان ، وابريقان ، وابريق للقهوة ، ورفّ صغير من الخشب لحفظ الملح والبهار ، وستة فناجين بلا عروة تدمج بعضها في بعض داخل غلاف من جلد ، وسفرة مستديرة من جلد تعلق بالسرج ، وقرب صغيرة للزيت والماء والعرق اذا كان المسافر مسيحياً ، «وغليون» ، وقداحة ، وطاس ، وشيء من الارز ، والزبيب ، والتمر ، والجبن القبرصي ، والبن الاخضر ، ومحمصة ، وهاون خشب لسحق البن .

ان الشرقيين يفوقون غيرهم من حيث مقدرتهم على الاستغناء من اشياء كثيرة استعماله مفيداً . والاوربيون لا يكتفون بادوات السفر تلك ، بل قلّ ما يسافرون نظراً الى نفقاتهم الباهظة ؛ بينما نجد اكثر السوريين فيّ لا يستنكفون من قضاء جانب من عمرهم على طريق بغداد ، او البصرة ، والقاهرة ، او الاستانة ؛ فاذا قلنا هذا الرجل تاجر ، فكأننا نقول هو مسافر .

فهكذا يتمكن التجار السوريون من شراء البضائع من مصادرها الاصلية باسعار ملائمة ، ومن المحافظة عليها بحملها معهم ، وصيانتها من

التلف . وقد يتوصلون ايضاً الى نيل بعض الاعفاءات من المكوس والرسوم ، والى انقاصهم معرفة الاوزان والمكاييل التي تعددها وتباينها يجعلان المتاجرة في غاية الصعوبة ؛ لان كل بلد له اوزانها ومكاييلها ؛ فرطل حلب يساوي نحو ست ليبرات ؛ ورطل دمشق خمس ليبرات وربع الليبرة ؛ ورطل صيدا اقل من خمس ؛ ورطل الرملة نحو سبع واما الدرهم الذي هو اساس جميع هذه الاوزان ، فانه لا يتغير اذ هو واحد في كل مكان . واما المقاييس فليس منها الا اثنان هما الذراع المصري ، والذراع الاستنبولي .

« والنقود قيمتها ثابتة ، ويستطيع المرء ان يجول في جميع انحاء المملكة من غير ان تدعوه الحاجة الى ابدالها واصغرها البارة التي تدعى ايضاً « معدنا » او « فضة » او « قطعة » او « مصرية » ويليها الخمس بارات ، والعشر ، والعشرون ، و « والزلطة » التي تساوي ثلاثين بارة ، فالقرش الذي يقال له ايضاً « القرش » الاسدي ، وقيمته اربعون بارة ، وهو الاكثر تداولاً ، ويليه قرش « ابو كلب » وقيمته ستون بارة .

وجميع هذه النقود يسكونها من الفضة الممزوجة بكثير من النحاس وليس على اي قطعة منها نقش يمثل هيئة انسان او غيره ؛ فلا يرى عليها سوى شعار السلطان وهذه الكلمات : « سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان بن السلطان ... ضرب في القسطنطينية او في مصر . » وهما المدينتان اللتان يضربون فيهما النقود .

واما القطع الذهبية فهي صنفان ، « الصدقي » و « الزهر المحبوب » .

فتلك هي نقود الدولة ؛ لكنهم يتداولون ايضاً بعض النقود الاوربية كالريال الفضي الالماني ، وذهب البندقية الذي يرغبون فيه كثيراً ، لانه نقي المعدن ، فتتحلى به النساء بثقب قطعه وجمعها في سلسلة من ذهب يدليها من عنقهن الى صدرهن . وكلما اكثرت امرأة من تلك القطع والسلاسل ازداد زهوها ومباهتها .

هو حب الظهور الذي يدفعهن الى ذاك التبرج ، حتى الفلاحات ايضاً يحملن على هذا النمط ، بدلا من قطع الذهب ، قروشاً او نقوداً اخرى دون القرش قيمة . على ان نساء الطبقة الرفيعة لا يأبهن للقطع الفضية ، فلا يرغبن الا في الذهب المدقق ، او النقود الاسبانية الكبيرة فالبعض منهن يحملن منها مئتي قطعة او ثلاثة يدلين قسماً منها من عنقهن ، وقسماً يصففنه ثم يشددنه على جبينهن عند حاشية عصائبهن . فتلك القطع الكثيرة هي في الحقيقة وقر لكنهن يحملنها بطيبة نفس نظراً الى ما يشعرن به من فخر وارتياح عندما يعرضنها في الحمامات مصرحات بها بعيان احسد والغيرة في قلوب اترابهن .

واما تأثير ذاك التبرج في التجارة فهو حبس مبالغ طائلة من المال عنها . فان اعيد المال بعدئذ الى التداول في الاسواق ، وجب وزن كل قطعة منه ليعرفوا مقدار النقص فيها من جراء ثقبها .

ووزن النقود شائع في سورية ومصر وسائر بلاد الدولة ؛ فانهم يقبلون جميع النقود مهما طرأ عليها من تلف . لان التاجر يعمد الى ميزانه ، فيقدر قيمتها . والامر ذاته جرى عندما اشترى ابرهيم الخليل رمسه . ولدى تداولهم مبالغ ذات شأن ، يأتون بصراف ؛ فيعد الوقت الساعات طارحاً جانباً القطع المزيفة . واما القطع الذهبية فانه

يزنها كلها دفعة واحدة ، او كل قطعة بمفردها .

ويزاول التجارة في سورية المسيحيون والروم والارمن . وكانت فيما مضى في يد اليهود . واما المسلمون فانهم لا يكترثون لها . واعراضهم عنها ليس ناشئاً من خمول ، او مراعاة لعقائد دينية ، كما ظنه البعض . فانهم لا يبالون بها نظراً الى العراقيل التي وضعتها الدولة في سبيلها ؛ فان الباب العالي بدلاً من تفضيله رعاياه على غيرهم ، يؤثر الاجانب طمعاً في الربح . فبعض الدول الاوربية توصلت الى حمل الباب العالي على اخذ مكس مقداره ثلاثة في المئة على البضائع التي تبعث بها الى بلاد الدولة ، بينما رعايا السلطان يؤدون سبعة حتى عشرة في المئة على بضائعهم .

والتجار الاوربيون المقيمون في سورية يتخذون وكلاء من الوطنيين اصحاب المذهب اللاتيني . وقد توصلوا الى اشراكهم في امتيازاتهم ، لاجل ذلك ليس للحاكم وعماله سلطة عليهم ، ولا يستطيع احد تغريمهم ، وان اريد مقاضاتهم نظر في امرهم ديوان القنصل .

وهؤلاء الوكلاء يعرفون في الشرق باسم « تراجمة اصحاب براءة » والبراءات يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في الاستانة ؛ فكانوا يهبونها الى هؤلاء الوكلاء الوطنيين . لكنهم باتوا الآن يبيعونها ، فيجنون منها ارباحاً لا بأس بها ؛ فثمن الواحدة الفا قرش او الفان واربع مئة . وكل سفير يعطى خمسين براءة ؛ واذا مات صاحبها ، اخذ السفير براءة جديدة بدلاً منها .

ومن الاوربيين الذين تروج تجارتهم كثيراً في تركية الفرنسيون الذين يتعاطون فيها بيع جوخ « لنغدق » (Languedoc) والدودة القرمزية

والنيلة ، والسكر ، والبن الاميركي ، والخردوات ، والحديد ، وصفائح الرصاص ، والقصدير ، وجدل مدينة ليون ، والصابون ، وغير ذلك .
ويشحنون من سورية غزل القطن ، والصوف ، ونسيجها الخشن .

وللفرنسيين وكالات تجارية (Comptoirs) في حلب ، والاسكندرون واللاذقية ، وطرابلس ، وصيدا ، وعكا والرملة . والبضائع التي يأتون بها سنوياً من فرنسة تساوي قيمتها ستة ملايين فرنك هاك توزيعها .

٣٬٠٠٠٬٠٠٠	في حلب
٢٬٠٠٠٬٠٠٠	في صيدا وعكا
٤٠٠٬٠٠٠	في اللاذقية وطرابلس
٦٠٠٬٠٠٠	في الرملة

وجميع تلك البضائع تصل عن طريق مرسيلية ، ولا يعني ذلك ان المدن الفرنسية الاخرى الواقعة على الساحل الابيض والمحيط ، لا تستطيع شحن البضائع الى الشرق ، وانما اضطرار السفن الى الرسو اربعين يوماً في محجر مرسيلية ، يجعل سفرها الى الشرق شاقاً وعديم الفائدة .

ومقاطعة « لنغدوق » التي تصنع الجوخ .. يبعث للشرق ، التمست غير مرة من اولياء الامر ان يجعلوا فيها ايضاً محجراً ، ليتسنى لها ان تتعامل رأساً مع تركية . غير انهم لم يلبوا طلبها ، حذراً من فتح حلقة مرافئ في وجه وباء مخيف فتاك واعني به الطاعون .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تجيز للغرباء ، ولاسيما الذين يفدون اليها من تركية ، انزال بضائعهم الى الارض ما لم يدفعوا عشرين في المئة مكساً عليها . فهذا الرسم عدلوا عنه في السنة ١٧٧٧ ، بيد انهم في السنة ١٧٨٥ عادوا الرسم المذكور الى ما كان عليه ، مراعاة

لرغائب تجار موسيلية .

ان تجارة تركية مع الهند واوربة مضرة اكثر منها مفيدة ، اذ ان ما تبعث به تركية اليهم ، جميعه مواد اولية يمكن استثمارها في الصناعة المحلية بارباح طائلة . ثم ان البضائع التي تأتيها منهما ، ليست من الاشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً ، هي من الكماليات التي تزيد في ترف الاغنياء وارباب المناصب ، ولربما آلت الى جعل حالة الشعب اكثر شقاء .

ففي دولة لا تراعي حقوق رعاياها ، يؤدي رغبة عمالها في الاكثار من وسائل الترفه ، الى اثارة الجشع ، وازدياد اعمال السلب والنهب . فالحصول اكثر فاكثر على الاقمشة النفيسة ، والفراء والجلود الحريرية ، والشال الهندي ، يتطلب المال الوافر ، الذي لا يتسنى لهؤلاء احرازه الا بالنهب وفرض المغارم .

الفنون والعلوم

ان الفنون والصنائع في سورية صغيرة ، فهي لا تكاد تبلغ العشرين عدداً ، بما فيها تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها .

وفي البلاد قد حرم الصور والتماثيل ، لاجل ذلك لا صور فيها ولا تماثيل ولا ما يتفرع منها من الصنائع . والمسيحيون هم وحدهم الذين يحتاجون الى الصور ليزينوا بها كنائسهم فيجلبونها من القسطنطينية .

ثم ان الكثير من صنائع اوربة الاخرى لا اثر لها عندهم ، لانهم ليسوا في حاجة اليها . فمثلاً اثاث منزل صاحبه غني مقصور على السجاد ، والحصير ، والمساند ، والوسائد ، والفرشة ، وشراشف قطنية صغيرة ، وصواني من نحاس وخشب تستعمل موائد ، وقدر ، وهاون ، ومطحنة ، صغيرة سهلة النقل ، وصحون من خزف صيني ، او نحاس مبيّض . واما البسط ، والمتكآت ، والمرايا ، والمكاتب والخزائن ذات الادراج ، والكبيرة منها ، والتي تحفظ فيها ادوات المائدة من فضة وغير فضة ، فذلك كله لا وجود له عندهم .

وملابسهم التي نعتناها ليست بسيطة ، لا ازرار لها ، ولا ابازيم ، ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بدّ منها للاوربيين . فهي مؤلفة من سروال كبير واسع ، يقوم في آن واحد مقام الجوارب ؛ ومن قطعة من النسيج يتسترون بها ؛ وقطعة يشدونها على وسطهم ، وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك (1) .

---

(1) يلبس المملوك قميصاً قطنياً احمر اللون واسعاً ، ولباساً من النسيج الهندي

فنونهم وصنائعهم تقتصر على نسج الحرير في دمشق وحلب ، وصياغة الحلى للنسآء ، وصنع «الظروف» للفرشة ، وتزيين السروج و«الفلايين» . فلا يرى في اسواق تلك المدينتين سوى دباغين ، ونساجين ، وحلاقين ، وصيدليين ، وحدادين ، وسراجين ، وصناع اقفال ، وعطارين ، وجزارين ، وباعة الحبوب والتمر والصحنات ، وتجار خردوات ، «وقرداحيين» . واما البارود فان الحاجة اليه جعلت معظم القرويين يلمون بطريقة صنعه ؛ وليس له معمل خاص .

ويكتفي القرويون بالصنائع الاولية التي لا غنى لهم عنها . وكل منهم يجتهد في ان لا يشتري الا ما هو في حاجة اليه . وكل امرأة تصنع من نسيج القطن الخشن ما يلزمها لاجل كسوتها . وكل بيت فيه مطحنة سهلة النقل ، تطحن بها النسآء الذرة والشعير اللازمين لاقتيات اهل البيت . وما يخرج

او الدمشقي الضيق او الفارسي . فهذا اللباس يدعى «عنتري» ويصل حتى الكعب ، ويربط من الامام على الوركين ، ويحزم بشال حريري ، ثم يلبس لباس آخر من ذات الشكل والصنف ، له كمان متدليان حتى اطراف الاصابع ، اسمه «قفطان» يصنع عادة من الحرير ، وهو اقصر من «العنتري» ويشد بزنار طويل على الوسط فوقه . ثم يأتي لباس ثالث يدعونه «الجبة» ويصنعونه من الجوخ ، لا يختلف عنه بشكله الا بشيء واحد ؛ غير ان كميه مقطوعان عند الكوع ؛ فهي تصل الى ... واحياناً في الصيف يركبون عليه فروا . ويضع الملوك فوق تلك الملابس الثلاثة لباساً آخر اسمه «بُنش» (كلمة تركية تعني فروة كما يسميها اليوم) وهو الردآء الرسمي ، فيغطي به جميع الجسم ما عدا اطراف الاصابع التي لا يجوز اظهارها امام الكبرآء . فحينئذ يشبه جسم الانسان كيساً يبرز منه عنق عار ، ورأس ... تحيط به عمامة من شاش يلفونها بشكل متقن على قلنسوة حمرآء اسمها «قاووق» .

(من كلام فولني على مماليك مصر) .

من تلك المطاحن ليس دقيقاً تاماً . وخبزهم قليل الاختمار سيء الخبز ، ولكنهم يعيشون عليه ، ذلك كل ما يعرفونه

وقد رأيت كم هي تافهة منتجات عُدد الملاحة . وفي الجبال لا يشذبون الكروم ، ولا يأبرون الشجر . وجميع ما تراه هنالك يمثل لك ما كانت عليه الشعوب في العصور الاولى ، ولما سألت احدهم عن الباعث على هذا التقهقر من النقص في الصنائع ، اجابني : ما لدينا منها جيد وكاف لنا ؛ فما الفائدة من ان نعمل اكثر من ذلك .

وطريقة ممارستهم تلك الصنائع لا تختلف عما كان متبعاً فيها قديماً . نسيج الحرير في مدينة حلب ليس من ابتكار العرب ، بل اخذوا صنعته عن اليونان الذين تعلموها من الشرقيين الاقدمين . والاصباغ التي يستعملونها اتخذها الصوريون الاولون ، وهي ما زالت على درجة من الاتقان تشهد بعبقرية مخترعيها الاصليين . والصباغ الصوريون يحرصون جد الحرص على اساليبهم ، فيجعلونها سراً غامضاً ، لا يبوحون به الى احد .

والطريقة التي كانت متبعة قديماً في صيدا عند تقسية صفائح الصلد اصولها من معمول ضربة السيف ، هي نفسها المتبعة الآن في مدينتي حلب ودمشق لصنع حمائل اللجم [1] .

وقشور القصب التي يحشون بها السيوف ، تثبت عليها بالاستقامة ، مع كونها في الحد المطلوب يحفظ له مرونته ، من غير ان يترك وراءه بين قشرة

---

(١) يقول نولي في حاشية : انه رأى ذات مرة عربيين كل منهم في الماء ، صوب ابحبل دروعاً ، ويسب ، وسواعد من الزرد ، واغتدة اخرى واليه مصنوعة من الزرد ايضاً ، يرجع عهدها الى الصليبيين . ويوجد من تلك الاغتدة في جامع الدراويش ، الواقع على شاطئ النيل على مسافة فرسخ من القاهرة .

واخرى ، لئلا يسهل على حد السيف حزه .

والملاط الذي يستعملونه ، قد استعمله قبلهم اليونان والرومان ولكي يكون مزجه حسناً ، لا يأخذون الجير الا وهو في حالة الغليان ، فيضيفون اليه مقدار ثلثه من رمل ، وثلثيه من رماد واجر مسحوق . وبهذا الملاط يبنون الآبار والصهاريج وقساً لا ينفذ الماء منها .

وفي فلسطين يبنون القبب بأسطوانات من الاجر ، طول الاسطوانة ثماني اصابع او عشر ، قطرها من داخلها اصبعان ، وشكلها مخروط مخروطاً دقيقاً ، وطرفها الاوسع مفتوح ، والآخر مسدود ، فيصفونها جاعلين طرفها المسدود خارجاً ، ويصلون بعضها ببعض بجص القدس او نابلس ، وفي وسع اربعة من البنائين اتمام قبة صغيرة في يوم واحد . واذا تمت منها الاقطار الاول ، حشوها بالتراب الا سطوح تلك بجملتها . ويسدون افواهها الداخلية بطبقة من الجص ، فيجيء السقف متيناً وخفيفاً في آن واحد .

وفي سورية يبنون بتلك الاسطوانات حواشي السطوح ، ليحجبوا من النظر النساء اللاتي يغسلن او ينشرن الثياب . وقد بدأ الفرنسيون يستعملونها في باريز بعد ما استعملها الشرق منذ اقدم العصور .

والصهر في السباك طريقته قديمة وسهلة ، فالكور ان هو الا ثقب له شكل مخروط ، في جنب ارض محدودبة ، فيعدونها بالأتون حسناً ، ويملؤونه بالفحم عليه من اسفل ، يلقون فيه المعدن من فوهته العليا ، فيسقط المعدن كتلاً الى قعر الثقب ، فيسحبونه حينئذ من الفتحة التي اشعلت النار منها .

وفي الشرق حتى مزاليج الابواب الخشبية قديمة جداً ، وقد ذكرها سليمان في نشيده

واما موسيقاهم فانها لم تسبق عصر الخلفاء ، وهو عصر الاعتناء بالحكم

اعتناء . وبما ان اصولها اخذت عن اليونان ، فالراغبون فيها يجدون المجال فسيحاً للاسترسال في درسها . ولربما كانت القاهرة المدينة الوحيدة التي تتقن اصولها . ولدى المشايخ مجاميع دونت فيها الالحان بعلامات اعجازها فارسية ، لا شبه بينها وبين علامات الموسيقى العربية .

وقد جعلوا موسيقاهم باجمعها صوتية . فهم على صواب في ذلك ، لان آلات الطرب ، على نوعها الذي ، لم تبلغ عندهم درجة الاتقان . ثم انهم لا يعرفون من الطرب سوى مطابقة الاصوات ونقر الوتر الواحد .

انهم يحبون الغناء بالصوت المفرط في جميع مقاماته ، وهو صوت لا يقوى على تحمل مجهوده الا من كان قوي الصدر منهم

والحانهم من حيث طابعها وتعبيرها تختلف عن الامم الاوروبية ما عدا الاسبانيولية منها التي يدعونها (Sc[illegible]llas) . والتعبير الصوتي عندهم اتقن مما هو عليه حتى عند الايطاليين . وتبدلاتهم الصوتية من المتعذر على حنجرة الاوروبيين ترديدها . وعبارات اغانيهم تصحبها تنهدات وحركات تمثل العواطف بشدة . ويمكن القول انهم يتقنون النوع المحزن . فان رأيت احدهم حاني الرأس ، ويده على خده ، وعيناه دامعتان ، وسمعت نغمه الحزين ، وتنهداته ، وزفراته ، لم تعد على حس دموعه من شدة انفعاله ، وقد تكون تلك الدموع ذات جدية ومرغوبا فيه ، لانهم لا يحبون من الانغام الا تلك التي تحمل العين على درها .

والشرقيون ينظرون الى الرقص نظرة الاستقباح ، لانهم يعدون ذلك امراً شائناً . وما من رجل يستطيع الاقدام عليه من دون ان يلحقه العار . ولا يجوز الا لهن القيام به . فالرقص في الشرق لا يرمز الى الحرب كما هو عند اليونان ، ولا يتألف من حركات مرتبة لطيفة كما هو عند الافرنج ؛

بل هو تمثيل تحولي بدني . هو الرقص ذاته الذي ادخله العرب في اسبانية ، وما زال فيها حتى اليوم ، وهو المعروف هنالك باسم « فندنغو » (Fandango) وقد يصعب علينا وصفه وصفاً صحيحاً من غير ان نثير الاشمئزاز والكراهة . ويكفي القول ان الراقصة تبسط ذراعيها بشكل عرضي ، وهي تعي وتضرب بصُنَيجات « قُفيشات » قابضة عليها بأناملها ؛ ومن غير ان تنتقل من مكانها تأتي حركات محورها البطن .

والاقدام على مثل هذا الرقص جهاراً يتطلب جسارة بل قحة لا يؤدي بها الا المومسات فالنساء اللاتي يتعهدن بدعوتهن « عوالم » ، واشهرهن عوالم القاهرة : فلانة من الصفرآء ، وشرين السمرآء ، وحمدين السودآء ، وشفاعين الزرقآء ، وايدين الحصبة باسمه ، كل ذلك قد ذكرني برقصات احدى صوامع باريز التي كان الناس يختلفون الى حاناتها . فاذا كانت هؤلاء النساء فتيات عابثات حتى في الشعوب الاكثر رقياً ومدنية ، فيكفيك بين في الشعوب التي اصل الفنون فيها ما زالت في طور الطفولة عندهم .

والعلوم في الشرق ليست احسن حالاً من الفنون ؛ فهي في اقصى درجة من التقهقر ، ليس فقط في مصر وسورية ، بل ايضاً في سائر البلاد العثمانية ؛ وعبثاً حاول بعضهم انكار هذه الحقيقة استناداً الى مدارس ومعاهد جاءوا على ذكرها هؤلاء المطالبون بفضل الدول التي ينتسب اليها الاوربيون .

عصر الخلفاء مضى وانقضى ، وعصر الاتراك لم يبدأ بعد : فتلك البلاد ليس فيها الآن مهندسون ، ولا فلكيون ، ولا موسيقيون ، ولا اطباء . وقلما تجد فيها من يعرف العدد . والتطبيب هنالك مقصور

على الكي وبعض العقاقير . ويجب عليهم ان يتعلموا الطب ، وليس في البلاد معهد يلقن فيه . وقد تعاطوا الى علم الفلك ، وعدة منهم في معرفة الغيب والمستقبل من حركات الاجرام الفلكية . الا انهم لا يجهلون بالعلم الحقيقي الذي يشرح تلك الحركات بالاستناد الى علم الحساب .

ورهبان دير مار يوحنا الشويري الذين عندهم كتب ، وهم حملة يوماً ، لم يسمعوا قط قول غاليلي . فولني واقفته من ظهر بينهم ، ان الارض تدور حول الشمس . وكاد هذا القول يشككهم ، لان ذوي المعرفة والورع منهم كانوا يعدونه مخالفاً للكتاب المقدس ، وكانوا يحسبون فولني كافراً زنديقاً لو لم يساور الريب الثاقب العالم الذي قال لهم : يجب ان لا نكذب الافرنج ، ولو اننا لا نصدق كل ما يقولونه ؛ فان ما يرويه من فنونهم يفوق فنوننا بمراحل ؛ ففي وسعهم ان يرووا ما يعسر علينا من ادراكه . واما فولني فيقول انه خرج من هذه البلاد بثقة تامة دوران الارض على ثقة علماء بلاده الذين يعدهم هؤلاء الرهبان مجانين .

«ويبدو اذا شاهدنا عرب هذا العصر وعرب هارون الرشيد والمأمون ، حقيقة امر هؤلاء ، هي دون ما نتصوره عنهم . ان دولتهم لم تدم طويلاً حتى يتاح لهم ان يتقدموا في العلوم تقدماً كبيراً . فما شاهدته في بعض البلاد الاوربية ، يثبت لنا انها ما زالت تفتقر الى عدة قرون لكي تصل الى الدرجة المثلى من الثقافة

أوليس ما في كتب العرب مترجماً عن اليونان ، وصدى له فقط او كتب هؤلاء ؟ واما علم التوحيد الذي هو من خصائصهم دون غيرهم والذي يعتنون به ، فهو علم لغتهم ، اي ذلك العلم الذي يبحث عن اصل الكلمات ومعناها للاستدلال منها على تاريخ الافكار ، نقصد

اتقان فن التعبير الوصفي .

ودرس الصرف يستغرق عدة سنين ؛ ويليه النحو ؛ وهو علم خاص بالاحوال المختلفة المتواردة على آخر الكلمات بحسب معناها وتركيبها . فمن يتعلم ذلك يعد عالماً . ويأتي من ثم الادب ، وهذا ايضاً تستوعب دراسته السنين الطوال ، لان الطلاب يحفظون معظمه ، فلا يفهمون منه الا [illegible] شيأ ، ثم يشرعون في درس الشريعة والفقه ، الخ . . .

ورجال الدين هناك ليسوا كالكهنة والقسس الذين في اوربة ؛ فهم لا يعظون ولا يرشدون ؛ لاجل ذلك لا يشعرون بحاجة الى اتقان اللغة العامية في درسها ليس متيسراً ، لان لا قواعد لها .

وتعليم الاولاد حتى من لم تتقن يقوم بقراءة القرآن للمسلمين ، والمزامير للمسيحيين ، وشيء من الكتابة والحساب ؛ فيبادرون بعد ذلك الى تعلم حرفة ، لكي يتزوجوا ، ويكسبوا ما يقوم بمعيشتهم .

وربما الجهل قد اشتد هناك حتى ان الفريق الاعظم . ومن الاقوال المأثورة في مرسيلية ان التاجر الاجنبي الاصل ، المولود في الشرق ، جاهل كسلان ، لا يعرف سوى التكلم بعدة لغات .

وقد عزا بعضهم هذا الجهل في البلاد الشرقية ، الى صعوبة اللغة وكتابتها . ولا شك ان صعوبة اللهجات واشتراك الحروف يزيدان في صعوبة تعلم اللغة وكتابتها . غير ان الاجتهاد يتغلب عليها ، فيتوصل ابناء العرب الى القراءة والكتابة مثل الاوربيين .

واما السبب الحقيقي فهو قلة وسائل التعليم ، ولا سيما الافتقار الى الكتب ، فالكتب كثيرة في اوربة ، وهي من ثم اكثر انتشاراً من القراءة . واما في سورية فانهم لا يعرفون سوى مجموعتي كتب احدهم

في دير مار يوحنا الشوير التي مر بنا ذكرها ، والاخرى عند احمد باشا الجزار في عكا . وقد رأينا كيف كانت الاولى ناقصة من حيث الكمية والنوع . واما الثانية ، فالذين رأوها قالوا ان عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة ، وهي كل ما تسنى للجزار غنمه من جميع البلاد السورية . بما في ذلك خزانة دير المخلص الواقع على مقربة من صيدا ، وخزانة الشيخ خيري مفتي الرملة .

وفي حلب بيت البيطار هو وحده الذي فيه كتب تبحث من علم الفلك . والقاهرة غنية بالكتب ويوجد فيها مجموعة كبيرة قديمة جداً في الجامع الازهر غير ان مداولتها وقراءتها محظوران على المسيحيين .

وحوالي سنة ١٧٧٢ اراد رهبان دير مار يوحنا الشوير شراء بعض الكتب ، فاوفدوا احدهم الى القاهرة لتلك الغاية . وقد اتفق له ان يتعرف هنالك بمحمد المتمسي الذي تودد اليه . فكان مقداماً من اهل البحث ، فرغب ذاك المتميز ان يأخذه معه ، فحمل بقرضه الكتب . ففي مدة اشهر تسنى للراهب ان يطلع على نحو ستمئة مجلد موضوعها الصرف والنحو والبيان وشرح القرآن ، وبعض التاريخ والحكايات ، ولم يرَ سوى نسخة واحدة من كتاب « الف ليلة وليلة » .

فيتضح اذن ان الشرق يفتقر الى الكتب ، ولا سيما العلمية منها ، وذلك لان الكتب هنالك خطية ؛ ونسخ كتاب واحد عمل بطيء مضن عالي الاجرة ، وقد يدوم عدة اشهر . فمن الصعب والحالة هذه ان تتوفر الكتب وتنتشر هنا . واما في اوربة فالامر ليس كذلك ؛ فالطباعة الرائجة فيها كانت هي وحدها باعث على الانقلابات التي طرأت عليها منذ ثلاثمئة سنة ؛ وهي التي تعميمها الكتب ، ونشرها الافكار

واذاعتها الاكتشافات والاختراعات ، ساعدت على نمو العلوم والفنون نمواً سريعاً ، اذ جعلتها سهلة المنال لجميع طبقات الشعب . ومطبعة دير مار يوحنا الشوير مع كل ما تفتقر اليه لتبلغ درجة الاتقان ، قد ادخلت على حالة المسيحيين تحسناً ما من حيث القراءة والكتابة وبعض الثقافة .

فقلة الكتب وفقدان وسائل التعليم ، هما ، كما بيّنا ، سبب الجهل المستحوذ على الشرق ، لكنهما سبب عرضي ؛ واما السبب الاصلي فهو الدولة نفسها التي تبذل قصارى جهدها لسحق العلوم في مهدها . فطريقة الحكم في الشرق تزيل من الشعب امل الانتفاع من العلوم والفنون فالمرء هنالك ، وان كان ذكياً نابغاً ، ولا فرق بينه وبين امهر مهندسي اوربا وعلمائها من حيث علمه وثقافته ، فانه لا يلبث ان يفقد نشاطه بتأثير الجور السائد . واذ كان العلم الذي لا يمكن الحصول عليه الا بمنتهى التعب والمشقة ، يجلب الضرر والاذى ، فالافضل الاعراض عنه . لاجل ذلك ترى الشرقيين في هذا العصر اميين بمعزل عن ذلك العامل الذي يحملهم قراءة ، فيقولون في العلوم ، كما يقولون في الصنائع والفنون : ما الفائدة من جهودنا فيها .

عادات السوريين وبعض طباعهم

قال فولني :

عندما يدخل الاوربي الى سورية او الى اية ناحية من نواحي الشرق ، يسترعي انتباهه بادئ ذي بدء التفاوت بينه وبين سكانها ، وهو تفاوت قد يبدو كأنه قد حصل عن قصد . فنحن نلبس الثياب القصيرة ، وهم يلبسون منها ما هو طويل فضفاض ؛ نحن نربي شعر رؤوسنا ، ونحلق ذقوننا ، وهم يتركون شعر ذقونهم يطول ، ويحلقون رؤوسهم ؛ نحن نعدّ حسر الرأس دليل الاحترام ، وهم يحسبون ذلك من امارات الجنون ؛ نحن نحيي بانحناء وهم يحيون منتصبين ؛ نحن نقضي العمر وقوفاً وهم يقضونه قعوداً ؛ يأكلون وهم متربعون على الارض ، ونأكل ونحن جالسون على الكراسي حول الموائد .

وذلك الشأن نراه حتى في الامور المتعلقة باللغة ، فيكتبون بعكس كتابتنا ، ومعظم الاسماء المذكرة عندنا ، مؤنثة عندهم . فعلى المتبحر في العلوم الفلسفية ان يبحثوا عن مصدر تلك العادات المتباينة في شعوب احتياجاتهم واحدة ، واصل منشئهم واحد .

ومما يجدر ذكره ذلك المظهر بملامح واحاديث وحركات سكان تركية الدال على الورع والتقوى . فلا يرى في الطرق والاسواق الا اناس في ايديهم السبح ، ولا تسمع الا ابتهالات متحمسة موجهة الى الله تعالى ، وتطرق ذلك على الاسماع صوت حشد متحمسة يذكرها ذكر صفة من صفات الله المسبح والتسبيح . واذا ما رفعوا حملاً او الماء او غير ذلك ، نادوا « يا كريم » ، واذا حييتهم وشكرتهم ، قالوا : الله يحفظك .

وفي طباع الشرقيين امر آخر يستدعي الانتباه، وهو هيئتهم التي تظل هادئة ساكنة، سواء تقلوا او عطلوا؛ وبدلاً من الوجه الطلق البشوش الذي لأبناء قومنا، ترى ملامحهم وزينة عابسة كالحة؛ فقلما يضحكون. ويعدون مرح الغرب من عوارض الجنون. وان تحدثوا تحدثوا ببطء بلا حركة ولا عاطفة ويصغون الى محدثهم من غير ان يقاطعوه. ويداومون الصمت ايما كامنة. واذا ساروا مشوا بخطى ثابتة وجرياً وراء عمل او غرض.

انهم لا يدركون شيئاً من محاسن الرقص، ويقضون سحابة يومهم في التفكر والتأمل، وهم متربعون؛ وحلة التلبيون في تترهم، كأن الحركة تؤلمهم وتتعبهم، او كأن الخمود هو في نظرهم احد عناصر السعادة كما يظن الهنود.

ومن ثم يبحث فولني بدقة عن الباعث على ذلك السكون عند الشرقيين، وينتقد ما ادعاه كاتب شهير بالاستناد الى اقوال الرومانيين واليونانيين، عن حب الاسيويين لعيشة النعيم، والى رواية المسافرين العائدين من الهند في شأن بلادة الهنود وكسلهم. وقد حمل الى ذلك الكاتب ان الكسل طبيعي من طبعهم، ومصدره او الباعث عليه حرارة بلادهم، وقال ان سكان البلاد الحارة معدمو النشاط جسماً وفكراً. وقد ذهب الى ابعد مدى في استدلاله، ورأى ان استبداد الحكم عندهم ناجم من بلادتهم، واستخلص من ذلك ان الحكم الاستبدادي ملائم وضروري لهم.

تلك كانت النظرية التي جاء بها "مونتسكيو" في كتابه "روح الشرائع". ولاظهار فساد هذا الرأي يقول فولني: من كان الاشوريون شعباً خاملاً، وهم الذين دانت آسية لحروبهم مدة خمسة قرون. وماذا

نقول في المديين الذين خلعوا نير الاشوريين ، وانتزعوا الحكم منهم ؛ او في فرس كسرى الذين توصلوا في رهة ثلاثين سنة الى الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة ما بين بحر الروم ونهر الاندوس ؛ فهل كانوا ضعاف الهمة معدمي العزيمة ؟ أيجوز ان نقول ان الفينيقيين الذين سيطروا عدة قرون على تجارة المسكونة ، او التدمريين الذين خلفوا للاجيال التي اتت بعدهم الآثار القديمة الخالدة ، كانوا جميعهم اكسالاً ، لا حماسة فيهم ولا نشاط ... اذن لماذا لم يؤثر فيهم حر بلادهم ؟

ويعتقد فولني ان بلادة امة او نشاطها ينجمان من خصب بلادها او جدبها ؛ فان تيسر لها ان تجني بسهولة ما تحتاج اليه في معيشتها ، تكاسل نشاطها . فالحاجة والفاقة هما مصدر النشاط المتناهي ؛ فان معظم بلاد العرب قاحلة ، تقصر عن القيام بعيش سكانها . فلاجل ذلك كانت البلاد الخصبة تستثير فيهم عوامل الطمع .

ويقابل من ثم سكون الشرقي او ما يدعوه « برودتهم » (flegme) بعدل الغربي ، وميلهم الى المداعبة ، ويبحث من اسباب ذلك ، فيجدها في الاكل والشرب ومعاشرة النساء . فالخمر محرم على الشرقيين شربها . والاكل الطيب الدسم يؤدي بهم الى المعيشة الخاملة التي تؤثر التبلد . واما مخالطة النساء فهي امر تحول دونه العادات والاعتقادات . لان النساء في الشرق محجور عليهن ؛ فلا يستطعن مقابلة احد من الرجال ، ما عدا ازواجهن وآباءهن واخوتهن واحيانا ابناء عمومتهن . ويعد جميع الرجال غرباء عنهن ، فلا يجرؤون على محادثتهم . ومن الامور المخلة بالادب التحديق اليهن . والمحتوم تركهن يمررن على حدة ، بعدم الاكتراث لهن او الالتفات اليهن .

ثم ينتقل فولي الى البحث عن تأثير ذلك كله في اخلاق السيدات الشرقيات ، ومعاملة الرجال لهن ، ثم يقول : يحسب الشرقيون العقم عاراً ، وكثرة النسل امراً مرغوباً فيه ، ويشهدون من هذا القبيل الاقدمين ؛ ومن احسن عبارات التمني التي تقال لبكر نوها فتاة ، ان تصير عروساً وترزق الكثير من البنين . فهذا ما يحملهم على الاسراع في الزواج . وكثيراً ما يعقد زواج فتاة في التاسعة او العاشرة من عمرها ، على فتى لا يتجاوز سنه الاثنتي عشرة او الثلاثة عشرة من سنه . وقد يحملهم على التبكير في الزواج الخوف من التقصير في حفظ العذرة والعفة .

ثم يذكر شيئاً عن تعدد الزوجات ، وبعض ما قيل له في ذلك الشأن ، ويقارن المسلمين بالمسيحيين ، فيفضل اولئك على هؤلاء . ويقول : ما افضت في شرحه عن اخلاق الشرقيين يوضح باجلى بيان ان المعيشة على نمط واحد تؤثر في اخلاقهم ؛ فان وسائل التسلية في الاماكن التي هي اكثر نشاطاً من غيرها ، كحلب ودمشق والقاهرة ، تقتصر على الذهاب الى الحمامات والاختلاف الى المقاهي حيث يقضون ساعات يومهم في التدخين والتحادث عن اشغالهم بعبارات نادرة وجيزة . وقد يجيئهم احياناً منشد او رقاصة او قصاص يروي لهم الحكايات ، او ينشد قصيدة من نظم احد الشعراء الاقدمين ؛ فيصغون اليه بمزيد الانتباه . والناس هنالك ، من صغار وكبار ، مولعون بالقصص والروايات ، والقصص نفسه يتناقلها في ساعات الفراغ .

والمسافر الذي يركب البحر من ورقة ، يأخذه العجب اذا ما رأى البحرية مجتمعين في اوقات الهدوء او اوقات الاستراحة حيث يقضون ساعتين او ثلاث ساعات في الاستماع لما يقوله احدهم . ولا يجب على

ذلك المسافر ان يعرف مما يطرق اذنه من قوافٍ وقياس متتابع انهم يصغون الى قصيدة .

ويعترف نوبي ان الشرقيين امهر من الغربيين في نظم القريض ، وارق منهم شعوراً في امور اخرى . وعامة الشعب في المدن ، ولو انهم محافظون صياحون ، الا انهم ليسوا قساة القلوب كسكان المدن في الغرب ، وهم يستخفون من اهله كل نبأ وخطر ، خلوهم من تلك العادتين القبيحتين ، اعني بهما السكر والميسر . وقد يميلون الى لعب الشطرنج ، والبعض منهم يتقنونه تمام الاتقان ، ولا يعرفون من مناظر التسلية الا نوعاً واحداً مألوفاً في القاهرة دون غيرها ، وهو الذي يقوم بتمثيله مشعوذون قد حذقوا فيه ؛ فتراهم يأكلون الحصى ، ويخرجون النار من افواههم ويثقبون ادمغتهم وآنافهم من غير ان يشعروا بألم ، ويأكلون الافاعي .

فتلك الشعوذات يقومون بها بطرائق واساليب يموهونها على الناس ، والشعب يجلهم ويعجب من مهارتهم . والكثيرون يؤمنون ايماناً ثابتاً بحقيقة ما يشاهدون ، والشرقي ميال الى تصديق كل ما يقال له ، فهو حتى اليوم يؤمن بالعفاريت والجان .

ويُطري نوبي ذكاء الشرقيين ، وحديثهم الحلو ، ومواهبهم الحادة ، والهامهم الصحيح بالاشياء التي يعرفونها ، وميلهم الى التعبير بوجيز الكلام عما هو حق وصواب ؛ فالامثال التي يتناقلونها والحكم التي يُرددون ذكرها ، تدل على انهم يعرفون كيف يجمعون بين دقة الملاحظة وغموض المعنى ولواذع التعبير .

ويعترف هو نفسه بان عشرتهم عذبة جذابة ، وان السيّاح والتجار الاوربيين الذين عاشروهم يحنون على الافراد فانهم يفوقون الاوربيين

برقة طباعهم، وكرم اخلاقهم، وسلامة طويتهم، ولطافة معاشرتهم.

ثم يختم قولني هذا الفصل، بل كتابه كله، عن سورية، بوصفه التأثير الذي شعر به اذ وطئت قدماه ارض الوطن، بعد غياب دام ثلاث سنين، فيقارن الخراب المنتشر في الشرق بعمران بلاده، فيقول: لقد استحوذت علي الدهشة اذ اخترقت فرنسا المنبسطة بين سواحل البحر الاوسط والبحر المحيط، فبعد تلك القرى الخربة والصحارى الواسعة التي اعتدت رؤيتها، وجدت نفسي قد انتقلت فجأة الى جنة لا نهاية لها، فيها الحقول المزروعة، والمدن المعمورة، والمساكن الرائعة، وهي تتوالى بلا انقطاع مدة عشرين يوماً. وبين مقارنتي هاتيك الجنة بالبيوت الحقيرة التي غادرتها مشيدة بالاحجار والتراب، وبالمدن ذات المنظر الدال على الاقفار والخراب بالمدن الشرقية الخربة المهملة، وبلاد الدولة العثمانية المقفرة المضطربة الاركان، وبلادنا التي تفيض عليها الخيرات، وتسود في ربوعها الامان والاطمئنان، ويشير كل ما فيها الى عظم قدرتها وثروتها، شعرت في نفسي كأني انتقل من الاعجاب الى الحنان، ومن الحنان الى التأمل والتفكير، فقلت بيني وبين نفسي: لماذا هذا التفاوت العظيم بين ارضين متشابهتين بطبيعة تربتهما وهوائهما! ولماذا كل هذا الاجتهاد والنشاط هنا، وكل ذلك الجمود والخمول هنالك! ولماذا هذا الفرق الكبير بين البشر انفسهم وهم جنس واحد! ثم تذكرت ان تلك الاصقاع التي رأيتها مقفرة خربة متوحشة، كانت في العصور الخالية مزدهرة، عامرة؛ فتطرقت بفكري الى مقارنة ثانية، وقلت: وان كانت الدول الاوروبية الناهضة هي ايضاً قد حازت، في سالف الزمن، مثل ذلك البهاء والرخاء، ألا يمكن ان ما نزل بها بعدد من المواثل والنكبات،

يصيب ذات يوم الدول الاوربية نفسها . وذاك المفكر القلقي واحرتني، لكني رأيته لا يخلو من الفطنة . لنفرض اذاً ان نذرأ حتى مصر وسورية اذ كانتا في اوج عزهما ومجدهما ، واراهما بعض متقلبات من الرزايا والبلايا ما تقاسيانه اليوم ؟ ولنفرض ايضاً انه قال لهما : «ستدفعكما هذه الشرائع وهذا الحكم الى اسفل دركات الذل والهوان . » أليس من المرجح انهما تكونان عندئذ ما تستطيعانه لاجتناب مثل هذا السقوط . والذي لم تعلماه حينئذ ، في وسعنا نحن الآن ولنكن مثلهما امثولة لنا . ومن فوائد التاريخ ان ما حدث في الماضي من شأنه ان يسدد خطانا . والرحلات التي نقوم بها الى هاتيك البلاد فوائدها عظيمة ، لانها تتيح لنا ان نمعن النظر في أحوالها ، وندرك حقيقة امورها ونفهم حوادثها في مجراها ، ونستقصي كل علاقة من علائقها ، ونلم بجميع اطوارها ، فنلقى الادوار التي يقوم بتمثيلها نظام حكومتها . فان ما نرويه لكم عن البلاد التي اختبرناها ، فتفقد ما فيها ، يصلح الدليل على عوامل ارتقائها وانحطاطها ، بل الوسيلة التي تمكن من معرفة الحد الكامل للسلطة . وتركية من هذا القبيل بلاد ذات فوائد جمة ؛ وما شرحته عنها يدل بأجلى بيان على مدى الاضرار الناجمة عن السلطة التي يساء استعمالها ، اذ ما قتلته شدة الافراد وتلاشي شوكة الحكم . ومن الواضح الذي لا ريب فيه ان خراب امة يعود بالويل على نفسه . لاجل ذلك نجد الحكام عقاب تدخلهم وعواقبهم في بؤس وشقاء حال الشعب الذي يسوسونه .

ملحق

في

مقتل الجزار

* [illegible] وضعت بعض هذه [illegible] عرف في سورية بعد رحيل [illegible] ولكن [illegible]
احمد باشا [illegible] وقد [illegible] ذكرها [illegible] الفائدة . واما الكتب التي اعتمدنا
عليها ، فهي : « تاريخ سورية ولبنان » [illegible] « [illegible] » [illegible] « ساحرة الصحراء »
[illegible] « مختصر تاريخ مصر » [illegible] « [illegible]
الزهور في تاريخ الدهور » ليوحنا ابكاريوس .

[illegible] البلاد السورية لا تزال من احمد باشا الجزار ، فهي [illegible] حكمه الطويل اذاق السوريين من الجور والعسف ما يقصر القلم عن وصفه . والرجل [illegible] بعد حداثته في [illegible] الدماء ، وقد رأيت [illegible] كتبه فولني كيف كان [illegible] على [illegible] المصري [illegible] على الخصوم [illegible] . ومع حداثة [illegible] كان الكبار والصغار يخافونه ملقبين اياه « بالجزار » ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد [illegible] كل [illegible] فقد [illegible] الكبد ، مجرداً من كل عاطفة شريفة ، بل كان [illegible] صدقاً ، لا يرعى لصديق ذمة ، ولا لحليف ولاء ، ولا لقسم حرمة .

وكان الحكام في ذلك العهد مطلقي السلطة ، يتصرفون بشؤون البلاد وارواح العباد كما [illegible] من غير ان يحاول احد مناقشتهم

الحساب ، او يجرؤ على ان يردعهم . ومن سوء طالع سورية ان الجزار توصل بدهائه وبذل المال الكثير الى حمل الباب العالي في سنة ١٧٨٥ على اسناد مقاليد ولاية دمشق اليه ، مع ابقائه عاملاً ، في الوقت ذاته ، على ايالة عكا . لكن مدة حكمه في دمشق لم تتجاوز السنة الواحدة ، لان اعيان المدينة الذين اوجسوا شراً من عزمه على احتكار جميع حنطة حوران وحماه ، بدلاً من بيعها من السكان بسعر معتدل ، رفعوا شكواهم الى الاستانة . وانتهزت فرصة غيابه في الحج ، فصدرت « الارادة السنية » بعزله قبل رجوعه من الاقطار الحجازية ، وباسناد ولاية دمشق الى « [illegible] » ، ورأى الامر فمضى منفرداً الى عكا من غير ان يعرج على دمشق ، وقد اخذ منه الحنق كل مأخذ على سكانها .

وقد تمكن من ان يعود فيثأر منهم في توليه على مدينتهم ثانية في سنة ١٧٩٠ ، فكان كل سنة مدة عودته من الحج ، يقضي فترة من الزمن بين ظهرانيهم ، فيطلق العنان لنفسه ، ويرتكب مطمئناً شتى ضروب الاثم والظلم . ففي السنة الثانية لتوليه الحكم ، قتل خنقاً في القلعة مئة وستين رجلاً ، وفي السنة التالية قتل ايضاً ستين رجلاً . وقد اوسع ذاته قتلاً باوامره مفتي دمشق عبد الرحمن المرادي ، وعلي بك حفيد اسعد باشا العظم ، وغيرهما من ذوي الوجاهة والمكانة .

ومن شدة مكره وخبث نيته ، كان يغري بعض الدهاة ، ويحرضهم على قتل من يريد قتلهم ؛ فكان البعض من هؤلاء الدهاة يقربون جرماً من حول العرش المطيع لدى بأمرهم [illegible] . وقد دامت حكمه هذه المرة خمس سنين .

فأرباب الامر في الاستانة الذين لم يكونوا يبالون بما يصيب الرعايا من

احبب على يد الحكام ، جعلوا الجزار والياً على دمشق دفعة ثالثة في سنة ١٨٠٣ ، لكن مدة حكمه لم تطل ، اذ انه هلك وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وليس ابلغ مما قاله في موته احد معاصريه للدلالة على كره الناس له ، وفرحهم بهلاكه ، وهو :

وافى السرور وصحّ تاريخ الأمل   هلاك ظالم لا يعادله مثلُ

ومن مظالمه التي لا يحصرها عدٌّ شنقه للامير يوسف وكاتبه غندور خوري (١) وامره بابقائهم معلقين ثلاثة ايام ، ولكن اتفق في مثل هذا اليوم ان اطلع حاله ، فعاد الى رشده ، وبعث الى سعيد بقيمته يأمره بالعدول عن قتل الامير . ولما كان قد سبق السيف العذل ، فان اوامره وصلت الى الجلاد بعد ما عُلق الامير على اعواد المشنقة ، وزهقت روحه حسبه

وبيروت ايضاً لم تنجُ من جور الجزار ، فانه احدث فيها ضرباً جديداً من ضروب الظلم اذ الزم رجلاً يدعى « فارس الدهان » تبليص الحكام من اموالهم بدل مبلغ قدره مئتان وخمسون الف قرش اداه اليه الرجل

(١) هو ثالث كتبة الامير يوسف ، اولهم سعد ، وثانيهم فارس ابو غندور غندور هذا قد توسل الى حمل دولة الفرنسيس ... ووصل له في مدينة بيروت و الجزار الذي علم ان الرجل قبل ذلك ... حتى عليه ، واخذ يتعقب الفرصة للايقاع به . ولما علم الجزار الامير يوسف من الحكم وعين بدلاً منه الامير بشير بن قاسم ... الامير يوسف سوء العاقبة ، فهرب الى والي دمشق الذي كان آنئذ ابراهيم باشا ... واقام هو وغندور وبعض الخدم في قرية من القرى من دمشق . فذهب غندور ذات يوم الى صيدنايا ، فرأى الكنائس مقفلة ، والكهنة تقوم فروض العبادة في البيوت . [illegible] ان غندور يميل الى البطريرك دابيال الارثوذكسي ، [illegible] في السعي الى دمشق والتمس من الوالي اعادة الكنائس الى اصحابها الاصليين ، فكان له ما اراد .

الشيء جعل من ساعته يسوم الناس خسفاً وعسفاً ليبتزّ منهم ما استطاع من المال . وكان يقبض على الذين يتقاعسون عن تأدية المطلوب منهم ويلقيهم في غياهب السجن ، ولا يفرج عنهم الا بعد ان يقوموا بدفع المفروض عليهم

ومن البديهي ان يحتفظ لنفسه بشطر طيب مما كان يدخل عليه على هذا النحو ، حتى غدا في وقت قصير من الأثرياء .

فاستثار ذلك حسد المدعو الياس نصير الذي طلب من الجزار ان يحله محل فارس ويدفع ثماني مئة قرش تعهد بدفعها ورأساً . فاستدعى الجزار فارساً وقال له : اما ان تدفع قيمة الالتزام الجديدة ، و تتخلى عن عملك . فرضي فارس بالزيادة على ان يؤدي [illegible] ، فأمر الجزار بقتل [illegible] . و[illegible] [illegible] [illegible] نصارى بيروت من [illegible] ، حتى اضطر الكثيرون ان يعرضوا للبيع بعض الاثاث وعقاراتهم ومقتنياتهم ، لكي يتمكنوا من بذل المطلوب منهم . غير انهم لم يجرؤ احد على شرائه شيء ، خوفاً من ان يتهمه فارس ذا مال فيطمع في تسليبه .

وهكذا [illegible] [illegible] شدة لم يسبق لسكانها ان [illegible] . ومن الذين ذاقوا الامرين رجل من بني طراد رضي ان يتخلى عن [illegible] ليقوم بتأدية المال المطلوب منه ، لكن [illegible] [illegible] ، ولم يبق له طاقة على احتمال عذاب السجن ، طلب ان يسمح له بالخروج [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ما كان [illegible] عليه فما ان وصل الى شاطئ البحر حتى [illegible] الذي كان [illegible] ، والقى نفسه في اليم ، مفضلاً الموت على [illegible] في قيد الحياة ومقاساة اضطهاد [illegible] .

بيد ان فارساً لم يعش طويلاً ليتمم ثمر جرائمه ، فانه بعد ان مات من السكان خلق كثير ، وبعد الالف من المدينة ، ولم يبق للجزار امل في الحصول على اكثر مما حصل عليه ، اطلق سبيل من كان منهم باقياً في السجن ، وقبض على فارس ، واخذ منه مئة الف قرش ، ثم اماته شر الميتات . وصاحب تاريخ « قطف الزهر » الذي ذكر ذلك قال في ختام حديثه (ص ١٢٩) : « وبعدت كربتهم (الضمير عائد الى السكان) بغيبة فارس السفاك ، وتسلوا عن مصائبهم ، وشمت به جميع الناس حتى اقرباؤه واصدقاؤه » .

ومن الحوادث الخليقة بالذكر في ايام الجزار ، مجيء بونابرت من مصر في سنة ١٧٩٩ على رأس جيش كبير ، وضربه الحصار على عكا ، ثم رجوعه منها من غير ان يفوز بطائل ، بعد حصاره لها من ١٩ آذار حتى ٢٠ ايار من تلك السنة . وقد ابدى الجزار شيئاً كثيراً من الثبات والمثابرة على المقاومة بمؤازرة طائفة من السفن الانكليزية بقيادة (سدني سميث) التي حالت دون اقتراب المراكب الفرنسية من عكا . وكان المشرف على وسائل الدفاع « فيليبو » عدو بونابرت وخصمه في مدرسة الحربية بمدينة « بريين » (Brienne) .

وعكا هي المدينة التي قاست الاهوال من جور الجزار واستبداده ، اذ جعلها مقراً وقاعدة لحكمه ، وهو لم يقتصر على تحصينها والاقامة فيها ، لان الشيخ ظاهر العمر كان قد حصنها قبله ، وشيد فيها قصراً فخماً . ومن البديهي ان يصيبها اكبر قسم من مظالمه ، وقد قضى فيها شطراً كبيراً من سني حياته . وكانت آثار مظالمه ماثلة للعيون حتى بعد موته . فكان يرى في اسواقها وشوارعها رجالٌ جدعٌ ، فالبعض

منهم كانوا بلا انف ، وآخرون بلا اذن ، وكثيرون كانوا عوراً . فالجزار كان في ساعات الفراغ يجلس الى احدى مقاصير قصره المطلة على الشارع ، فيراقب من نافذتها ما يجري هنالك ، فان وقع نظره على عابر سبيل دميم الخلقة ، يأمر باحضاره اليه ، واذ يمثل امامه يقول له : « لم أرك من قبل » او : « انك من نذير التشاؤم » . ثم يلتفت الى احد مملوكيه الزنجي سيف نقمته [٢] ويقول : « رجل قبيح المنظر كهذا لا يستحق ان يبقى في قيد الحياة » . ثم يأمر بدق عنقه ، او بتر اذنه ، او جدع انفه ، او فقء عينه .

وكان رجاله عملاً بأوامره يأتونه بالذين يمرون بالشارع الكبير في وقت من الاوقات . فيوقف بعضهم الى يمينه ، والبعض الآخر الى يساره ، ثم يقول : « خذوا الى المشنقة الذين عن يساري ، واتركوا بسلام الذين عن يميني » . وقد حدث ذات مرة ان أمر حلاقه بحلق ذقن رجل غريب من ذوي الوجاهة ، واذ بدت على وجه الحلاق امارات الحيرة والتردد ، قال له : تطهر بعطر المشتري ، هل الحادث على اشد ادراك جهلت لما نحب عنه ؟ فاذن احدث العمل » . ومن ساعته أمر سيافه بعنق الحلاق فقطعها ، وقذف بها في وجه صاحبها .

ومن الذين شوههم على هذا النحو « حاييم » اليهودي الدمشقي المثري في الديوان ، وكان الجزار قد كتب اسمه مع اسماء الذين عزم على

---

(٢) وقع هذا المملوك في قبضة الفرنسيين في اثناء حصارهم لعكا ، فتعجب بونابرت من شجاعته ، وأمر بمعالجته معالجة طبية . ومع انه عرف الجميل لآسريه ، فانضوى الى فرقة بونابرت . وقد قتل في موقعة ابي قير التي خاض غمارها وهو في طليعة كوكبة .

قتلهم في جدول كان يضعه تحت وسادته ، فيه اسم عدد عديد ممن
قتله مكتفياً بفقع عينه ، وجدع انفه ، وبتر اذنه ، وبعدما ... حاييم
بين يديه وهو مشوه على هذه الاحوال ، اخذ في الضحك والقهقهة ،
وقال له : « لم يبق ما يجدي ... ستمسي دميماً الى الابد » .
ثم دنا منه ووضع يده على كتفه وقال : « انك لسعيد انت يا معلم
حاييم لانك صديقي ، فاحمد الله على ذلك ، ولولا محبتي لك لفصلت
رأسك من جسمك » . وصار حاييم بعد موت الجزار وزيراً لسليمان باشا
وكذلك كان هذا الرجل الى ان آلت به الحال الى القتل ، فان عبدالله باشا والي
صيدا اورده حتفه في سنة ١٨١٨ .

ولما ادنى جرم الجزار فتكه بمماليكه ... في احوال جليلة
بعسكر ؛ ففي بعض الاسباب انه كان في الاثناء ... ، ومعه مئتان
من مماليكه الاربع مئة ، اعتدى سادته الظلم ، وخصيان المعهود اليهم
في حراستهن ، تواطوا في مراقدهن ؛ ... اقام في عكا
تحت يد خزنداره اتقام مقامه ، فتمكنوا من ذبح عادمهم ؛ فاختار
الخزندار لنفسه خطة خزار المعروفة بهجة .

وبعدما قتل الجزار ... من اتباعه ، حط بونابرت ... فيه اربعة
من ... ، واقسم ان يعملون معرة لمن ...
... ، ولكن ... الاورنة ... ، امر سليمان ، وهو امير
الخزندار بحشد الجيش في مكان يعرف ... ، منتظراً انه يريد
الزحف به على الامير يوسف ... من حوارة
والدلاتية ... ذهبت الى معسكرا ، ولم يبق في عكا
سوى اثنتي مملوكاً الذي عزم على اهلاكهم .

وبينما كان ذات يوم واقفاً على مقربة من احد بوابات قصره ، لمح رجلاً طاعناً في السن ، وفي يده باقة ، يطرق باب الحريم ، ثم يناول احد الخصيان الباقة . ولما دخل الجزار مخدع الحريم ، رأى الباقة في يد ولجة الحسناء ، فقال لها : « من اين جئت بهذه الازهار ؟ » قالت : « من الحديقة » قال بلطف وتصنع : « تعالي الي ، من اكثر من مرة حدث وقد رأيت الصبي النصراني يجيئك بها ، فقولي في صدق من هو عشيقك لعلي استطيع ان اغفر لك . » ولكن ولجة المسكينة لزمت الصمت ، فطاحت بالجزار الغضب فجأة ، وانقض عليها ، وامسك بها من شعرها ، والقاها الى الارض ، وصرخ بها قائلاً : « ايتها الخائنة ، لقد اعترفت بذنبك ، ولا نجاة لك من العقاب الذي تستحقينه ان لم تبوحي باسماء شركائك » . وعبثاً حاولت التأكيد له انها بريئة ، فبضربة سيف قطع رأسها ، وامر الجنود الاربعة الذين حضروا اليه ، ان يقتلوا الفتى هناك .

وعندما طرق سمع الجند دوي ذلك ادرك الضباط الخمسين في ساحة القصر ادركوا انه حدث امر جلل ، فاعدوا سلاحهم وانطلقوا الى مقر الجزار ، وهو مخدع فيه حجرة ، لها ابواب مصفحة بالحديد ، فعدوا جميع ابوابه وهو يتعرف مجرى الامور . فتمثلت الحالة ، والجزار الذي استشاط غيظاً مرهم بملاقاة الفرح . فكلمهم الجنود وقالوا : « كثيراً ما لطخت يداك بالدماء ، وها انت الآن تريد ان تسفك دماءنا ؛ فنحن والحالة هذه ، نأبى الاذعان لك » . ولما كان مستودع البارود متصل بالخزانة فقد هددوا قائلين : « ان حاولت اخراجنا عنوة من هذا المكان فسنعمد الى مقاومتك ، ونظل ندافع عن دواخلنا الى ان تعمد دعوتنا ،

فاضرم النار في مستودع البارود فدوت نحو وتهدمت ائت معها
وقتي عكا خراباً . واصبحت تركتنا رحل من عدوان يلحق بنا اذى ،
ولا نعود نفكر في اخذ ثارنا من عدو الى حيث لا تسمع عن شيء » . فارعد
الجزار وازبد ، ولاروا عليه امر بطرح بعض حاشيته في حفرة كلس ،
ووضع بعض الآخر في حرائق ، و علقوا من في اليم . وكان سكان المدينة
دخلت في اقصى حد من الحرج ، ولم يجرؤ احد منهم على الخروج من بيته ،
ففي ليلة من ليالي ، تمرد معظم الذين ضباط الرواقد الحديدية ،
نحو البرج ، آخذين معهم عدداً من المال الذي كان في الخزنة ،
وفروا الى جبال نابلس ؛ وهم على آخر رمق ، وثيابهم ممزقة ، والدم
يسيل من ايديهم وخطاهم وهم على تلك الحال اثار شعور سليمان الذي
اسرع الى الاضرار بهم فانكل بالعصيان ، و تعقبت الجنود باحمهم على
الجزار فحاصروا الامير يوسف ، واستولوا على صور وصيدا ، وزحفوا
من ثم الى عكا ، فاصبح الجزار في احرج مأزق . مع انه لم ييأس ،
بل ظل ثابت الجأش شديد البأس . فاورد حاشيته الذين شعروا آنئذ
بأي من الخطورة ، اذ كان يخيل اليهم ان ساعة هلاكه قد دنت ،
ألحوا عليه بانتقال الحكم ، ليبعدوا عن المدينة اهوال الحصار . لكنه
اجاب وقال : « ليهدأ روعكم ، اخلائي ؛ فمن الذي في يده زمام
الامور ، سيتيح لي عن قريب ان اعرب لكم عن شكري نصيحتكم
هذه » . واتبعه كما يجدبه التحريض من … ، عهد الى جواسيس من
ذوي الفطنة والاقدام ، في التجول بين صفوف العصاة ، وحض هؤلاء
على الطاعة ، مبينين لهم عقبة تمردهم ، مرسخين في اذهانهم عدم الفائدة
من مقاومتهم . ثم اجتذب اليه بعض سكان عكا من الدروع على

حمل السلاح ، فضمهم الى عمل المدفعية . وهكذا توصل الى ايجاد جيش صغير تمكن به من رد الوهابيين على اعقابهم . وولى المماليك الادبار ، وفروا الى ما وراء البحار . ومن ثم عاد الى النساء اللاتي يخفن من الموت فروى غليله منهن بخنقهن وطرحهن عاريات في قعر مركب ، يُغرقن في امواج الاستانة . وبادر من ثم الى قطع اشجار الحديقة لئلا يتخذ لاحد الاختباء وراءها ، حتى مطامير دار الحريم لم تنجُ من نقمته .

وقد حدث ذات يوم ان مملوكاً يدعى سليمان ، وهو من المماليك المتمردين ، عاد الى القصر على حين غرة ، فلما رآه الجزار غضب غضباً شديداً ، واستل فأساً يضربه بها ، وقال له : ... من شقي ثم ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟ اجاب المملوك وقال : جئت الموت على قدميك ، فان افضل الموت على العيشة بعيداً عنك . قال الجزار : كنت تعرف حق المعرفة ان الجزار لم يعفُ قط في حياته عن احد . فعاد سليمان جوابه الاول . وعندئذ اخذ الفأس . وقد تكررت الاقوال بينهما مثنى وثلاث في وسط سكوت رهيب ، فكان شبح الموت باسطاً ذراعيه على ذلك المكان ، والحضور صامتون ، كأنهم في حضرة رجل يجود بروحه . واخيراً رمى الجزار الفأس من يده ، وقال : هوذا الجزار يعفو لاول مرة في حياته كلها ! ..

ومن غرائب الاتفاق ان سليمان هذا خلف الجزار في الحكم ؛ ولا شك ان اختباره للحاضر وقفة حمله على ان يكون حليماً عادلاً بمقدار ما كان سلفه شرساً عاتياً .

بيد ان الجزار كان يميل احياناً الى الضحك . واذا طرحنا جانباً استهزاءه بالذين كان يحكم عليهم بالموت ، اتضح لنا انه كان يعرف اطراف مسامعيه بميح الكلام ، ولنا شاهد على ذلك ما قاله يوماً لاحد

نصارى عكا . وتحرير الخبر ان تاجراً كان يقيم مع ابنه في بيت له طبقتان ، مشيد على شاطئ البحر . فالاب كان يسكن الطبقة العليا التي كانت جافة طلقة الهواء ، ويقيم الابن في الطبقة السفلى التي كانت رطبة وهواؤها مضر بالصحة . ولما عزم الابن على الزواج ، حمل اباه على التخلي له عن غرفه لمدة اسبوعين . غير ان الخمسة عشر يوماً انقضت والشاب وعروسه لم يخليا تلك الغرف ، فبادر الاب الى تذكيرهما بوجوب اعادتها اليه . فتوسلا اليه ان يمهلهما اسبوعاً آخر حتى يعدا العدة للانتقال الى الطبقة السفلى . لكن الاسبوع انقضى ، والشابان لم يحركا ساكناً . فالاب الذي انهكته الرطوبة اعاد الكرة وانما بلا جدوى، اذ قال له ابنه : سيبقى كل منا حيث هو الآن ..

فالجزار الذي كان له جواسيس في المدينة ، علم منهم بالحادث ؛ فامر باحضار الابن . ولما مثل الشاب بين يديه ، قال له بغضب : ما هي ديانتك ؟ اجابه خائفاً متلعثماً : انا مسيحي . فقال له الجزار : ارني كيف يعرف المسيحيون بعضهم بعضاً . فبادر الشاب الى رسم اشارة الصليب ، قائلاً : باسم الآب ، والابن ... فقال الجزار : اذن بحكم دينكم ان الاب يجب ان يكون فوق والابن تحت . فاطع اوامر دينك ان اردت ان يبقى رأسك على جسمك .

فهرس الكتاب

	صفحة
تمهيد	٣
ولاية حلب	٥
ولاية طرابلس	١٦
ولاية صيدا (او عكا)	٣١
ولاية دمشق	٤٥
ايالة فلسطين	٧٠
نظرة شاملة	٨١
الفلاحون والفلاحة	٨٦
الصناعة والتجارة والملاحة	٩١
الفنون والعلوم	١٠٠
عادات السوريين وبعض طباعهم	١١٠
ملحق : في بعض مظالم الجزار	١١٧

B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

[redacted]
فولني، قسطنطين فرنسوا شاسبوف(كون
سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثاد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

CA

CA
915.69
V92sA
v.1-2
c.1